ما بعد الموت

عبد الرزاق قرنح

ترجمة: نوف الميموني

جائزة نوبل 2021

مكتبة 1282

رواية

ما بعد الموت

ما بعد الموت / رواية

تأليف: عبد الرزاق قرنح

ترجمة: نوف الميموني

ردمك: 978-603-91836-7-9

رقم الإيداع: 1443 / 10657

Copyright © Abdulrazak Gurnah, 2020

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

30 7 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

ما بعد الموت

رواية

عبد الرزاق قرنح

ترجمة

نوف الميموني

مكتبة | 1282

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة
ترجم

أثر

واحد

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

كان عُمر خليفة عندما التقى التاجر عامر بياشارا ستًّا وعشرين سنة. في ذلك الوقت كان يعمل في مصرف خاص صغير يملكه أخوان من غوجارات. كانت المصارف الخاصة التي يديرها الهنود هي الوحيدة التي تتعامل مع التجار المحليين، وقد كيّفت تعاملاتها لتناسب أساليبهم في التجارة. المصارف الكبيرة تريد تجارةً محكومة بالإثباتات والضمانات والكفالات، وهذا لا يناسب دائمًا التجار المحليين الذين يديرون تجارتهم بالعلاقات والارتباطات غير المرئية بالعين المجرّدة. وظّف الأخوان خليفة لأنه قريبهما من جهة أبيه. ربما تكون كلمة قريب وصفًا سخيًا للعلاقة، والحقيقة هي أن أباه من غوجارات أيضًا، وفي بعض الحالات يكفي هذا لتكون الصلة قرابة. أما أمه فمن الأرياف. التقى بها والد خليفة عندما كان يعمل في مزرعة أحد الأعيان الهنود، على مسيرة يومين من البلدة، قضى فيها غالبية حياته. لم تكن ملامح خليفة هندية، أو بالأحرى ليست ملامح الهنود التي اعتاد الناس رؤيتها في تلك المنطقة من العالم. بشرته وشعره وأنفه، كلها ترجع إلى أمه الإفريقية، لكنه كان يهوى التصريح بنسبه متى ما طاب له ذلك. نعم، نعم، كان أبي هنديًا. لا أبدو هنديًا، هاه؟ تزوّج أبي أمي وظل وفيًّا لها. بعض الهنود يحبون اللهو مع الإفريقيات، فمتى أضحوا جاهزين للارتباط بزوجات، هجروهن وبعثوا إلى أهاليهم في الهند يطلبون إرسال زوجة ملائمة. أبي لم يهجر أمي قط.

كان اسم أبيه قاسم، وقد ولد في قرية صغيرة في غوجارات، فيها

الغني والفقير، والهندوس والمسلمون، حتى المسيحيون الأحباش. عائلة قاسم كانت مسلمة وفقيرة. نشأ فتى كادحًا أَلِف الشقاء. درس في مدرسة المسجد في قريته، ثم أُرسل إلى مدرسة حكومية تدرّس باللغة الغوجاراتية في بلدة قريبة. كان أبو قاسم جابيًا للضرائب مرتحلًا في الأرياف لجمع المال للحكومة، وهو من أصرَّ على أن يلتحق قاسم بالمدرسة كي يصبح هو أيضًا جابيًا للضرائب، أو يعمل في أي وظيفة محترمة مثلها. لم يعش والده معهم. كان يزورهم في السنة مرتين أو ثلاثة. وكانت أم قاسم ترعى حماتها الضريرة وخمسة أطفال، قاسم أكبرهم يليه أخ وثلاث أخوات. الصغراوان من أخواته توفيتا في طفولتهما. كان أبوهم يرسل المال من حين لآخر، ولكنهم اضطروا إلى إعالة أنفسهم في القرية بأي عمل يقدرون عليه. عندما كبر قاسم شجّعه أساتذته في المدرسة الحكومية الغوجاراتية على الالتحاق ببعثة إلى مدرسة ابتدائية إنجليزية في بومباي، وبعد ذلك بدأ حظه يتبدّل. تدبّر والده وبعض الأقارب قرضًا لتيسير سكنه في بومباي قدر الإمكان في سنوات دراسته. ومع الوقت تحسّنت ظروفه، لأنه مكث في منزل عائلة أحد زملائه في المدرسة، وقد ساعدوه على إيجاد وظيفة معلم خاص للأطفال الأصغر سنًّا. ساعدته الآنات القليلة التي كسبها من ذلك على إعالة نفسه.

تلقى قاسم عرضًا فور إتمامه الدراسة للانضمام إلى محاسبي أحد ملاك الأراضي في ساحل إفريقيا. رأى أن في الأمر خيرًا، باب معيشة فُتح له، وربما كانت فيه مغامرة. جاء العرض من خلال إمام قريته. كان مالك الأرض ينحدر من أهل القرية نفسها، وقد هاجر أسلافه إلى إفريقيا، وكلما أرادت الأسرة محاسبين يعملون عندهم طلبوا من معارفهم في القرية نشر الخبر، ليضمنوا أن شخصًا أمينًا مخلصًا يرعى مصالحهم. وفي كل عام، خلال شهر الصيام، يرسل قاسم إلى إمام قريته مبلغًا يقتطعه مالك الأرض من أجرته ليوصله إلى أسرته. لم يَعُد قاسم قط إلى غوجارات.

هذه هي الحكاية التي رواها والد خليفة له عن الشقاء الذي عاشه في صغره. رواها له لأن هذا ما يفعله الآباء بأبنائهم، ولأنه أراد لابنه أن يطمح إلى المزيد. علّمه القراءة والكتابة بالأبجدية اللاتينية ودّرسه أساسيات الحساب. وعندما كبر خليفة، في الحادية عشرة أو نحوها، أُرسل الولد إلى معلم خاص في البلدة المجاورة، فعلّمه الرياضيات ومسك السجلات وبعض المفردات الإنجليزية. جلب أبوه من الهند طموحات وأفكار، لكنها لم تتحقق في حياته.

لم يكن خليفة التلميذ الوحيد عند هذا المعلم. كانوا أربعة، كلهم فتيان هنود. سكنوا في بيت معلمهم، ينامون على الأرض في صالة الطابق الأرضي، في حجرة تحت الدرج، حيث يأكلون أيضًا طعامهم. الصعود إلى الأعلى ممنوع على الإطلاق. فصلهم غرفة صغيرة تغطي أرضها الحصائر، ولها نافذة عالية ذات قضبان، أعلى من أن يطلّوا منها، وإن استطاعوا شمّ رائحة المجاري المفتوحة خلف البيت. كان معلمهم يقفل الحجرة بعد انتهاء الدروس ويعاملها كأنها مكان مقدس، وألزمهم بكنسها ونفض الغبار عنها كل صباح قبل بدء الدروس. تبدأ الدروس منذ مطلع الصباح ثم يدرسون الفترة الثانية قبيل هطول المساء، لأن معلمهم ينام دائمًا بعد تناول غدائه أول الظهر، ولا يدرسون بعد المساء لتوفير الشموع. في ساعات فراغهم كانوا يعملون في السوق أو على الساحل، أو يتسكعون في الطرقات. لم يتخيل خليفة أنه في كبره سوف يحنّ إلى تلك الأيام.

بدأ مع المعلم في السنة التي وصل فيها الألمان إلى البلدة ومكث معه خمسة أعوام. كانت تلك سنوات ثورة بوشيري التي قاوم فيها تجار القوافل والساحل من عربٍ وسواحليين سلطة الألمان التي فرضوها على البلاد. الألمان، والإنجليز، والفرنسيون، والبلجيكيون، والبرتغاليون،

والإيطاليون، ومن سواهم، عقدوا مؤتمراتهم، وخطّوا حدود خرائطهم، ووقّعوا معاهداتهم، فما كان لهذه المقاومة أن تبدّل المصير. قمع الكولونيل فيسمان وقوة الحماية التي شكّلها «الشوتزتروبه» الثورة. وبعد ثلاثة أعوام من قمع ثورة بوشيري، بينما كان خليفة ينهي دراسته على يد المعلم، شنّ الألمان حربًا أخرى، هذه المرة ضد الواهيهي في أقصى الجنوب. لم يقبل الواهيهي حكم الألمان وكانوا أشدّ عنادًا - كما تبيّن لاحقًا - من الثائر بوشيري، فأخذوا ينزلون أفدح الخسائر على غير توقعٍ على الشوتزتروبه، وكان ردّ هؤلاء حازمًا دمويًّا.

أشدّ ما سرّ أباه أن يكون خليفة حاذقًا في القراءة والكتابة ومسك السجلات. فبعث أبو خليفة، أخذًا بنصيحة المعلم، إلى الأخوين الغوجاراتيين أصحاب المصرف في البلدة. كتب المعلم مسودة الخطاب وأعطاها خليفة ليأخذها إلى أبيه. فنسخها أبوه بخط بيده وأعطاها سائق عربة ليوصلها إلى المعلم الذي سيأخذها إلى المصرفيين. وكلهم متفقون أن توصية المعلم لا بد نافعة.

كتب والده: السادة الكرام، أيوجد شاغر لابني في مؤسستكم الموقرة؟ إنه فتى كادح ومحاسب ذو موهبة وإن نقصته الخبرة، ويستطيع الكتابة بالأحرف اللاتينية ويعرف شيئًا من الإنجليزية. سوف يكون مدينًا لكم بالفضل مدى حياته. أخوكم المتواضع من غوجارات.

مرت أشهر عديدة دون جواب، ولم يصلهم الرد إلا بعدما قصد المعلم المصرفيين راجيًا القبول، خوفًا على سمعته. وصل الجواب وفيه: أرسله إلينا وسوف نجربه. إن سار كل شيء على خير عرضنا عليه وظيفة. يجب أن يعين مسلمو غوجارات بعضهم بعضًا. إن لم يساعد أحدنا الآخر، فمن يساعدنا؟

سعد خليفة بمغادرة بيت أسرته في مزرعة صاحب الأرض التي يعمل

أبوه فيها محاسبًا. في الوقت الذي كان ينتظر فيه ردًّا من المصرفيين كان يساعد أباه في عمله: تسجيل الرواتب، وإرسال طلبات الشراء، وتقييد التكاليف، والاستماع إلى الشكاوى التي ليس بيده حلّها. كان عمل المزرعة شاقًا، وأجرة العمّال قليلة. كثيرًا ما كانوا يعانون من الحمى والأوجاع والقذارة. اجتهد العمال في زيادة نصيبهم من الطعام بزراعة رقعة الأرض الصغيرة التي تسمح المزرعة لهم باستعمالها. وهذا ما فعلته مريم أم خليفة، فزرعت الطماطم، والسبانخ، والبامية، والبطاطا الحلوة. حديقتها مجاورة لبيتهم الصغير المزدحم، وعندما يكتئب خليفة ويسأم حياتهم الخسيسة يشتاق أحيانًا إلى رفاهية العيش مع المعلم. لما وصل رد الأخوين المصرفيين إليهم كان متأهبًا للرحيل، مصرًّا على أن ينجح في هذا العمل مهما كلّف الأمر. عمل عندهم إحدى عشرة سنة. إن كانوا قد تعجّبوا من شكله لّما رأوه أول مرة فإنهم لم يبدوا شيئًا ولم يقولوا كلمة لخليفة، وإن لم يمسك عملاؤهم الهنود ألسنتهم عن الأسئلة. كان الأخوان المصرفيان يقولان: لا، لا، إنه أخونا، غوجي لا يختلف عنا.

كان مجرد موظف، يدوّن الأرقام في سجل ويحفظ الدفاتر. هذا كل ما كانوا يسمحون له بفعله. يظن أنهم لم يثقوا به كليّة فيطلعونه على أدق شؤونهم، ولكن هذا هو حال المال والتجارة. كان الأخوان هاشم وجولاب مرابيين، وهذا هو شأن المصرفيين كلهم كما قالا لخليفة. لم يكن لديهما - كما لدى المصارف الكبيرة - عملاء لهم حسابات خاصة. كان الأخوان قريبين في سنهما، متشابهين حد التماثل: القامة القصيرة المربوعة، والابتسامات السريعة، والوجنات العالية، والشوارب المشذبة. يودع قلة من الناس، وكلّهم رجال أعمال ومقرضون غوجاراتيون، الفائض من أموالهم لديهما، فيقرض الأخوان التجار المحليين المال بفائدة. وكل سنة في مولد النبي، يقيمان قراءة المولد في حديقة قصرهما ويوزّعان الطعام على من حضر.

أمضى خليفة في عمله مع الأخوين عشر سنين، حتى قدّم له عامر بياشارا عرضه. كان يعرف عامر بياشارا لأنه أحد التجّار الذين يتعاملون مع المصرف. ساعده خليفة ذات مرة بمعلومات لم يعرف أصحاب المصرف أنه يعرفها، تفاصيل عن العمولة والفائدة، جعلت التاجر يقتنص صفقة أفضل. دفع له عامر بياشارا ثمن المعلومات. دفع له رشوة. رشوة صغيرة، ومكسب عامر بياشارا من الصفقة ليس كبيرًا، لكنه حريص على الحفاظ على سمعته بأنه تاجر بارع ذكي. ولم يستطع على كل حال مقاومة اللعب في الخفاء. أما خليفة فضآلة الرشوة سمحت له أن يكتم أي إحساس بالذنب لخيانته أرباب عمله. قال لنفسه إنه يكتسب خبرة في العمل، ومن ذلك معرفة الحيل والخدع.

بعد أشهر من اتفاق خليفة مع عامر بياشارا قرر الأخوان المصرفيان نقل تجارتهما إلى مومباسا. كان هذا زمن مدّ سكة الحديد من مومباسا إلى كيزيمو، وإقرار السياسة الاستعمارية التي تشجع الأوروبيين على الاستقرار في محمية شرق إفريقيا البريطانية. تنبّأ المصرفيان أن أبوابَ رزقٍ أفضل سوف تنفتح هناك، ولم يكونا وحدهما من التجار والحرفيين الهنود ممن آمنوا بهذا. وفي الوقت نفسه كان عامر بياشارا يوسّع رقعة أعماله، فوظّف خليفة كاتبًا لأنه لم يكن يعرف الكتابة بالأحرف اللاتينية. رأى التاجر أن هذه المعرفة سوف تفيده.

أخمد الألمان في ذلك الوقت كل شرارات الثورة في محمية شرق إفريقيا الألمانية، أو هذا ما كانوا يظنونه. أنهوا بوشيري واحتجاجات تجار القوافل ومقاومتهم على الساحل. عانوا الأمرين حتى قمعوا تلك الثورة واعتقلوا بوشيري وشنقوه عام 1888م. كان الشوتزتروبه وهو جيش من المرتزقة الأفارقة العساكر، تحت إمرة الكولونيل فيسمان وضباطه الألمان، يتألف في

ذلك الوقت من جنود نوبيين متفرقين خدموا التاج البريطاني ضد المهدي في السودان وجنود شنغان «الزولو» من المناطق الجنوبية في شرق إفريقيا البرتغالية. حرصت السلطة الألمانية على تحويل إعدام بوشيري إلى مشهد يحضره الجميع، وفعلوا ذلك في كل إعدام لسنوات تالية. حوّل الألمان حصن باجامويو الذي كان أحد معاقل بوشيري إلى مقر قيادتهم، كأنهم بذلك يرمزون إلى مهمتهم الرامية إلى إحلال النظام والتمدّن في تلك الأرجاء. وكانت بلدة باجامويو محطة خطوط القوافل القديمة وأكثر الموانئ ازدحامًا على ذلك الساحل. فكان الظفر بها والسيطرة عليها استعراضًا مهمًّا للسلطة الألمانية على مستعمرتهم.

واجه الألمان متاعبَ أكثر مع توغّلهم داخل البلاد، ومواجهتهم لشعوب ترفض الخضوع للحكم الألماني: الوانياموزي، والواتشاغا، والواميرو، وأشدّ أولئك شغبًا الواهيهي في الجنوب. تمكّن الألمان من قمع الواهيهي أخيرًا بعد ثمانية أعوام من الحرب، وبعد تجويع مقاومتهم وسحقها وحرقها. جزّ الألمان في نشوة انتصارهم رأس زعيم الواهيهي مكاواوا، وبعثوا بها إلى ألمانيا هديةً. بلغ شأو عساكر شوتزتروبه المدعّمين بالجنود المحليين من الشعوب المهزومة أن أصبحوا قوةً تدميرية لا قِبَل لأحد بها. كانوا فخورين بصيتهم الدموي، وأحبّ الضبّاط والإداريون أن تكون هذه سمعتهم. انتقل خليفة للعمل عند عامر بياشارا، ولمّا يعلم الناس عن تمرد ماجي ماجي الذي يوشك على الاندلاع في الجنوب والغرب، والذي سيكون أفظع ثورة في المنطقة، موقظةً في الألمان وجيشهم العسكري ضراوة ووحشية تخطّت الحدود.

دأبت القيادة الألمانية في ذلك الوقت على فرض لوائح وتشريعات جديدة على الممارسات التجارية. وأراد عامر بياشارا أن يتولى خليفة التفاوض نيابةً

عنه. فأوكله بقراءة القرارات والتقارير التي تصدرها السلطة، وتعبئة نماذج الجمارك والضرائب المطلوبة. وما عدا ذلك، فقد كان التاجر يحتفظ بكل أمور تجارته لنفسه. ويخطط وينفذ بمنأى عن خليفة الذي كان مجرد مساعد عام يفعل ما يُطلب منه وليس موظفًا مؤتمنًا كما كان يحسب نفسه. أحيانًا يبلغه التاجر ببعض الأمور، وأحيانًا يكتمها. كان خليفة يكتب الخطابات، ويذهب إلى مكاتب الحكومة لتخليص هذه الرخصة أو تلك، ويلتقط الشائعات والأخبار، ويأخذ معه بعض الهدايا والتحليات لمن يريد التاجر أن يذيقه الشهد. وهذا في ظنّ خليفة أقصى ثقة واتّكال يستطيع التاجر أن يمنحه أحدًا.

لم يكن شاقًّا العمل عند عامر بياشارا. كان رجلًا ضئيلًا أنيقًا، مهذب اللفظ والفعل، كيّسًا مواظبًا على حضور الصلوات في المسجد. يتبرع للمكلومين عندما تضيق الحياة بهم ولا تفوته جنازة الجار. يحسب أيُّ عابرٍ أنه لين الجانب أو حتى من الأبرار في المجتمع، لكن الناس يعرفون الوجه الآخر، ويتكلمون بإعجاب عن دهاء وسائله وشائعات ثرائه. والتكتّم والقسوة من السمات الأساسية في أي تاجر. كان يدير تجارته كأنه يدبّر مؤامرة، كما كان يحلو للناس أن يرددوا. أما خليفة فيرى أنه قرصان، لا غنيمة صغيرة في حسابه: يهرّب ويقرض الأموال ويخزن ما قلّ لاحتكاره، إلى جانب الأمور الأخرى من استيراد هذا وتلك. كيفما هبّت رياح الطلب مال معها. كانت تجارته في رأسه لأنه لا يثق بأحد، ولأن بعض صفقاته تحتّم عليه الكتمان. بدا لخليفة أن التاجر يستعذب تقديم الرشاوى والدفع من تحت الطاولة، كان أكثر اطمئنانًا عندما يصرف مالًا خفية لينال ما يريد. عقله ما ينفك يحسب ويقيّم الأشخاص الذين يتعامل معهم. في ظاهره لطفٌ وسماحة متى شاء لها أن تظهر، لكن خليفة يعرف أنه قادر على إبداء غلظة متحجرة. وبعد العمل مع التاجر أعوامًا طويلة عرف قسوة قلبه.

فكان خليفة يكتب الخطابات ويدفع الرشاوى ويلتقط فتات المعلومات التي أراد التاجر أن يكشفها، وكان بذلك قانعًا. وخليفة محبٌ للأقاويل، تلقّيها ونشرها، وما كان التاجر ينهره عندما يمضي ساعات النهار يحادث الناس في الشوارع والمقاهي أكثر مما يمضيه على مكتبه. من الأسلم أن يعرف ما يُقال على أن يتيه في الظلام. ودَّ خليفة لو يساهم ويعرف المزيد عن الصفقات، لكن هذا على الأرجح ما لن يحدث. لم يكن حتى يعرف أرقام خزنة التاجر. إن أراد وثيقة يسأل التاجر أن يحضرها له. كان عامر بياشارا يحتفظ بمال كثير في تلك الخزنة، ولم يكن حتى يفتح بابها كاملًا إن كان خليفة أو غيره في المكتب. إن احتاج إلى أخذ شيء من الخزنة كان يقف أمامها حاجبًا قرص الأرقام بجسمه وهو يديره. ثم يفتح الباب إنشات قليلة ويدس يده كأنه مختلس.

كان خليفة يعمل عند عامر بياشارا ما يزيد على ثلاثة أعوام عندما وصله خبر موت أمه مريم فجأة. كانت في أواخر الأربعين لذا جاء وفاتها أمرًا غير متوقع على الإطلاق. هرع إلى بيت أسرته ليكون مع أبيه، فوجده معتلًّا شديد الذهول. كان خليفة ابنهما الوحيد لكنه لم يرَ أبويه مؤخرًا إلا ما ندر، لذلك فوجئ بمظهر أبيه الواهن الهزيل. كان مريضًا ولكنه لم يجد مداويًا يعرف ما علّته، ولا طبيبَ في الجوار، وأقرب مستشفى يقع في البلدة التي يعيش فيها خليفة على الساحل.

قال له خليفة: «ليتك أخبرتني. كنت سآتي لأجلك».

كان أبوه خائر القوى، جسده لا يكف عن الارتجاف. عاجز عن العمل يظل جالسًا عند مدخل عشته ذات الحجرتين في مزرعة صاحب الأرض، يحدّق إلى الفراغ طوال اليوم.

قال لخليفة: «حلّ علي فجأة قبل شهور قليلة، هذا الضعف. حسبت أن

يومي جاء، لكن أمك سبقتني. أغمضت عينيها ونامت فرحلت. ماذا أفعل الآن؟».

مكث خليفة معه أربعة أيام وعرف من الأعراض أن أباه أعيته الملاريا. كان يشكو من الحمى، ولا يستطيع إبقاء الطعام في جوفه، عيناه مصفرّتان من اليرقان وبوله مصطبغ بالأحمر. كان يعلم من عيشته بالمزرعة أن البعوض خطر قائم فيها. عندما استيقظ في الغرفة التي نام فيها مع أبيه وجد أن يديه وأذنيه مغطاة بالقرصات. في صباح اليوم الرابع أفاق فوجد أباه ما زال نائمًا. تركه خليفة وخرج ليغتسل ويغلي الماء لتحضير الشاي. وهو واقف يراقب الماء يغلي أصابته قشعريرة فزع، فرجع إلى الحجرة ورأى أن أباه لم يكن نائمًا بل ميتًا. ظل خليفة واقفًا لوهلة ينظر إليه، هزيلًا منكمشًا في الموت كأنه لم يكن نشطًا بعنفوانه في الحياة. غطّاه خليفة وقصد إدارة المزرعة طلبًا للمساعدة. حملوا جسده إلى المسجد الصغير في القرية المجاورة. غسله هناك خليفة على العادة المتّبعة، وأعانه أشخاص يفقهون أصول غسل الميت. ودفنوه عصر ذلك اليوم في المقبرة خلف المسجد. تبرّع بالحاجيات القليلة في مسكن أبيه وأمه لإمام المسجد، وسأله أن يوزّعها على من يحتاج إليها.

لّما رجع خليفة إلى البلدة ظلّ أشهرًا بعد ذلك محاصرًا بإحساس الوحدة في هذا العالم، الابن العاق الحقير. لم يتوقع أن يكون هذا شعوره. كان قد عاش بعيدًا عن والديه معظم سنيّ حياته، السنوات التي قضاها مع المعلم، ثم مع الأخوين المصرفيين ومن ثم مع التاجر، ولم يشعر قط بالندم على إهماله لهما. لكن رحيلهما المفاجئ كان فاجعة له، وحكمًا نهائيًا عليه. كان يحيا حياة مهدورة في بلدة ليست موطنه، في بلدٍ لا تفتأ الحروب تمزّقها، وأنباء باندلاع ثورة أخرى في الجنوب والغرب.

عندها فاتحه عامر بياشارا بالموضوع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال: «أنت تعمل معي الآن منذ سنوات... كم سنة؟ ثلاث... أربع؟ ولم ألقَ منك إلا التفاني والاحترام. وأقدّر لك هذا».

قال خليفة: «وأنا ممتن لك»، وهو لا يدري إن كان سيزيد أجره أم يطرده من وظيفته.

قال التاجر: «إن رحيل والديك في وقت واحد صدمة مغمّة لك، أنا واثق. ورأيت كيف أحزنك الأمر. رحمهما الله. أنت تعمل لديّ بكدٍ وأمانة منذ سنوات ولذا فأنا لا أرى في إسدائي النصح لك تجاوزًا غير مقبول».

قال خليفة وهو يشك بأن المراد من الحديث طرده: «بل أرحب بالنصح منك».

«أنا أعدّك فردًا من أسرتي، ومن واجبي أن أرشدك إلى الخير. آن الأوان أن تتزوج وأظن أني أعرف العروس المناسبة. إحدى قريباتي توفي والداها منذ مدة قريبة. وهي فتاة محترمة ورثتْ عنهما عقارًا. أقترح عليك أن تطلب يدها. كنت سأتزوجها بنفسي» وابتسم التاجر هنا «لولا أنني راضٍ بحالي الآن. خدمتني خير خدمة كل هذه السنين، وأرى أن هذا الزواج أنسب لك».

فهم خليفة أن التاجر يهديه هذه الفتاة، وأن ليس بيدها القبول أو الرفض. قال إنها فتاة محترمة ولكن هذه الشهادة من تاجر متجبر لا قيمة لها. وافق خليفة على الخطبة لأنه لم يرَ بدًّا من القبول ولأنه رغب في الزواج، رغم أنه في أشد لحظات تفكيره قلقًا كان يخشى أن تكون عروسه سليطة متطلّبة لها طباع غير حميدة. لم يرها قبل الزواج ولا حتى وقت الزواج. كان العرس بسيطًا. سأله الإمام إن كان يريد عائشة فوادي زوجةً له، وقال نعم. بعدها وافق بوانا عامر بياشارا بصفته وليها. وقضي الأمر. بعد عقد القران شربوا

الشاي، ثم اصطحب التاجر خليفة إلى منزلها وقدّمه لزوجته الجديدة. هذا المنزل هو العقار الذي ورثته عائشة فوادي، لكن الحقيقة أنها لم ترثه.

كان عمر عائشة عشرين، وخليفة واحد وثلاثين. أم عائشة الراحلة هي أخت عامر بياشارا. وحزن عائشة على وفاتها التي لم يمض عليها وقت طويل ما زال يخيّم على عينيها. وجهها بيضاوي مليح، لكن محياها كئيب غير باسم. شغف بها خليفة دون تردد، لكنه أحس بأنها تحتمل أحضانه على مضض في البداية. مرّ بعض الوقت قبل أن تقابل لهفته بشغف، وأن تخبره بقصتها وأن يفهمها حق الفهم. ليس لأن قصتها عجيبة، بل العكس هو الصحيح، وما كان من المتوقع حدوث غير ما حدث على يد تاجر قرصان في عالمها. كانت صموتًا لأنها لم تثق بزوجها الجديد بسرعة، وأرادت أن تعرف لمن يبدي ولاءه، للتاجر أم لها.

روت لخليفة ما جرى: «أقرض خالي عامر أبي مالًا، ليس مرةً واحدة بل مرات. ولم يجد مناصًا من ذلك لأن أبي زوج أخته، فهو من أسرته. وإن سُئل لا بد أن يعطي. بدأ صبر خالي عامر ينفد مع أبي لأنه لا يحسن تدبير أموره المالية، وربما كان محقًا. وقد سمعت أمي تقول ذلك له أكثر من مرة. في النهاية طلب خالي عامر أن يكتب أبي بيته... بيتنا، هذا البيت... ضمانةً للدين. وافق ولم يخبر أمي. هذا شأن الرجال وصفقاتهم، كل شيء يتم بالخفاء والسر، كأنهم لا يثقون بنسائهم الطائشات. لو كانت تدري لما سمحت له. لا أقذر من أن تقرض الناس وأنت تعلم أنهم لا يستطيعون رد الدين، ثم تصادر بيوتهم منهم. هذه سرقة. وهذا ما فعله خالي عامر بأبي وبنا».

بعد لحظات صمت طويلة سأل خليفة عائشة: «كم كان دين أبيك؟».

ردّت باقتضاب: «لا يهم كم. لم يكن باستطاعتنا تسديده. لم يترك لنا شيئًا».

«لا بد أن وفاته كانت مفاجئة. ربما حسب أن السنين ما زالت أمامه طويلة».

أومأت. «لم يأخذ أبي وفاته في الحسبان ولم يتهيأ لها. عانى في موسم الأمطار العام الماضي من حمى ملاريا متكررة، وهذا شأنه كل عام، لكنها كانت أسوأ بكثير هذه المرة من أي حمى سابقة، ولم ينجُ منها. كان مرضه قاسيًا مؤلمًا. رحمه الله. لم تكن أمي تعلم عن أموره المالية إلا القليل، لكن سرعان ما علمنا أن الدين لم يُسدد، ولم يبق من إرثه شيء نرد به ولو جزءًا من الدين. جاء أقاربه الرجال يطالبون بنصيبهم من الإرث، وهو البيت لا غيره، لكنهم اكتشفوا أنه ملك خالي عامر. كلنا صُدمنا، خاصةً أمي. ليس لنا في هذا العالم شيء، لا شيء. بل أفظع من لا شيء، حتى حياتنا ليست ملكنا لأن خالي عامر هو ولينا بصفته أكبر رجال الأسرة. بيده أن يقرر ما يحدث لنا. لم تستعد أمي طبيعتها بعد موت أبي قط. كان المرض قد أصابها قبل سنوات وأصبحت تعتل بسهولة بعد ذلك. كنت أظن أن الأسى بلاؤها، أنها ليست مريضة كما قالت لكنها تركت نفسها للتعاسة تدمّرها. لم أعرف حقًّا ما يتعسها. ربما سحرها أحدهم، أو أنها لم تكن راضية عن حياتها. كانوا يزورونها أحيانًا قبل وفاته، فتنطق بأصوات غريبة، واستدعت المداوي رغم اعتراضات أبي. بعد أن مات تحوّل حزنها إلى كمد لا يحتمل، ولكن في الأشهر الأخيرة من حياتها أقعدها ألم آخر: أوجاع في ظهرها وشيء يلتهمها من الداخل. هذا قولها عندما وصفت ما ألمّ بها، شيء يلتهمها من الداخل. علمت عندئذ أنها راحلة، أن هذا يتخطّى الحزن. في أواخر أيامها كانت قلقة على ما سيحدث لي، وتوسلت إلى خالي عامر أن يرعاني، ووعدها بأن يفعل». رمقت عائشة زوجها بنظرة طويلة متجهمة، ثم قالت: «فأعطاني إياك».

«أو أعطاني إياك». قالها متبسّمًا ليخفّف مرارة نبرتها. «أيسوؤك ذلك إلى

هذا الحد؟»

هزت كتفها دون رد. فهم خليفة، أو خمّن بالأحرى، الأسباب التي جعلت عامر بياشارا يعرض عائشة عليه. كان يريد أن يجعلها مسؤولية شخص آخر، ما يحجمها عن أي ارتباط مشين قد تنجرف وراءه، سواءً كان فكرها ينساق نحو ذلك أم لا. هكذا يفكر أي رب أسرة متسلّط. أوتاميستيري، خليفة سوف يستر عليها ويحفظ اسم الأسرة من العار. ليس لأن خليفة مميز ولكن لأن التاجر يعرفه والاقتران به سيحمي سمعتها، وسمعة عامر بياشارا، من أي دنس. وهذا الزواج الهادئ بخليفة، الموظف الذي يعيش من خير التاجر، سيحفظ أيضًا حق التاجر بالعقار ويبقي البيت في الأسرة نوعًا ما.

حتى بعد أن علم خليفة بحكاية البيت والظلم الذي وقع على زوجته لم يستطع أن يتحدث مع التاجر بهذا الأمر. تلك شؤون أسرية وهو ليس من العائلة حقًا. فأخذ خليفة يقنع عائشة أن تكلّم خالها بنفسها وتطلب حصتها من البيت. «باستطاعته أن يعدل إن أراد». قال لها خليفة محاولًا إقناع نفسه قبل إقناعها. «أنا أعرفه حق المعرفة. ورأيت تعامله في التجارة. يجب أن تحرجيه وتجبريه على إعطائك حقك، وإلا فسوف يتظاهر بأن الأمور على ما يرام ولن يغيّر شيئًا».

فتحت الموضوع في النهاية مع خالها. لم تكلّمه عائشة بحضور خليفة، فتظاهر بالجهل عندما سأله التاجر بأدبٍ عن الأمر بعدها. أخبرها خالها بأنه ترك لها نصيبًا في وصيته ولا يريد الحديث في الأمر الآن. بمعنى آخر، لا يريد أن تزعجه بأي نقاش آخر عن البيت.

***

تزوّج خليفة بعائشة مطلع 1907م. كان تمرد ماجي ماجي ينازع سكرة

الموت والوحشية، قُمع قمعًا باهظًا تكلّف حياة مئات الإفريقيين ومعيشتهم. بدأ التمرد في ليندي ثم انتشر في كل مكان في الأرياف والبلدات، في جنوب البلاد وغربها. استمر ثلاثة أعوام. ومع التعنّت في رفض الحكم الألماني ومقاومته جاء رد السلطة الألمانية أشدّ ضراوةً وبأسًا. أدركت السلطة الألمانية أنها لن تهزم المقاومة بالحل العسكري وحده، فلجأت إلى تجويع الشعب حتى الخضوع. كان الشوتزتروبه يعامل كل إنسان في المناطق التي تمردت على أنه مقاتل. فحرقوا القرى وأتلفوا الحقول ونهبوا مخازن الطعام. تركوا أجساد الأفارقة معلّقة على مشانق أقيمت على جوانب الطرق في أراضٍ محروقة مروَّعة. لم يعلم الناس في المنطقة التي عاش فيها خليفة وعائشة عن هذه الأحداث إلا من تناقل الأقاويل. وكانت في نظرهم مجرد قصص مرعبة، لأن بلدتهم لم تشهد تمردًا ملحوظًا. لم تقع أي ثورة منذ شنق بوشيري، وإن كانت تهديدات العقاب الألماني تحيط بهم.

عَجِب الألمان من صمود أولئك الناس ورفضهم أن يكونوا أتباعًا لإمبراطورية شرق إفريقيا الألمانية، لا سيما بعدما مثّلوا بالواهيهي في الجنوب والواتشاغا والواميرو في جبال الشمال الشرقي. سبّب انتصار ماجي ماجي قضاء مئات الآلاف جوعًا، ومئات أخرى كثيرة من إصابات القتال أو عمليات الإعدام. عدّ بعض قيادات شرق إفريقيا الألمانية تلك العاقبة أمرًا لا بد منه. الموت ملاقيهم عاجلًا أم آجلًا. فالتفتت الإمبراطورية أثناء ذلك إلى إشعار الأفارقة بقبضة السلطة الألمانية الحديدية، كي يسلّموا الأمر ويخضعوا لنِير الاستعباد طواعيةً. وكل يوم تُحكِم السلطة الألمانية ذلك النير بقوة على أعناق رعاياها الرافضين. كانت الحكومة الاستعمارية كذلك تحكم قبضتها على البلاد، فازدادت أعدادهم واتّسعت رقعة سلطتهم. صودرت الأراضي الخصبة وأُعطيت للمستعمرين الألمان الوافدين من أوروبا. وامتدّ نظام العمل القسري إلى تعبيد الطرقات وإزالة المجاري من قوارع الطرق

لتشييد الحدائق والجادات، رفاهيةً للمستعمرين وتمجيدًا لاسم القيصر الكريم. تأخر الألمان في إرساء عماد إمبراطوريتهم في هذا الجزء من العالم، لكنهم نقضوا وحفروا عزمًا على الاستقرار أمدًا طويلًا، ولتحقيق أقصى درجات التنعّم والرخاء. بنوا كنائسهم ومكاتبهم المعمّدة وقلاعهم ذات الشرفات، رغبةً في توفير حياة متحضرة وإنزال الهيبة في نفوس المستعمَرين الجدد وتخويف خصومهم.

لكن التمرد الأخير أثار لدى بعض الألمان تساؤلات مختلفة. كان من الجلي في رأيهم أن العنف وحده لن يكون كافيًا لإخضاع المستعمرة والاستفادة من خيراتها، فاقترحوا إقامة العيادات والبدء بحملات ضد الملاريا والكوليرا. وقد رعت هذه في البداية صحة المستعمِرين وموظفي الحكومة وأفراد شوتزتروبه، لكن تقرر فيما بعد أن تشمل الخدمات السكان الأصليين أيضًا. وأنشأت الحكومة مدارس جديدة. في البلدة قبل ذلك مدرسة واحدة متقدمة، فُتحت قبل سنوات لتدريب الأفارقة ليكونوا موظفين مدنيين ومعلمين، لكن حجمها صغير وطلابها من أبناء النخبة الموالية من الأفارقة. كان عمر الابن، واسمه ناصر، تسع سنين عندما بدأ خليفة عمله عند أبيه التاجر، وأربع عشرة سنة عندما التحق بالمدرسة. سنّه أكبر من الانضمام إلى صفوف الدراسة، لكن لم يشكل الأمر عقبة لأن المدرسة التي التحق بها تعلّم طلابها الحِرَف لا الجبر، فكان سنه مناسبًا لتعلم استعمال المنشار أو رصّ الطوب أو الطرق بالمطرقة الثقيلة. هناك تعلّم ابن التاجر الاشتغال بالخشب. ظلّ في المدرسة أربع سنوات، وتخرّج فيها بعد أن تعلّم القراءة والكتابة والحساب، وأتقن النجارة.

تعلّم خليفة وعائشة دروسًا حياتية خاصة خلال تلك الأعوام. عرف أنها امرأة صعبة المراس مفعمة النشاط، تحب أن تشغل نفسها ووقتها، وتعرف

ماذا تريد. عجب في البداية من طاقتها وضحك من ملخّصاتها المتعنّتة عن سِير جيرانها. تقول عنهم إنّهم حاسدون، خبيثون، آثمون. بالله عليك! كفي عن المبالغة، هو يعترض وهي تقطّب جبينها في خصام معاند. تردّ أنها لا تبالغ برأيها. هي التي عاشت بجوار هؤلاء الناس طوال حياتها. كان يظن أن ترديدها الأذكار وآيات القرآن لازمة لفظية كتلك اللوازم التي تتعود ألسنة الناس عليها، لكنه أدرك بعد حين أنها لا تفعل هذا مجاهرةً بالعلم والدراية، بل من ورعٍ حقيقي. شعر بأنها غير سعيدة وبذل جهدًا ليخفف من وحدتها. حاول أن يجعلها ترغب فيه كما يرغب فيها، ولكنها كانت قانعة بنفسها عازفة عن رد أشواقه، حتى أحسّ أنها تحتمله وتنصاع إلى لهفته وعناقه من باب الواجب لا أكثر.

عرفت هي أنها أقوى منه، وإن تأخر كثيرًا اعترافها الصريح بذلك في دخيلة نفسها. كانت تعرف ماذا تريد، غالبًا إن لم يكن دائمًا، وإذا عزمت ثبتت وفعلت. أما هو فمذبذب تأخذه آراء الناس - وأحيانًا آراؤه - يمينًا وشمالاً. لاحظت أن ذكرى والدها التي تحاول قدر المستطاع أن تبرّه كما يأمرها الشرع تداخلت مع حكمها على زوجها، فعانت من نفاد صبرها على خليفة. وإذا نفد صبرها انفلت لسانها واحتدّ قولها معه بما لم تكن تنويه، بل إنها أحيانًا تندم عليه. تعرف أن خليفة رجل طيب، لكنه شديد الخنوع لخالها اللص المنافق العاصي، الذي يضلّ الناس بصلاح ظاهره. زوجها يرضى بالنزر اليسير من الآخرين ويستغلونه ليحققوا مصالحهم، لكن هذا أمر الله وعليها الرضا والتسليم. ثم إن حكاياته التي لا تنتهي مضجرة.

أجهضت عائشة ثلاث مرّات أثناء السنوات الأولى من زواجهما. بعد الإجهاض الثالث خلال ثلاث سنوات أقنعتها الجارات أن تستشير مغانغا - أي المداوية بالأعشاب. جعلتها المغانغا تستلقي على الأرض،

وغطتها من رأسها إلى أخمص قدميها بوشاح الكانغا الذي تحتجب به النساء. ثم جلست بجوارها وأطالت الجلوس، وهي تتمتم همسًا وتكرارًا، وتقول كلمات لم تستطع عائشة تمييزها. أخبرتها المغانغا عندما انتهت أن جنًّا يلبسها ويرفض أن يكبر الطفل في بطنها. قد تفلح في إقناعه بالخروج لكن لا بد من معرفة طلباته وتلبيتها قبل خروجه. ولا سبيل إلى معرفة طلباته إلا إذا دعته يتكلم بلسان عائشة، ومن المرجّح أن هذا لن يتم إلا إذا تركته يتلبس جسدها كله.

استدعت المغانغا امرأة تساعدها وجعلت عائشة تستلقي على الأرض ثانية. غطَّتاها بملاءة ميريكاني ثقيلة وشرعتا تترنّمان وتنشدان، ووجهاهما بالقرب من رأس عائشة. مرّت الدقائق والمغانغا ومعاونتها تنشدان، حتى ارتجفت عائشة، ثم ارتعدت رعدات عنيفة وانبعثت أصوات وكلمات غير مفهومة من فمها. بلغ هيجانها الذروة بأن أطلقت صرخة واحدة، ثم تكلّمت كلامًا واضحًا بصوت غريب: سوف أترك هذه المرأة إن وعد زوجها أن يحجّ بها، وألا يترك الصلاة في المسجد، وأن يترك السعوط. اختالت المغانغا فرحًا بنجاح مسعاها، وأعدّت شرابًا من الأعشاب جعل عائشة تسترخي حتى غلبها النعاس.

لمّا أنبأت المغانغا خليفة بحضور عائشة عن الجني وطلباته أومأ طائعًا ودفع أجرها. قال سأترك السعوط حالًا، وسأذهب الآن لأتوضأ وأصلي في المسجد. وفي طريق عودتي سوف أسأل عن ترتيبات أداء الحج. وأرجوك الآن أن تخلّصيها من هذا الشيطان فورًا.

ترك خليفة السعوط، وواظب على حضور صلوات المسجد يومًا أو اثنين، لكنه لم يتكلم عن الحج بعدها قط. كانت عائشة تعلم أن خليفة، وإن تظاهر بالانصياع، فهو لم يقتنع، وأنه كان يسايرها مستمتعًا. وأسوأ ما في الأمر أنها

سمحت لنفسها أن توافق على اللجوء إلى المداوية الآثمة كما أشار عليها جيرانها. لم يعجبها طبعًا الترنم في أذنيها، ولكنها لم تستطع تفويت الفرصة، فقد كانت تكره ترك خليفة للصلاة وكانت تتمنى الحج فوق كل شيء. لكنها رأت أن في سخريته الصامتة من رغباتها مجافاة وغلظة. وجعلها هذا تتردد في الحمل مرة أخرى، وتفنّنت في ألوان الصدود والنفور من شهواته.

أتمّ ناصر بياشارا تعليمه في المدرسة المهنية الألمانية وتخرّج فيها في الثامنة عشرة، مفتونًا برائحة الخشب. ولم يكن عامر بياشارا يرد لابنه طلبًا. لم يتوقع منه أن يعينه في تجارته، للسبب نفسه الذي جعله لا يُدخل خليفة في تفاصيل معاملاته. كان يفضل العمل وحيدًا. فلمّا سأل ناصر والده أن يموّل افتتاح منجرة يسترزق منها استجاب والده مسرورًا لسببين، لأنها فرصة تجارية مناسبة ولأن المنجرة سوف تشغل ابنه بعيدًا عن تجارته في الوقت الراهن. وسيحين الوقت المناسب لتعليمه أصول التجارة لاحقًا.

كانت الأصول تفرض على التجار القدامى أن يكون الإقراض والتسليف محكومين بالثقة. حتى إن بعضهم لا يعرف الآخر إلا بالخطابات أو من خلال علاقات مشتركة. كان المال ينتقل من يدٍ إلى يد، يُباع الدين تسديدًا لدين آخر، وتُشترى البضائع وتباع دون أن تُرى عينًا. علاقات ممتدة إلى مقديشو، وعدن، ومسقط، وبومباي، وكالكوتا، وغيرها من المدن الأسطورية. ترنّ هذه الأسماء كالموسيقى في آذان كثير من سكان البلدة، ولربما كان ذلك لأن معظمهم لم يزرها قط. ما استطاعوا مقاومة جمال هذه الأسماء الغريبة، وإن لم يَخفَ عنهم أنها على الأرجح أماكن فيها الشقاء والعناء والفقر، كأي مكان آخر على وجه الأرض.

كانت المعاملات بين التجار القدامى محكومة بالثقة، لكن هذا لا يعني أنهم يأتمنون بعضهم بعضًا. لذا احتفظ عامر بياشارا بتفاصيل معاملاته في

رأسه، ولم يوثّق شيئًا في سجلاته، وفي النهاية ذاق وبال دهائه. كان سوءَ طالع أو قدرًا أو مشيئة الله - أيًا ما تشاء - لكنه مرض مرضًا مفاجئًا خلال وباء اجتاح البلدة، أحد تلك الأوبئة التي كانت تنتشر مرارًا قبل أن يأتي الأوربيون بأدويتهم ونظافتهم. من كان يتخيّل الأسقام التي تختبئ في القذارة التي اعتاد الناس العيش فيها؟ مرض بسبب أحد تلك الأوبئة، رغم طب الأوربيين. إن حانت ساعتك لا مفر منها. ربما شرب ماءً قذرًا أو أكل لحمًا فاسدًا أو قرصته حشرة سامة، لكن النتيجة هي أنه استيقظ في أولى ساعات صباح أحد الأيام محمومًا يتقيأ ما في جوفه، ولم يقم من فراشه بعدها قط. لم يفق إلا لحظات قليلة، مات بعد خمسة أيام. وخلال تلك الأيام الخمسة كان غائب العقل تمامًا فدُفنت أسراره كلها معه. تقاطر دائنوه عند حلول ديونهم ومعهم الإثباتات السليمة. أما المدينون له فتواروا عن الأنظار وأصبحت فجأة ثروة التاجر الشيخ التي تناولتها الأقاويل أقلّ بكثير مما قالوا. ربما كان ينوي حقًا أن يعيد لعائشة بيتها، لكنه لم يفعل، ولم يترك لها شيئًا في وصيته. أصبح البيت من نصيب ناصر بياشارا، كما انتهى إليه كل شيء آخر بعد أن أُعطيت أمه وأختاه نصيبهن، وتسلّم الدائنون مستحقاتهم.

2

وصل إلياس إلى البلدة قبيل وفاة عامر بياشارا المباغتة. معه خطاب تزكية لمدير مزرعة سيزال ألمانية واسعة. لم يلتقِ المدير وجهًا لوجه، فهو شريك أيضًا في ملكية المزرعة ولا وقت لديه لهذه الأمور التافهة. سلّم إلياس الخطاب إلى مكتب الإدارة وأُمر بالانتظار. عرض عليه المساعد في المكتب كأس ماء، وظلّ يحاول جذبه للحديث متطفلًا مرة تلو الأخرى، يحاول تقييمه ومعرفة مقاصده. بعد انتظار قصير خرج شاب ألماني من المكتب الداخلي وعرض عليه وظيفة. وأمر مساعد المكتب واسمه حبيب أن يساعده في الاستقرار في البلدة. أرشده حبيب إلى أستاذ مدرسة اسمه المعلم عبدالله، فساعده هذا على استئجار حجرة في بيت أسرة يعرفها. ما إن حلّ عصر أول يومٍ له في البلدة حتى تيسّر لإلياس السكن والعمل. قال له المعلم عبدالله إنه سيمرّ عليه لاحقًا ليعرّفه على بعض الناس. زار المعلم إلياس عصر ذلك اليوم في مسكنه، وأخذه في جولة في البلدة. وتوقفا في مقهيين لشرب القهوة وتبادل الأحاديث.

عندما استقر المعلم عبدالله في المقهى أعلن للموجودين: «جاء أخونا إلياس ليعمل في مزرعة السيزال الكبيرة. وهو أحد أصدقاء المدير، السيد الألماني العظيم شخصيًا. ويتكلّم الألمانية كأنها لغته الأم. يسكن حاليًّا مع عمر حمداني حتى يجد له سيادته مكانًا مناسبًا لمقام فرد من طاقمه».

ابتسم إلياس ولاطفهم وردّ المزاح. ارتاح من حوله لضحكاته العفوية

وسخريته من نفسه، فاكتسب أصدقاء جددًا. وهذا عهده دومًا بالناس. اصطحبه المعلم عبدالله بعد ذلك تجاه الميناء والقسم الألماني من البلدة. مرّا بالساحة، سأل إلياس إن كان هذا حيث شنقوا بوشيري، فقال له المعلم عبدالله: لا، شُنق بوشيري في بنغاني، ولا يسع المكان هنا على أية حال الجماهير. حوّل الألمان ذاك الإعدام إلى محفل، فيه فرقة عازفة ومسيرة عسكرية ومتفرجون. ولا بد أنهم اختاروا مكانًا أوسع من هذا. انتهت جولتهما في بيت خليفة حيث كان البرازا [المجلس] الذي يتردد إليه المعلم بانتظام، ويجتمع فيه معهم كل مساء لتبادل الأقاويل.

قال خليفة لإلياس: «مرحبًا بك. كلنا نحتاج إلى برازا نقصده في المساء، نتواصل فيه ونتابع آخر الأخبار. لا شيء آخر يمكن فعله في هذه البلدة بعد انتهاء العمل».

توطّدت صداقة إلياس بخليفة بسرعة شديدة، وصار الاثنان يصارحان بعضهما بكل شيء في غضون بضعة أيام. أخبر إلياس خليفة أنه هرب من أسرته طفلًا، وسار أيامًا حتى اختطفه عسكري من الشوتزتروبه في محطة القطار وأخذه إلى الجبال. وهناك حرّروه وأرسلوه إلى مدرسة ألمانية، مدرسة تبشيرية.

سأل خليفة: «هل جعلوك تصلي كالمسيحيين؟».

كانا يتنزهان على شاطئ البحر ولا أحد حولهما يتنصت، لكن إلياس صمت لحظة، شفتاه مزمومتان على غير عادته. سأل: «لن تخبر أحدًا شيئًا إن أخبرتك، صحيح؟».

ردّ خليفة مبتهجًا: «جعلوك تصلي... جعلوك تأثم».

توسل إليه إلياس: «لا تخبر أحدًا. لم يكن أمامي خيار آخر. إما هذا أو

أغادر المدرسة، فأخذت أتظاهر. كانوا راضين عني تمامًا، وأنا أعلم أن الله يعلم ما في فؤادي حقيقة».

«منافيكي». منافق. قالها خليفة ولمّا يشاء بعدُ عتقه من التعذيب. «للمنافقين عذاب شديد في الآخرة. أتود أن أخبرك ما هو؟ لن أقول، لأنه يفوق الخيال وسوف يحلّ عليك عاجلًا غير آجل».

لمس إلياس صدره وابتسم، ردَّ بعد أن اطمأن إلى أن خليفة جعل من الموضوع مزحة: «يعلم الله ما في قلبي، وأنا هناك محبوس ومحاط بهم. عشت وعملت في مزرعة قهوة يملكها الألماني الذي أرسلني إلى المدرسة».

سأل خليفة: «أكان القتال ما زال دائرًا في تلك الأنحاء؟».

قال إلياس: «لا. لا أدري ما مدى تأثر المنطقة بالقتال قبل وصولي، لكن لم أرَ قتالًا عندما عشت هناك. كان السلام منتشرًا. وقد أنشئت مزارع ومدارس جديدة، وبلدات جديدة أيضًا. والسكان يبعثون أبناءهم إلى المدرسة التبشيرية ويعملون في المزارع الألمانية. وإن وقعت أي مشاكل فهي بسبب أشخاص سوء يحبون إثارة القلاقل. المزارع الذي أرسلني إلى المدرسة كتب الخطاب الذي حصلت به على الوظيفة في هذه البلدة. مدير المزرعة أحد أقربائه».

بعد لحظة صمت تابع إلياس: «لم أعد قط إلى القرية التي كنا نسكن فيها. لا أدري ما حلّ بالناس هناك. والآن بعد أن استقررت في هذه البلدة أدركت أنني لست بعيدًا عن قريتنا. بل أدركت حتى قبل مجيئي إلى هنا أني سأكون قريبًا من بيتنا القديم، لكني حاولت ألا أفكر بالأمر».

قال خليفة: «يجب أن تزور القرية. كم مضى على رحيلك؟».

قال إلياس: «عشرة أعوام. ما يعيدني إلى هناك؟»

تذكّر خليفة إهماله لوالديه وتعاسته الشديدة بعد رحيلهما، قال: «يجب أن تذهب. اذهب وزر أسرتك. سوف تصل خلال يوم أو يومين إن استقللت عربة. يجب أن تذهب وتطمئنهم أنك بخير. وسوف آتي معك إن أحببت».

قال إلياس نافرًا من الفكرة: «لا. أنت لا تدري أي مكان معدم تعس تلك القرية».

«إذن أرهم النجاح الذي حققته. ذاك بيتك، وأسرتك تظل أسرتك، مهما كان رأيك بها». أحس خليفة وهو يقنعه بأن دفاعات إلياس أخذت تتراخى.

جلس إلياس يفكر منعقد الحاجبين لحظة أو اثنتين، ثم تسلّل بريق بطيء إلى عينيه. قال: «سوف أذهب»، وحماسه للفكرة يتنامى مع مرور كل ثانية. عرف فيه خليفةُ هذه الخصلة لاحقًا. عندما يقتنع بخطة ما فإنه يعزم كل العزم على تحقيقها. «نعم، كلامك منطقي. سوف أذهب وحدي. فكرت في الأمر مرات كثيرة لكني في كل مرة أقصيه عن ذهني. كل ما احتجت إليه هو سلاطة لسانك لتجبرني على التفكير بالأمر والتخطيط للذهاب».

اتفق خليفة مع سائق عربة ينوي السفر باتجاه القرية على أن يصطحب إلياس معه جزءًا من الطريق. وأعطى إلياس اسم أحد البائعين الذين يتاجر معهم ويعيش على الطريق الرئيس، في قرية ليست بعيدة عن وجهته. ويمكنه أن يبيت هناك ليلة إن اضطر. ما إن مضت بضعة أيام حتى كان إلياس راكبًا على عربة يجرّها حمار تقطع طريق الساحل الوعر جنوبًا. كان السائق بلوشيًّا مسنًّا يوزّع التموين على المحلات الريفية على الطريق. ولم تكن بضائعه كثيرة. توقف عند محلين وبعدها انعطف إلى طريق داخل الريف أفضل من سابقه، وقطعوا مسافة لا بأس بها، حتى إنهم وصلوا مكان التاجر الذي يعرفه خليفة عصرًا. تبيّن أنه تاجر هندي يبيع الأطعمة الطازجة واسمه كريم. كان يشتري المحاصيل من المحليين ويرسلها إلى سوق البلدة: الموز، والكسافا،

واليقطين، والبطاطا الحلوة والبامية، أي الخضروات الصلبة التي تحتمل حرّ الطريق يومًا أو اثنين. علف البلوشي أتانه وسقاها، ثم بدا كأنه يحادثها همسًا. أخبر إلياس أن الوقت ما زال مبكرًا، وأنه يريد اغتنامه بالشروع في رحلة العودة والتوقف للبيات عند أحد المحلات التي أوصل إليها البضاعة نهارًا، وأن الأتان موافقة. أشرف كريم على عملية تحميل المحاصيل على عربة البلوشي، وكتب الأرقام في سجله ونسخها على قطعة خشنة من الورق كي يسلّمها السائق إلى البائع في سوق البلدة.

أوضح إلياس بعد مغادرة السائق أين يريد الذهاب، فنظر كريم إليه متشكّكًا. نظر حوله إلى نور الشمس، ثم أخرج من جيب معطفه ساعة، نقرها فانفتح غطاؤها الأنيق وهزّ رأسه في اعتراض.

قال: «صباح الغد. لا يمكن اليوم. بقيت على صلاة المغرب ساعة ونصف، وما إن أجد لك عربة تأخذك حتى يقاربنا الغسق. لا أنصحك بالسفر ليلًا على الطريق. كله متاعب. يمكن أن تضيع بسهولة أو تصادف أشخاصًا خبثاء. صباح الغد، تذهب عند انبلاج الصباح. سوف أتكلم مع أحد السائقين الليلة، ولكنك سترتاح الآن وتدعنا نضيفك. عندنا حجرة للزائرين. تفضل».

قاد إلياس إلى حجرة صغيرة ملاصقة للمحل، أرضها من تراب. باب المحل وباب الحجرة متداعيان، صفائح معدنية مموجة صدئة، موصدة بأقفال حديدية توحي بالأمان دون أن تحقّقه. داخل الحجرة سرير مصنوع من حبال وفوقه حشيّة، فكر إلياس بأنه قطعًا يعجّ بالبق. لاحظ فورًا أن لا ناموسية على السرير فتنهد مستسلمًا. هذا مسكن الباعة المتجولين الذين اعتادوا الترحال ولكن لا خيار غيره. لا يتوقع من كريم أن يدعو رجلًا غريبًا ليبيت في بيت أسرته.

علّق إلياس حقيبته القماشية على إطار الباب وخرج يستكشف المكان. كان بيت كريم في الساحة نفسها لكنه مبني من الطوب القوي، وعلى نافذتيه المواجهتين للأمام قضبان، إحدى النافذتين يمين الباب والأخرى شماله. أمام المنزل شرفة مرتفعة عن الأرض قدر ثلاث درجات. كان كريم جالسًا على حصيرة في الشرفة، فلمّا رأى إلياس لوّح إليه أن أقبل. تحدّثا في موضوعات شتى، عن البلدة، عن أنباء جائحة كوليرا مدمّرة في زنجبار، عن التجارة، ثم خرجت طفلة في السابعة أو الثامنة من المنزل تحمل صينية خشبية عليها قدحان صغيران من القهوة. ومع دنو الغسق أخرج كريم ساعته ثانية ونظر إلى الوقت.

قال: «صلاة المغرب». نادى فخرجت الطفلة، تحمل هذه المرة دلو ماء تترنح تحت ثقله، فأخذه كريم منها ضاحكًا. نزل الدرجات إلى الأرض ووضع الدلو إلى الجانب، على أحجار مرتفعة مصفوفة لغسل الأقدام. دعا ضيفه أن يتوضأ قبله لكن إلياس احتج بإصرار، فبدأ كريم يغتسل استعدادًا للصلاة. ثم حان دور إلياس ففعل ما رأى كريم يفعله. ارتقيا إلى الشرفة حيث سيصليان، فدعا كريم إلياس، كما جرت العادة ومن باب الأدب، أن يتقدم بالإمامة. فرفض ثانية بإلحاح وتقدّم كريم.

لم يعرف إلياس كيف يصلي، ولم يدرِ ماذا يقول. لم يدخل مسجدًا قط. لا يوجد مسجد حيث عاش طفلًا، ولا في مزرعة القهوة حيث أمضى سنوات طويلة بعدها. كان هناك مسجد في البلدة الجبلية القريبة لكن لا أحد في المزرعة أو في المدرسة أمره بالذهاب. ثم تأخر الوقت كثيرًا على تعلم الصلاة حتى أصبح سرًّا مشينًا. الآن هو رجل بالغ يعمل في مزرعة سيزال، ويعيش في بلدة تكتظ بالمساجد، لكن أيضًا لم يطلب منه أحد الذهاب إلى المسجد. كان يعلم أنه واقع في الحرج لا محالة عاجلًا أم آجلًا. كانت دعوة

كريم للإمامة أول مرة يكاد أن يُفتضح فيها ولذا تظاهر قدر الإمكان، وقلّد كل حركة وتمتم بشفتيه كأنه يتلو الآيات.

أوفى كريم بوعده واتفق مع سائق آخر ليقل إلياس إلى قريته القديمة، وهي غير بعيدة على أية حال. بعد ليلة ساهدة خرج حالما سمع صوت حركة في الباحة، وقُدّم له الشاي الأسود في كوب صفيح وموزة للإفطار ريثما يصل السائق. لمح الطفلة تكنس الشرفة لكنه لم ير أمها. كان السائق هذه المرة مراهقًا مبتهجًا بقضاء هذا الرحلة، وما انفك يحكي طوال الطريق عن مغامراته وأصدقائه. أنصت إلياس بأدب، وضحك متى ما ظنّ أن عليه الضحك، لكنه في قرارة نفسه رأى أن صاحبه مجرد فتى قروي.

وصلا إلى القرية خلال ساعة تقريبًا. قال السائق إنه سينتظر في الطريق الرئيس، لأن الدرب إلى القرية أضيق من أن تمرّ العربة فيه. وما هي إلا مسيرة قصيرة في الدرب الذي وقف عنه. قال إلياس: أجل، أعلم. سلك الطريق المفضي إلى بيتهم القديم، وبدا كل شيء مألوفًا متهدّمًا، كأنه لم يرحل إلا أشهرًا معدودة. ولم تكن قرية بمعنى الكلمة، بل مجموعة بيوت مسقوفة خلفها بساتين مزروعة. قبل أن يصل إلى بيتهم القديم رأى امرأة غاب عن ذاكرته اسمها ولكنه تعرّف إليها من وجهها. كانت تجلس في فناء خالٍ خارج بيتها المتضعضع، المبني من الأغصان المجدولة والطين، وكانت تنسج حصيرة من ألياف جوز الهند. ثبّتت قدرًا على أثافٍ بجوار قدميها، وانطلقت دجاجتان تلتقطان الحب حول كوخها. لمحته يدنو فعدّلت الكانغا وغطّت رأسها.

قال: «شيكامو». مرحبًا.

ردّت ثم انتظرت وهي تمعن النظر في ملابسه الحضرية. لم يستطع تخمين سنّها ولكن إن كانت من يحسبها فهي أمٌ لأولاد في عمره. تذكّر فجأة أن

أحدهم هو حسن، وهو ولد اعتاد أن يلعب معه. كان اسم والد إلياس حسن، لذا تذكر الاسم بسهولة. ظلّت المرأة جالسة على مقعد خفيض ولم تحاول النهوض ولا الابتسام.

«اسمي إلياس. كنت أعيش هناك». ذكر لها اسم أبويه. «أما زالا يعيشان هناك؟».

لم تجبه، ولم يعرف إن كانت سمعته أو فهمت كلامه. همّ بمتابعة سيره والتحرّي بنفسه، فإذا برجل يخرج من البيت. كان أكبر سنًّا من المرأة. مشى بخطوات ثقيلة نحو إلياس وأمعن النظر في محيّاه كما لو أن بصره ضعيف. كان وجهه متغضّنًا غير حليق، وظهرت عليه أمارات الضعف والاعتلال. كرّر إلياس اسمه واسم والديه. تبادل الرجل والمرأة نظرةً ثم تكلّمت المرأة.

«أتذكر هذا الاسم. إلياس. ألست أنت الفتى الذي ضاع؟» ثم وضعت كفيها على رأسها في رثاء. «كانت الحوادث كثيرة الوقوع ذاك الوقت وظننا جميعًا أنك تعرّضت لحادث. ظننا أن مسلّحي الروغا روغا أو الوامانغا [العمانيين] اختطفوك. ظننا أن المداتشي [الألمان] قتلوك. ضربنا أخماسًا بأسداس. نعم، أتذكر إلياس. أهذا أنت؟ كأنك رجل حكومة. توفيت أمك منذ سنوات طويلة. لا يعيش أحد في بيتكم الآن، وقد تهدّم سقفه. من النحس الذي أصابها لم يرغب أحد في السكن فيه. خلّفت رضيعة وكانت في رعاية أبيك، خمسة عشر أو ستة عشر شهرًا، فتركها برعاية أناس آخرين».

ترك إلياس عقله يستوعب ما قالته ثم سأل: «تركها برعاية آخرين. ماذا تقصدين؟».

تكلّم الرجل الآن بصوت خافت متحشرج: «أعطاهم إياها. كان مدقع الفقر. مريض جدًا. مثلنا جميعًا. أعطاهم إياها». رفع ذراعه وأشار تجاه

الطريق، منهكًا لا يستطيع قول المزيد.

أردفت المرأة: «عافية، هذا اسمها. عافية. من أين أتيت؟ أمك ميتة. أبوك ميت. أختك تأوي لدى الغريب. أين كنت طوال هذا الوقت؟».

هذا ما توقعه إلى حدٍ ما، أن يكونا متوفيين. عانى أبوه من السكري طول طفولة إلياس، وكثيرًا ما كانت أمه مريضة من أسقام لا أسماء لها تصيب النساء. آلام في ظهرها، ومشقة في التنفس، وصدرها مثقل بالمياه، وغالبًا ما كانت تتهوّع لأنها لا تكف عن الحمل. هذا ما توقعه، ولكن رغم ذلك فقد وقع عليه هذا الإعلان الفظ عن وفاتهما كالصاعقة. سأل أخيرًا: «هل أختي هنا، في هذه القرية؟».

نطق الرجل ثانيةً، وبصوتٍ معذّب دلّه على مكان الأسرة التي آوت عافية. رافق إلياس إلى الطريق الرئيس وأرشد السائق الشاب إلى المكان.

***

تقع القرية الصغيرة التي نشأتْ فيها على الطريق، عند سفح تلٍّ مخروطي تغطيه شجيرات كثيفة داكنة. ترى التل دائمًا كلما خطت خارج البيت، مشرفًا على البيوت والأفنية، لكنها لم تره عندما كانت طفلة صغيرة السن، وما أدركت وجوده إلا عندما تعلّمت معاني المناظر المعهودة من حولها. أُمرتْ ألا تذهب هناك أبدًا لكنهم لم يقولوا لها لماذا، فعمّرت التلة بالأهوال التي تعلّمت أن تتخيلها. عمتها هي التي قالت لها ألا تصعد التلة، وروت لها حكايات عن أفعى تبتلع الأطفال، ورجل طويل يتحرّك ظله على أسطح البيوت متى ما كانت الليلة مقمرة، وعجوز شعثاء تحوم في الطريق إلى البحر وتنقلب أحيانًا إلى نمرٍ يهاجم القرية ويسرق طفلًا أو ماعزًا. كانت الفتاة

واثقة أن الأفعى والطويل والعجوز الشعثاء كلهم يعيشون في التلة، وينزلون منها كي يثيروا الرعب في العالم، وإن لم تقل لها عمتها ذلك قط.

خلف البيوت والباحات الخلفية امتدت الحقول، ومن ورائها ارتفع التل. كلما كبرتْ أحسّت بأن التل يزداد ارتفاعًا فوق القرية، خاصةً في وقت الغسق، يكاد ينقض عليها كأنه روح ناقمة. تعوّدت أن تشيح بصرها إن خرجت ليلًا من البيت. كانت تسمع في حلكة الليل هسيسًا وهمسًا ينسلّ من أعلى، وكانت الأصوات تدور أحيانًا حول البيت وتتوقف خلفه. قالت عمتها إنهم الجن الذين لا يسمعهم إلا الناس، ومهما كان همسهم حزينًا ومستمرًا يجب ألا تفتح الباب لهم. علمت في وقت لاحق أن الأولاد يصعدون التل ويرجعون سالمين، وأنهم لم يذكروا قط أن رأوا أفعى أو رجلاً طويلاً أو عجوزًا شعثاء، ولا يذكرون الهمسات قط. يقولون إنهم يذهبون للصيد على التل، وإن اصطادوا شيئًا شَوَوه على النار وأكلوه. كانوا دائمًا يرجعون بأيدٍ خالية فلم تعلم قطعًا إن كانوا صادقين أم يسخرون منها.

يمتدّ طريق القرية إلى الساحل في اتجاه، وإلى غابات الداخل في الاتجاه الآخر. يقطعه في الغالب المشاة، بعضهم يحمّلون أحمالًا ثقيلة، ويسلكه أحيانًا رجال على عربات تجرّها الحمير أو الثيران. طريق واسع تعبره العربات لكنه متعرج ذو مطبات. وفي الأفق البعيد خلفه تلوح أطياف الجبال. لها أسماء غريبة تُشعرها بالخطر.

عاشت مع عمتها وعمّها وأخيها وأختها. اسم أخيها عيسى واسم أختها زوادي. كانت مأمورة بالاستيقاظ عندما تستيقظ عمتها، التي تهزّها كي تصحى أو تصفع مؤخرتها صفعة حادة سريعة كي تنهض. قومي يا شقية. اسم عمتها مليكة لكنهم جميعًا ينادونها ماما. أولى مهام الفتاة فور استيقاظها إحضار الماء، بينما تشعل عمتها المواقد التي نظّفتها وحشوتها

بالفحم في الليلة الماضية. المياه متوفرة في المنطقة ولكن لا بد من جلبها. كانوا يضعون دلوًا ومغرفة خارج باب الحمام للاستعمال داخله. وثمة دلو آخر عند حوض التصريف الذي يفضي إلى المجرى الخارجي حيث يغسلن القدور والصحون، وفيه يسكبن ماء الغسيل بعد تنظيف الملابس، أما ماء استحمام عمها وماء إعداد الشاي فلا بد أن تجلبه من الخزّان الطيني الضخم المغطى بمظلة كي يظل باردًا. يجب أن يكون ماء استحمام عمها وماء شايه نظيفًا، أما ماء الدلاء فللأعمال القذرة فقط. يصاب الناس أحيانًا بالأمراض بسبب نجاسة الماء، ولذا يجب عليها غلي الماء النظيف لحمام عمها ولإعداد الشاي.

كان الخزّان عاليًا وهي قصيرة، فكانت تضطر إلى الوقوف على صندوق خشبي مقلوب كي تبلغ الماء، وإن كان مستواه منخفضًا أو تأخر بائع الماء في تعبئة الخزان كانت تنحني إلى الأسفل بشدة حتى يكاد نصف جسمها يدخل في الخزان الزلق. إن تكلّمت ورأسها داخل الخزّان يصبح لصوتها نبرة شيطانية تشعرها بأنها ضخمة. كانت تفعل هذا أحيانًا وإن لم تكن مرسَلة لجلب الماء، تضع رأسها في جوف الخزان وتزمجر وتجلجل كأنها مارد. غرفت من الماء في قدرين، حتى انتصف الماء فيهما فتوقفت، وإلا ما استطاعت حملهما بسبب وزنهما الثقيل. نقلتهما قدرًا تلو الأخرى إلى الموقدين اللذين أشعلتهما عمتها، ثم عادت إلى الخزان وملأت قدري الغلي مرارًا حتى صار فيهما ما يكفي من الماء، إحداهما لحمام عمها والأخرى لصنع الشاي.

فتحت عينيها على العالم وهي تعيش معهما، عمها وعمتها. كان الأخ عيسى والأخت زوادي أكبر منها، أكبر بنحو خمس أو ست سنوات. لم يكونا أخويها طبعًا، لكنها تعدّهما كذلك وإن ضايقاها وأوجعاها بزعم اللهو واللعب. كانا أحيانًا يضربانها عمدًا، لم يكن لشيءٍ اقترفته أو لأنها استفزّتهما، بل لأنهما يحبان ضربها ولم تستطع صدّهما. كانا يضربانها عندما يخلو البيت

إلا من الأطفال فلا يسمع صرخاتها أحدٌ، أو إن أصابها السأم وهذا كثير الحدوث. يأمرانها بأن تفعل أشياء لا تريد فعلها، وإن بكت أو رفضت صفعاها وبصقا عليها. لا يوجد ما تشغل نفسها به بعد إتمام مهامها ولكنهما يكرهان أن تتبعهما عندما يخرجان للعب مع أصحابهما أو لسرقة الفاكهة من أشجار الجيران، حتى أصحابهما يرفضان مجيئها. الفتيات يشتمنها بألفاظ قذرة ليضحك الصبيان، وكانوا يطاردونها حتى تهرب منهم. تعددت الأسباب ولكن أخاها وأختها اعتادا ضربها أو قرصها أو سرقة الطعام منها كل يوم. ولم تحزن على ضربها وقرصها وسرقة طعامها. لم يؤلمها الضرب كثيرًا، وثمة أمور أخرى تجعلها أشدّ حزنًا، تجعلها تشعر بأنها صغيرة وغريبة في هذا العالم. ليست وحدها من الأطفال من يُضرب في كل يوم.

أمروها أن تقوم بفروض البيت منذ سن صغيرة جدًا. لا تتذكر متى بدأ الأمر، لكن عمتها كانت دائمًا تستدعيها لفعل شيء ما، الكنس أو جلب الماء أو شراء شيء من المحل. ثم أصبحت تغسل الملابس، وتقطّع وتقشّر، وتسخّن الماء لحمام عمها وإعداد الشاي للأسرة. كل الأطفال الآخرين في القرية ملزمون بالقيام بواجباتهم كما يأمرهم أعمامهم وعمّاتهم، في البيوت وفي الحقول. لم يكن لعمها وعمتها حقل أو حتى حديقة، فكانت كل واجباتها محصورة داخل المنزل وفي الفناء الخلفي. صحيح أن عمتها توبخها أحيانًا، لكنها حنونة في غالب الأوقات وتروي لها قصصًا. بعض القصص التي ترويها مرعبة، مثل قصة الرجل البدين الرث، ذي الأظافر الطويلة المتسخة، الذي يجول في الطرقات ليلاً، ويجرّ وراءه سلسلة حديدية، يبحث عن فتاة صغيرة يختطفها ويسحبها إلى جحره تحت الأرض. تستطيعين دائمًا أن تعرفي إن كان قريبًا من صوت السلسلة التي يجرّها على الأرض. كثيرة هي الحكايات التي ترويها عمتها عن العجائز القذرين الذين يخطفون الفتيات. كانت عندما ترى عيسى أو زوادي يسيئان معاملة الصغيرة تنهرهما أو حتى

تعاقبهما. تقول لهما دائمًا عاملا هذه المسكينة كأنها أختكما.

أمها ميتة، كانت تعرف هذا، لكن لم تعرف لماذا أصبحت تسكن مع عمتها وعمها. قالت لها عمتها يومًا عندما كانت في السادسة: «أخذناك للعيش معنا لأنك يتيمة وأبوك مريض. كان أبوك وأمك يعيشان على مسافة منا على الطريق وكنا نعرفهما. أمك المسكينة منحوسة بصحتها وماتت وأنت رضيعة، عمرك نحو السنتين. أحضرك أبوك لنا وطلب منا إيواءك حتى تتحسن صحته، لكنه لم يُشفَ وأخذه الله كما أخذ أمك. كل هذه الأمور بيد الله. ومنذ ذلك الحين أصبحت عبئًا علينا».

حكت لها عمتها هذا وهي تدهن شعرها وتضفره بعد غسله، وكانت تغسله كل أسبوع حتى لا تصاب بالقمل. كان تجلس بين ركبتي عمتها فلم تستطع رؤية وجهها ولكن صوتها كان لطيفًا، بل حتى حنونًا. بعد ما سمعت هذا علمت أنهما ليسا عمها وعمتها بقرابة الدم، وأن والدها ميت أيضًا. لم تتذكر أمها ولكن التفكير بها أصابها بالحزن. ولمّا حاولت أن تتخيل وجهها لم ترَ سوى وجه إحدى نساء القرية.

لم يكن عمها يخاطبها إلا فيما ندر، وهي لا تخاطبه كذلك. عندما تكلّمه يقطّب جبينه، حتى لو كانت تبلغه رسالة من عمتها. إن أراد أن يستدعيها يفرقع أصابعه أو ينادي: أنتِ! اسمه مكامي. كان رجلًا ضخمًا، وجهه مستدير وأنفه مستدير وكرشه عريض مستدير. لا يرضى إلا إذا كان كل شيء حسب ما يهوى. عندما يزجر أحد طفليه يرتعش البيت برمته ويهتز بغضبه، ويحلّ على الجميع الصمت. كانت تتجنب النظر إلى عينيه لأنهما حمراوان مخيفتان في وجهٍ كالح. كانت تعرف أنه لا يحبها لكنها لا تدري ماذا فعلت حتى استحقت هذه الكراهية. يداه ضخمتان وذراعه ثخينة بعرض رقبتها. عندما يضرب مؤخرة رأسها كانت تترنح وتدوخ.

كانت لعمتها عادة وهي هز رأسها عدة مرات عندما تصدر أمرًا، ولأن وجهها نحيل ومشدود وأنفها طويل، كانت تبدو كالدجاجة التي تلتقط أشياء من الهواء. قالت عمتها: «عمك رجل قوي جدًا. لهذا جعلوه حارس الأمن في مستودع الحكومة. هو الذي يفتح البوابات ويقفلها كيلا يدخل المشردون. الحكومة اختارته. كلهم يهابونه. يقولون: قبضة مكامي كأنها هراوة. لولاه لثار الشغب وسرقوا».

لا تذكر ليلة لم تنم فيها على الأرض عند مدخل البيت. عندما تفتح الباب في الصباح ترى التل، وحتى عندما يُقفل الباب في الليل كانت تشعر بوجوده خارجه، مخيِّمًا عليهم جميعًا. الكلاب تنبح في الليل، والبعوض يطنّ حول وجهها، والحشرات تحوم وتخشخش لا يفصلها عنهم إلا الباب الركيك المكسور. ثم تصمت جميعًا عندما تنزل الهمسات من أعلى التل حتى تصل إلى مؤخرة البيت. كانت تغمض عينيها بقوة حتى لا ترى الأعين الناقمة ترمقها من بين شقوق ألواح الباب.

كان بيتًا صغيرًا مبنيًّا من اللبنات، ومبيضًا بالجص داخله وخارجه. فيه حجرتان صغيرتان يقسمهما المدخل وباب خلفي يفضي إلى الفناء. سور من أعواد القصب يطوّق الفناء، ومن ورائه الحمام والمطبخ. كان أفراد الأسرة الأربعة ينامون في أوسع الحجرتين، الأم والابنة على سرير، والأب والابن على السرير الآخر. وأحيانًا ينام الصغيران في الحجرة الأضيق، التي تستعمل في النهار للجلوس أو التخزين، أو تناول الطعام أو استقبال الجيران عند زيارتهم. كانت القرية في عمق الريف، فلم تصلها تمديدات المياه، ولهذا كانت تضطر إلى جلب الماء لاستحمام عمها ولإعداد الشاي من الخزان الطيني الضخم الذي يملأه بائع الماء كلما شارف على الانتهاء. كان بائع الماء يجلبه من بئر القرية القريبة ثم ينتقل من بيت إلى بيت، جارًّا عربته بنفسه،

ويملأ خزانات الذين يدفعون له. كثيرون يذهبون إلى البئر بأنفسهم أو يرسلون أحد أطفالهم، لكن عمها وعمتها قادران على دفع المبلغ.

في أحد الأيام كانت تعين عمتها على الغسيل، فسمعا شخصًا ينادي من الباب الأمامي. قالت عمتها: انظري من عند الباب. وجدت رجلًا يرتدي قميصًا أبيض طويل الكمين، وبنطالًا خاكيًّا، وحذاءً ثخينًا من الجلد الناعم. كان واقفًا على العتبة قرب البيت، يحمل حقيبة قماشية في يده اليمنى. واضحٌ أنه رجل من البلدة، من الساحل.

قالت: «كاريبو». أهلاً.

ردّ باسمًا: «مرحبًا». بعد ثوانٍ صامتة سألها: «أتسمحين أن أسألك عن اسمك؟».

قالت: «عافية».

اتّسعت ابتسامته وتنهد في الوقت نفسه. ثم انحنى متكئًا على ركبتيه حتى صار وجهه بمستوى نظرها. قال: «أنا أخوك. كنت أبحث عنك منذ سنوات. لم أكن أعلم إن كنت ما زلت حية، أو إن كان أبي وأمي حيين. والآن عثرت عليك، الحمد لله. هل أهل البيت في الداخل؟».

أومأت ودخلت تنادي عمتها، فخرجت هذه وهي تمسح يديها بالكانغا. اعتدل الرجل واقفًا وعرّف بنفسه ذاكرًا اسمه. قال: «أنا إلياس، أخوها. ذهبت إلى بيتنا القديم وعرفت أن والديّ توفيا. أخبرني الجيران أن أختي هنا. لم أكن أعلم».

بدت على عمتها الحيرة مما قاله، وربما أيضًا من مظهره. كان يبدو كأنه رجل حكومة. قالت: «كاريبو. لم نعرف أين كنت. أرجوك انتظر ريثما تذهب عافية لإحضار عمها. أسرعي، اذهبي الآن».

جرت إلى المستودع وأبلغت عمها أن عمتها طلبت أن يأتي وسألها ما الخطب. قالت: جاء أخي. سأل: من أين؟ لكنها ركضت تسبقه. لما وصلا إلى البيت كان يلهث لكنه ابتسم بأدبٍ، ولم يكن هذا اللطف يظهر في البيت عادةً. كان أخوها جالسًا في الحجرة الصغيرة الضيقة التي يعوزها الترتيب، فانضمّ إليه عمها هناك، مصافحًا متبسّمًا بحبور. «أهلًا بك يا أخي. الحمد لله على سلامتك وعلى أن هداك إلى بيتنا لتقابل أختك. أخبرنا أبوك أنك تهت. لم نعرف ماذا نفعل كي نجدك. بذلنا قصارى جهدنا للاعتناء بها. إنها مثل ابنتنا الآن». قالها ويده اليسرى على قلبه وذراعه اليمنى ممتدة في إشارة ترحيب.

قال أخوها: «لا أدري إن كنت تتذكرني، ولكن أؤكد لك أني صادق ولا أدعي».

قال عمها: «الشبه بينك وبين أسرتك واضح. لا داعي لأي توكيد».

عندما رجعت عافية بعد عدة دقائق تحمل صينية عليها كأسا ماء، وجدتهما منهمكين في الحديث. سمعت أخاها يقول: «أشكركم على رعايتها طوال هذه المدة. لا يسعني شكركم على الإطلاق، ولكن الآن وقد وجدتها أود أن آخذها لتعيش معي».

قال عمها ووجهه يلتمع بحبيبات العرق الجافة: «سوف يؤسفنا رحيلها. إنها ابنتنا الآن، وسكنها معنا تكلفة يسرنا تحمّلها، ولكن لا بد طبعًا أن تعيش مع أخيها. الدم أقوى الروابط».

ظلا يتحدّثان بعض الوقت حتى دعواها إلى الدخول. أشار إليها أخوها بالجلوس، وهو يشرح لها أنها سوف تأتي لتعيش معه في البلدة. وطلب منها أن تجمع حوائجها وتستعد للرحيل بعد قليل. جمعت كل شيء في صرّة صغيرة وتأهبت خلال دقائق. ظلت عمتها تراقبها. قالت بتأنيب: وهكذا

ببساطة، دون حتى شكرًا أو مع السلامة. قالت عافية: شكرًا، مع السلامة، وقد خجلت من عجلتها.

لم تكن تدري حتى أن لها أخًا حقيقيًا. لم تصدق أنه موجود هنا، أنه جاء من الطريق وهو الآن ينتظر كي يأخذها بعيدًا عن هنا. كان نظيفًا وجميلًا جدًا، وضحكاته لا تنقطع. ذكر لها فيما بعد أنه كان في الحقيقة غاضبًا من عمها وعمتها، لكنه أخفى غضبه كيلا يظنان أنه غير ممتن لهما بإيوائها رغم أنها لا ترتبط بهما بقرابة. لقد آوياها، وهذا أمر ليس يسيرًا. أعطاهما بعض المال هدية نظير لطفهما لكنه لم يكن مضطرًا إلى ذلك، لأنها كانت تضع أسمالًا بالية عندما وجدها كأنها عبدتهما. قال: «بل كان الواجب أن يدفعا هما لك مالًا وقد أجبراك على خدمتهما كل هذه السنوات». لم تدر الفكرة في خلدها على الإطلاق ذلك الحين، فقط فيما بعد، عندما استقرت للعيش معه.

في ذلك الصباح الذي عثر عليها فيه أخذها معه على عربة الحمار إلى محل كريم. لم تركب عربة حمار من قبل قط. انتظرا في المحل حتى أتت عربة أخرى تقلهما، وفي اليوم التالي ركبا عربة حمار أخرى وجلست هي بين سلال المانجو والكسافا وجوالات الحبوب، بينما استقر أخوها على المقعد المجاور للسائق. أخذها إلى البلدة الصغيرة على الساحل حيث يقطن. استأجر في البلدة حجرة سفلية في بيت أسرة، وعندما وصلا اصطحبها إلى الطابق العلوي لمقابلة الأشخاص الذي يسكنون فيه. كانت الأم وابنتاها المراهقتان في البيت وقالت لها أن تصعد إلى بيتهم متى شاءت. خلال الوقت الذي عاشته عافية مع أخيها جرّبت النوم على السرير لأول مرة في حياتها. لها سريرها في أحد طرفي الحجرة مغطى بناموسية لها وحدها، وسريره في الطرف المقابل. ثمة طاولة في منتصف الحجرة وكان يلقي عليها دروسًا كل عصر عندما يرجع من العمل.

في صباح أحد الأيام، بعد بضعة أيام من وصولها إلى البلدة، أخذها إلى المستشفى الحكومي قرب الشاطئ. لم ترَ البحر من قبل قط. وخز رجل يرتدي معطفًا أبيض ذراعها، ثم طلب منها أن تبول في علبة صغيرة. شرح لها إلياس أن الوخزة تحميها من المرض بالحمى، وأن البول للتأكد ما إذا كانت مصابة بالبلهارسيا. قال إن هذا طب ألماني.

عندما يذهب إلياس إلى عمله في الصباح كانت تصعد إلى الطابق العلوي فتستقبلها الأسرة بلا كلفة. سألنها عن نفسها وأجابتهن بمعلومات مقتضبة. كانت تساعد في أعمال المطبخ لأنها تجيدها، أو تجلس مع الأختين وهما تتحدثان وتخيطان، وأحيانًا كنّ يرسلنها لشراء بعض الحاجيات من المحل القريب. اسم الأختين جميلة وسعدة، وقد توطدت صداقتهن منذ البداية. وعندما يأتي أبوهما إلى المنزل تشاركهم وجبة الغداء. طلبا منها أن تدعو أباهما بالعم عُمري؛ ما جعلها تشعر أنها أحد أفراد الأسرة. وفي العصر، بعد أن يرجع أخوها من العمل ويغتسل، تأخذ وجبة الغداء إليه في الطابق السفلي وتجالسه أثناء تناوله الطعام.

قال: «يجب أن تتعلمي القراءة والكتابة». لم تعرف أحدًا يجيد القراءة أو الكتابة، وإن كانت تدري ما الكتابة لأنها رأتها على العلب والصناديق المعروضة للبيع في محل القرية، وقد رأت كتابًا موضوعًا على الرف فوق كرسي صاحب المحل. قال لها صاحب المحل إنه كتاب مقدس ويجب ألا تمسّه إلا إذا تطهرت أولاً كما لو أنها تستعد للصلاة. لم تظن أنها تستطيع أن تتعلم قراءة كتاب بهذه القدسية، لكن أخاها ضحك منها وجعلها تجلس إلى جواره وهو يخط الحروف، وتكرر وراءه كلما نطق أصواتها. ثم أخذت تتدرب وحدها على كتابة الحروف.

في عصر أحد الأيام كانت أسرة الطابق العلوي خارج البيت، فأخذها

معه لزيارة أحد أصحابه. اسمه خليفة، وقد قال لها إلياس إنه أعز أصدقائه في البلدة. ظل الصديقان يتمازحان ويضحكان فيما بينهما، ثم قال أخوها إنهما سيغادران الآن لإكمال جولتهما وسوف يحضرها مرة أخرى للزيارة. كانت تصعد معظم الصباحات وتجلس بصحبة جميلة وسعدة، فيطبخن ويتحدثن ويخطن، وأحيانًا في المساءات عندما يذهب إلياس إلى المقهى أو للتسامر مع أصحابه كانت تصعد وتتدرب على قراءة الأحرف وكتابتها تحت أنظار الشقيقتين المبهورتين. فقد كانتا أمّيتين، وكذلك أمهما.

لكن أخاها لم يكن يقضي كل مساء خارج البيت، بل أحيانًا يبقى معها ويعلّمها ألعاب الورق أو بعض الأغاني، أو يحكي لها عن تجاربه. قال لها: «هربت من البيت عندما كانت أمي حامل بك. لا أدري إن كان الفرار حقًا هدفي. لا أعتقد أني وددت الهرب. لم يتجاوز عمري الحادية عشرة. كان والدانا فقيرين جدًا. كلهم فقراء. لا أدري كيف عاشا، على ماذا اقتاتا. كان أبي مريضًا مصابًا بالسكري ولم يحتمل العمل. ربما مد له الجيران يد العون. أتذكر أن ملابسي أسمال وأني كنت دائمًا جائعًا. فقدت أمي اثنتين من أخواتي الصغيرات بعد ولادتهما. أتوقع أن السبب هو الملاريا لكنني كنت مجرد طفل ولم أكن أعرف هذه الأمور في ذلك الحين. أتذكر ولادتهما. بعد أشهر معدودة أصيبتا بالمرض وظلتا تبكيان لأيامٍ حتى وفاتهما. لم أستطع النوم بعض الليالي لشدة جوعي ولأن أبي كان يتأوه بصوتٍ عالٍ. كانت ساقاه منتفختين منتنتين، كأنها قطع لحم متعفن. ليس ذنبه، هذا من أثر السكر. لا تبكِ، أرى الدمع يتجمع في مقلتيك. أنا لا أقول ذلك كي أحزنك، بل لأوضح لك أن هذه الأمور هي التي دفعتني إلى الهرب.

«ولا أعتقد أني نويت الفرار حقًا، لكن عندما خرجت إلى الطريق ظللت أسير. لم ينتبه أحد إلى وجودي. إذا جعت تسوّلت الطعام أو سرقت بعض

الفاكهة، وفي الليل أجد دائمًا مكانًا يأويني كي أنام. كنت مرتعبًا بعض الأحيان، وأحيانًا أنسى نفسي وأنظر إلى ما يجري حولي. بعد بضعة أيام وصلت إلى بلدة كبيرة على الساحل، هذه البلدة. رأيت جنودًا في مسيرة تجول في الشوارع، والموسيقى تعزف، وأحذيتهم الثقيلة تخبط الأرض، وحشد من الشباب يسير محاذيًا لهم، متظاهرين بأنهم جنود. انضممت إليهم، مبهورًا باستعراض البذلات العسكرية والمسيرة والفرقة الموسيقية. انتهت المسيرة عند محطة القطار، ووقفت هناك أراقب مقطورات حديدية كبيرة كأنها منازل متحركة. كان المحرك يزمجر ويطلق الدخان، كأنه مخلوق حي. لم أرَ قطارًا قبل ذلك قط. كان فيلق من العساكر واقفين على المنصة ينتظرون دورهم في ركوب القطار، وأنا أتسكع حولهم، أراقب وأسمع فقط. كان القتال مع ماجي ماجي ما زال مستمرًا في ذلك الحين. أتعرفين عن ذلك القتال؟ حتى أنا لم أعلم ما هو حينها. سأحكي لك عن الماجي ماجي لاحقًا. عندما انتهوا من إعداد القطار للرحلة بدأ العساكر بالركوب. دفعني عسكري من الشنغان داخل القطار وقبض معصمي وهو يضحك، وأنا أحاول الإفلات منه لكنه لم يتركني. قال لي إنني سأكون صبي السلاح، إنني سأحمل سلاحه عندما يسيرون للقتال. قال: سيعجبك الأمر. أخذني معه في القطار حتى نهاية السكة الحديدية، أو حتى نهاية الخط الذي مدّوه في ذلك الوقت، ثم انطلقنا في مسيرة استغرقت عدة أيام حتى وصلنا إلى البلدة الجبلية».

«عندما وصلنا إليها جعلونا ننتظر في الساحة بعض الوقت. أعتقد أن العسكري الشنغاني اقتنع أني لن أحاول الهرب بعد الآن لأنه لم يكن قابضًا على معصمي. ربما فكرت أن لا مكان أفرّ إليه. رأيت هنديًّا يقف على بعض البضائع، يوجّه الحمالين ويدوّن على لوح صغير. هرعت إليه وأخبرته أن العسكري خطفني من بيتي. قال الهندي: ابتعد أيها اللص القذر! كنت

متسخًا للغاية عندها. ملابسي مجرد خرق، سروال قصير مصنوع من الخيش وقميص قديم ممزق لم أعد أهتم بغسله. قلت للهندي إن اسمي إلياس وإن ذلك العسكري الشنغاني الضخم الواقف يحدق فينا خطفني من بيتنا. أشاح الهندي وجهه عني في البداية ثم طلب أن أعيد اسمي. أمرني بتكراره مرتين ثم ابتسم وقال اسمي: إلياس. أومأ وأخذ بيدي» - أخذ إلياس يد عافية وهو يروي لها ما جرى، مبتسمًا كما ابتسم الهندي ونهض واقفًا - «وسار بي إلى الضابط الألماني بزيه الأبيض الواقف أيضًا في الساحة. كان هذا رئيس العساكر وكان مشغولًا بجنوده. شعره بلون الرمل وكذلك حاجباه. كان أول ألماني أقف بذاك القرب منه، وهذا ما لفت انتباهي. قطّب حاجبيه وهو يرمقني، وقال شيئًا للهندي الذي قال عندئذ إني حر إن أردت المغادرة. قلت لا مكان أذهب إليه فلما سمع رئيس العساكر ذلك عبس ثانيةً ونادى ألمانيًا آخر».

عادا إلى الجلوس، وما زالت عافية تبتسم والجذل جلي في عينيها بسبب هذه الحكاية. رسم إلياس التجهم على وجهه وأكمل.

«لم يكن هذا الألماني الآخر ضابطًا بالزي الأبيض الجميل، بل رجلًا أشعث كان يوجّه العمّال الذين ينقلون البضاعة، والهندي يحصي أعدادها. عندما فرغ الضابط من الحديث معه أشار إلى الرجل أن اقترب، وسألني بحدة: ما حكايتك؟ قلت له، اسمي إلياس وقد خطفني عسكري من بيتنا. كرّر اسمي وابتسم. قال: إلياس، اسم جميل. انتظر هنا حتى أنتهي. لم أنتظر، تبعته خوفًا من أن يرجع العسكري الشنغاني ويأخذني. كان الرجل يعمل في مزرعة قهوة على الطريق إلى الجبل، بالطلوع إلى قمته. يملكها ألماني آخر. أخذني إلى المزرعة معه وكلّفني بالعمل في زريبة المواشي. كان عندهم عدد من الحمير ومهر لها إسطبلها الخاص. نعم، مهرة ضخمة ومرعبة لأي

فتى صغير. كانت المزرعة جديدة والأعمال فيها كثيرة. لهذا أخذني الألماني الأشعث معه إلى هناك، لأنهم في حاجة إلى عمال».

«رآني المزارع في الزريبة أزيل روث الحمير أو شيئًا من هذا القبيل، لا أتذكر بالضبط ما كنتُ أفعل. سأل الرجل الذي جلبني معه من المحطة من أكون. غضب الرجل عندما علم أن عسكريًا اختطفني. قال: يجب ألا نتصرف كالمتوحشين. لم نأتِ إلى هنا لهذا. عرفت ما قاله حينئذٍ لأنه أخبرني لاحقًا. كان فخورًا بنفسه ويحب أن يذكر القصة أمامي وأمام الآخرين. قال إنني أصغر من أن أعمل، ويجب أن ألتحق بالمدرسة. قال إن الألمان لم يأتوا هنا لاستعباد الناس. فسمحوا لي بالالتحاق بمدرسة الكنيسة التي يدخلها المتنصرون. عشت في تلك المزرعة سنوات طويلة».

سألت عافية: «هل كنتُ قد وُلدت حينها؟».

قال إلياس: «أوه.. نعم. لا بد أنك وُلدت بعد فراري ببضعة أشهر. عشت في المزرعة تسعة أعوام ما يعني أنك في العاشرة الآن. أحببت المعيشة هناك. كنت أعمل في المزرعة وأرتاد المدرسة، فتعلمت القراءة والكتابة والغناء والتحدث بالألمانية».

توقف عن الكلام وشرع يغني بعض الأبيات من أغنية لا بد أنها ألمانية. أطربها صوته الجميل وهبّت واقفة لتصفق له عندما انتهى. كانت ابتسامته عريضة من شدة سروره. كان يحب الغناء.

تابع: «يومًا ما ليس ببعيد، استدعاني المزارع ليحادثني في أمر ما. كان كالأب لي ذاك الرجل. كان يرعى جميع العمال، وإن مرض أحدهم كان يرسله إلى عيادة الإرسالية لتلقي العلاج. سألني إن كنت أود أن أبقى في المزرعة. قال إن لدي من المهارات ما يفوق أي عامل في المزرعة، وسألني: ألا

يدفعك الفضول كي تعود إلى الساحل حيث الفرص أكثر؟ أعطاني خطابًا أسلّمه لأحد أقاربه هنا في هذه البلدة يملك مصنع سيزال. كتب في الخطاب أني أهل للثقة وجدير بالاحترام، وأني أستطيع القراءة والكتابة بالألمانية. قرأ علي الخطاب قبل أن يختمه. لهذا حظيت بوظيفة كاتب في مصنع السيزال الألماني، ولهذا سوف تتعلمين القراءة والكتابة أيضًا، كي تعرفي العالم بشكل أفضل وتتعلمي كيف ترعين نفسك».

قالت عافية وهي غير مستعدة للتفكير بالمستقبل بعد: «نعم، هل كان للمزارع شعر رملي كما كان للألماني الآخر ذي الزي الأبيض؟».

قال إلياس: «لا، شعره داكن. كان نحيلًا متأنيًا، لا يرفع صوته قط ولا يهين عماله. كان يبدو كالـ... شولر، المتعلم، رجلٌ حليم».

فكّرت عافية بصفات المزارع لحظة، ثم سألت: «أكان لأبينا شعر داكن؟».

قال إلياس: «امم، على الأرجح نعم. كان رماديًّا عندما رحلت، لكن أظن أنه كان أسود قبل ذلك، عندما كان شابًّا».

سألت عافية: «هل كان مزارعك يشبه أبانا؟».

أطلق إلياس ضحكةً عالية. قال: «لا، كان شكله ألمانيًّا. أبونا...». صمت إلياس وهز رأسه ولم يزد. ثم قال: «أبونا لم يكن بخير».

***

حدّث خليفة إلياس: «أكره الإساءة إلى الموتى وقد رحلوا عن عالمنا منذ عهد قصير، لكن ذاك العجوز كان قرصانًا. أما التاجيري [الثري] الصغير فأنا أعرفه منذ سنين. كان طفلًا في التاسعة أعتقد عندما بدأت العمل لدى بوانا عامر. والآن أصبح شابًّا مزعزعًا سريع الهلع، وكيف لا يكون

وأبوه لم يطلعه على شيء قط؟ ثم يجد نفسه فجأة منهوبًا والدائنين مقبلين من كل حدب وصوب. خسر الكثير في الفوضى التي تلت موت أبيه. لم يكن يعرف أي شيء عن تعاملات أبيه فنهبه أولئك القراصنة. كل ما يشغل باله هو الخشب. حتى أنه أقنع أباه أن يسمح له بفتح مخزن أخشاب وورشة لصنع الأثاث. هذا كل ما يود فعله، أن يجول في المخزن بين الأخشاب ويشم رائحتها. وبينما هو يفعل ذلك كل شيء آخر في طريقه إلى الخراب».

«أخبرتك ذات مرة عن حكاية البيت. كنا نحسب أنه مصنوع من غير المعدن القبيح الذي صُنع منه أبوه، ربما يستجيب بلطف إلى توسلات بي عائشة لاسترجاع بيت أبيها، لكنه جشع مثل أبيه. هذا البيت ليس من حقه على الإطلاق. كان يجب أن يعيده إلى صاحبته الأصلية لكنه يرفض رفضًا حازمًا أن يعيده، رغم أنه فوجئ عندما اكتشف أنه ليس ملك بي عائشة. ربما يأمرنا بإخلائه يومًا إن شاء، ولكن أعتقد أنه يخاف من زوجتي. فهما أبناء خال كما تعلم، أقرب إلى الأخت وأخيها، لكنه يأبى أن يعيد البيت الذي هو أساسًا من حق أسرتها. هو الآخر مجرد محتال جشع».

اعتاد الرجلان اللقاء آخر العصر أو بداية المساء، فيقضيان ساعة أو اثنتين في المقهى. تدفق بهما الكلام فانضمّا إلى سيل الحديث العارم في المقهى، وهو السبب الرئيس للاجتماع فيه. وقدّم خليفة الذي يعرف أغلب الموجودين إلياس إلى الآخرين، وطلب منه أن يحكي لهم حكاياته التي كانت غالبًا عن الوقت الذي قضاه في المدرسة الألمانية في البلدة الجبلية وراعيه المزارع الألماني. وروى آخرون حكايات أخرى بعضها بعيد كل البعد عن التصديق، ولكن كذلك كان جو المقهى: كلما زادت غرابة حكايته كانت أشهى. وكان خليفة الخبير الشهير، حاوي القصص والشائعات، فكانوا يحكّمونه فيما بينهم إن تباينت الروايات. وعندما يكتفيان من أحاديث المقهى يتجولان

على شاطئ البحر أو يعودان إلى شرفة خليفة حيث يجتمع بعض أصحابه في البرازا. كانوا منشغلين ذلك الحين بشائعات الحرب القادمة مع الإنجليز، وكانوا يقولون إنها حرب عظيمة، ليست مثل تلك الحروب الصغيرة ضد العرب، أو السواحليين، أو الواهيهي، أو الوانيامويزي، أو الواميرو، أو غيرهم. كانت تلك حروبًا شنيعة، لكن هذه ستكون حربًا عظيمة! لديهم مدفعيات بحجم التلال، وسفن تتنقل تحت الماء، وقذائف تقصف أي بلدة من على بعد أميال. بل إنهم يذكرون آلة تطير وإن لم يبصرها أحد.

«لا أمل في انتصارهم، هؤلاء الإنجليز». قالها إلياس فاستحسنت الجماعة بغمغمات ما قال. «الألمان ذوو قدرة ودهاء. بارعون بالتنظيم، بارعون بالقتال. لا يفوتهم شيء... والأهم من هذا أنهم ألطف بكثير من الإنجليز».

انفجر المستمعون في ضحكات مجلجلة.

ردّ أحد رواد المقهى، رجل اسمه مانغونغو: «لم أرَ من لطفهم شيئًا. برأيي أن صرامتهم ووحشية عساكر النوبة والوانيامويزي هي ما سيردع الإنجليز. لا مخلوق أكثر صرامة من الألماني».

قال إلياس: «أنت لا تدري ماذا تقول. لم أرَ منهم إلا كل لطف».

خاطبه رجل آخر اسمه محمود: «اسمع، لطف ألماني واحد تجاهك لا يغير ما وقع هنا كل هذه الأعوام. خلال الثلاثين عامًا أو نحوها التي احتل فيها الألمان هذه البلاد ذبحوا أعدادًا لا تحصى من الناس، حتى إن الأرض مفروشة بالجماجم والعظام، والتراب مرتوٍ بالدماء. أنا لا أبالغ».

قال إلياس: «بل أنت تبالغ فعلًا».

تابع محمود: «أنتم هنا لا تعلمون ما جرى في الجنوب. معك حق، لا أمل للإنجليز بالانتصار إن كان القتال سيدور في البر، لكن هذا ما لن يحدث

بسبب لطف الألمان».

قال شخص اسمه محفوظ: «أتفق معك. عساكرهم عنيفون بل بربريون بلا خلق. الله وحده يعلم كيف أصبحوا هكذا».

قال مانغونغو بنبرةٍ من عنده العلم كي يضع حدًّا للنقاش كما يجب أن يفعل: «بسبب ضباطهم. يتعلمون الوحشية من ضباطهم».

لم ينثنِ إلياس عن موقفه، فقال: «كانوا يقاتلون عدوًا يماثلهم وحشيةً في اعتداءاته. أنتم لا تعرفون ما كان أولئك الناس يفعلون بالألمان. اضطروا إلى اتباع القسوة في قصاصهم لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يفهم بها المتوحشون النظام والطاعة. الألمان أناس متحضرون شرفاء وقد امتد خيرهم إلى كل مكان منذ جاءوا إلى هنا».

صمت مستمعوه في وجه حدته. حتى نطق مانغونغو كي يحوز على الكلمة الأخيرة: «لقد أكلوك يا صاحبي».

رغم تكرر مثل هذه المواقف من إلياس فإن خليفة تفاجأ مفاجأة عظيمة حين أعلن إلياس أنه ينوي التطوّع لصفوف الشوتزتروبه. سأله صديقه: «هل جننت؟ ما علاقتك بكل ما يجري؟ الأمر بين محتلَّين عنيفين وحشيين، أحدهما بيننا والآخر في الشمال. إنهما يتقاتلان كي يغنم المنتصر بابتلاعنا. ما علاقتك بكل ما يجري؟ سوف تنضم إلى جيش من المرتزقة معروف بقسوته وضراوته. ألم تسمع ما يقوله الجميع؟ قد تصاب إصابة بالغة... أو أسوأ من هذا. أين عقلك يا صاحبي؟».

لم يعدل إلياس عن فكرته ورفض تسويغ قراره. اكتفى بالقول إن همّه الوحيد الآن هو الاطمئنان على وضع أخته الصغيرة في غيابه.

***

مرّت سنة كاملة كومضة برق. شعرت عافية أن أسعد أوقات حياتها كانت بعودة أخيها وعثوره عليها وملئه أيامها بالضحك. وهذا طبعه حقًا، كان ضحوكًا مرحًا لا يسعها إلا أن تضحك معه. حتى قال لها، على حين غرة أو هكذا بدا لها الأمر: «يجب أن أنضم إلى الشوتزتروبه. أتعرفين ما معناها؟ تعني جنود الحماية، جيش العسكرية. سوف أكون عسكريًّا. سوف أكون جنديًا أقاتل مع الألمان في الحرب الكبيرة القادمة».

حرصت على أن ترد بصوتٍ هادئ لا يكشف الذعر الذي أوقعه الخبر في قلبها: «هل ستضطر إلى الرحيل؟ هل سيطول غيابك؟».

ابتسم يطمئنها وأجاب: «لن يطول غيابي. الشوتزتروبه جيش قوي لا يمكن هزيمته. والكل يخاف منه. سوف أعود بعد بضعة أشهر».

سألت: «هل سأبقى هنا إلى حين عودتك؟».

هزّ رأسه. «أنت ما زلت صغيرة. لا أستطيع تركك هنا وحدك. سألت العم عمر إن كان يقبل بقاءك مع أسرته لكنه لا يريد تحمل المسؤولية في حال... نحن لسنا أقربائه. لا تستطيعين البقاء هنا ولا تستطيعين المجيء إلى الحرب معي. لا أريد أن أعيدك إليهما، عمك وعمتك في الريف، لكن لا خيار آخر أمامي. إنهما يعلمان الآن أني سأعود لأخذك وسوف يعاملانك معاملة أفضل».

لم تفهم كيف قرّر أن يعيدها إلى هناك، بعد كل ما قاله وبعد أن علّمها أن ترى قسوة حياتها معهم. لم تستطع الكف عن البكاء. احتضنها إلياس وربّت رأسها، وهمس يطمئنها ويهوّن عليها. سمح لها تلك الليلة أن تشاركه فراشه، ونامت وهي تنصت إلى حكاياته عن المدرسة في البلدة الجبلية. كانت تعلم أنه يود المغادرة في أقرب وقت، ولم تشأ أن يكرهها ولا يعود إليها فكفّت عن

البكاء حين طلب منها. حاكت الأختان لها فستانًا هدية وداعها، وأهدتها أمها أحد أوشحة الكانغا التي كانت تلبسها. قالت الأختان إنها ستكون سعيدة جدًا في الريف بلا شك، واكتفت عافية بالموافقة. لم تخبرهما أي شيء عن عمها وعمتها هناك - أمرها إلياس ألا تقول - ولم تخبرهما كم أنها تخشى العودة إليهما. ذهبا كذلك لوداع خليفة وبي عائشة. وقد وصل إلياس أمر التكليف بالذهاب إلى دار السلام للتدريب.

قال خليفة صديق أخيها للصغيرة: «لا أدري لِمَ انضم أخوك للجيش بدلًا من بقائه هنا ورعايتك. هذه الحرب لا علاقة له بها. وسوف يقاتل بجانب عساكر مجرمين أيديهم ملطخة بالدماء منذ سنين. اسمعي يا عافية، إلى أن يعود أخوك يجب أن تبلغيني إن احتجتِ إلى أي شيء. ابعثي رسولًا لي إلى مكان عملي، عناية التاجر بياشارا. هل تستطيعين تذكر الاسم؟».

قال إلياس: «تستطيع الكتابة».

قال خليفة: «في هذه الحالة أرسلي لي رسالة». ضحك الصديقان وهما يودّعان بعضهما.

تمت الترتيبات كلها خلال بضعة أيام، وسرعان ما وجدت نفسها في بيت عمها وعمتها في الريف. جمعت حاجياتها القليلة في صرة صغيرة من قماش: الفستان الذي خاطته الشقيقتان، والكانغا القديم هدية الأم، ولوح صغير ورزمة من قصاصات الورق أحضرها أخوها من العمل كي تتدرب على الكتابة بها. عادت إلى النوم على الأرض عند مدخل البيت، في ظل التل. عاملتها عمتها كأنها لم تغب إلا أيامًا قليلة، وأمرتها بتولي مهامها السابقة كما كانت تفعل في الماضي. قابلها عمها بالتجاهل. تشمّتت الابنة زوادي وقالت: عادت إلينا عبدتنا، لم يحتملها ذاك الأخ الكبير في البلدة. والابن عيسى بدأ يفرقع أصابعه في وجهها كلما أراد أن يناديها كما يفعل أبوه. كل

شيء أسوأ قليلًا من الماضي، والألم الذي أحسته أعظم. أمرت نفسها أن تحتمل لأن أخاها طلب منها أن تحتمل حتى يرجع رجعة لا فراق بعدها. كثر تأفّف عمتها منها أكثر من ذي قبل، وكذلك تذمرها من بطئها في تنفيذ مهامها، ومن تكاليف إيوائها رغم أن أخاها أعطاهما المال الكافي لرعايتها. بلغ الابن في ذلك الوقت السادسة عشرة، وكان أحيانًا يلتصق بها ويقرص حلمتيها عندما لا يراه أحد، وهي لا تستطيع الهرب في كل مرة.

في ساعات العصر الحارة الميتة بعد بضعة أيام من عودتها للعيش معهم، رأتها عمتها تجلس في الفناء الخلفي تتدرب على الكتابة على لوحها. كانت عمتها قد استيقظت للتو من قيلولة ما بعد الغداء متجهة إلى الحمام. نظرت إليها في البداية دون أن تنطق، ثم دنت منها. لمّا رأت أن العلامات التي تخطها ليست خربشات، أشارت إلى اللوح وسألت بحدة: «ما هذا؟ أتكتبين؟ ماذا كتبت؟».

قالت عافية وهي تشير إلى كل كلمة على حدة: «جانا، ليوي، كيشو». أمس، اليوم، غدًا.

بدا على العمة الانزعاج والاستنكار لكنها لم تقل شيئًا. تابعت طريقها إلى الحمام وأسرعت عافية في إخفاء لوحها، محذّرةً نفسها أن تتدرب خفيةً في المستقبل. لم تذكر عمتها اللوح لكنها أخبرت زوجها بالأمر. في اليوم التالي بعد أن تناول غداءه، وقد أحسّت عافية بتوتر غير معتاد بين أفراد الأسرة أثناء تناول الطعام، فرقع أصابعه في وجه عافية وأشار إلى الحجرة الصغيرة. لمحت وهي تستدير طائعة ابتسامة تشفٍّ على وجه الابن. كانت في الحجرة وجهها تجاه الباب عندما دخل عمها والعصا بيده اليمنى. أوصد الباب وحملق بها لحظة والتقزز بادٍ على وجهه. «سمعت أنك تعلمت الكتابة. لا أحتاج إلى أن أسألك من علّمك ذلك. أنا أعلم بالضبط من فعل، شخص

بلا أي حس للمسؤولية. لا، بل شخص بلا حس ولا عقل على الإطلاق. ما حاجة فتاة إلى الكتابة؟ حتى تكتب لقوّادها؟».

تقدّم منها وصفع صدغها بيده اليسرى، ثم نقل العصا إلى هذه اليد وصفع وجهها ورأسها باليمنى. جعلتها الضربات ترنح وتتمايل ما بين زمجرته وصراخه. ثم توقف قليلًا بصمت قبل أن يهجم عليها بالعصا، وقد تعمّد ألا تمسّها أول الأمر بل تضرب الهواء من حولها. صرخت مرتعبة وفعلت ما بوسعها للفرار منه، لكن الحجرة صغيرة وقد أقفل الباب. لا مكان للاختباء منه، فركضت وانحنت وأخفضت رأسها وأصابتها من الضربات ما أصابها. وقعت معظمها على ظهرها وكتفيها فجعلتها ترتجّ وتصرخ، ولكنها في النهاية تعثّرت ووقعت على الأرض. عندما وقعت رفعت يدها اليسرى لتحمي وجهها، فهبطت العصا الغليظة عليها بقوة ساحقة. انحبست أنفاسها من فجأة الألم وشهقت من وقع الصدمة، حتى خرجت منها صرخة مزّقت أحشاءها. انبطحت عند قدميه، تصرخ وتنتحب، وهو في سورة غضبه يلطمها ولا أحد تدخّل لمنعه. فلما أفرغ غلّه فتح الباب وترك الحجرة.

بعد هذا، أحست من بين نواحها ونشيجها أن عمتها دخلت إلى الحجرة، وخلعت عنها فستانها الذي بالت فيه ونظفتها. ثم غطّتها بملاءة وظلّت تتمتم تسري عنها حتى أغشي عليها. لا شك أن إغماءها لم يستمر إلا دقائق لأنها رأت أن النور ما زال ساطعًا عبر النافذة عندما أفاقت وأن الحجرة تنبض بالحرارة الخانقة. ظلت مضطجعة طوال العصر في هذيان منتحب، أحيانًا تنتبه إلى أن عمتها جالسة عند الجدار القريب. أخذت الطفلة في المساء إلى المداوية كي تعصب يدها، فقالت المغانغا للمرأة: «عيب عليك. كل شخص في القرية سمعه وهو يصرخ ويضرب الطفلة. كأنه مجنون».

قالت عمتها: «لم يقصد أن يوجعها إلى هذه الدرجة. كانت مجرد حادثة».

ردت المغانغا: «أتظنين أنكما لن تُحاسبا؟».

فعلت المداوية كل ما تعرفه في محيط علمها، لكن اليد لم تُشفَ بشكلها السليم. لكن لعافية يدًا ثانية، وبعد مرور بضعة أيام على حادثة الضرب كتبت رسالة على قصاصة ورق إلى الرجل الذي صادقه أخوها في المدينة. وجّهت الرسالة إلى بوانا بياشارا كما قال لها أن تفعل إن احتاجت إلى المساعدة. كتبت: كانياموزي، نيسائديه. عافية. لقد آذاني، ساعدني. أعطت الرسالة إلى صاحب المحل، فقرأها وطوى الورقة وسلّمها إلى سائق العربة المتجهة إلى الساحل. عاد سائق العربة الذي أوصل الرسالة ومعه صديق أخيها. كان قد دفع له مالًا كي يرجع اليوم التالي. ما زال جسمها متورمًا في كل مكان من الكدمات واليد المكسورة، وكانت تجلس على عتبة الباب تحدّق في التل عندما توقفت العربة أمام البيت. أرشدهما صاحب المحل إلى موقع البيت. كان عمها في العمل لكنه لم يأتِ. لا بد أنه علم من الذي وصل. فالقرية صغيرة. عندما رأت صديق أخيها وقفت.

قال: «عافية»، ثم هرع إليها وتفحص حالها. أخذ يدها السليمة بيده وسار بها إلى العربة دون أن ينطق بكلمة.

قالت: «انتظر». جرت إلى داخل البيت والتقطت صرتها الموضوعة على أرض المدخل حيث تنام.

ظلت عافية مدة طويلة لا تذهب إلى أي مكان خوفًا من أن يأتوا لأخذها. كانت تخاف من الجميع، إلا من صديق أخيها الذي أنقذها والذي طلب منها الآن أن تناديه بابا خليفة، ومن بي عائشة، التي أطعمتها عصيدة القمح وحساء السمك كي يقوى جسمها، والتي تسميها الآن بي مكوبوا، أي السيدة الكبيرة. كانت واثقة لو لم يأتِ بابا لَقَتلها عمها عاجلًا أم آجلًا، وإن لم يفعل فابنه سيقتلها. لكن بابا خليفة جاء.

اثنان

3

اختاره بعينيه خلال تفتيش الجنود في أول صباح. الضابط. كان هذا في المعسكر - البوما - حيث أُخذوا للانضمام إلى المجنّدين الآخرين الذين حُشدوا قبل هذا. خلال المسيرة من المحطة إلى البوما ما فتئ مرافقوهم يعنّفونهم ويسخرون منهم ويستعجلونهم، أمامهم وخلفهم وأحيانًا بجانبهم. قالوا ما أنتم إلا واشينزي [بربريون]. علف منتن للحيوانات المتوحشة. لا تتبختر بوركيك كالشوغا [المخنث]. نحن لن نأخذكم إلى ماخور. قوّموا أكتافكم يا أوباش! سيعلّمكم الجيش كيف تتصلب ظهوركم.

تعددت أسباب وجود المجنّدين المشاركين في المسيرة: بعضهم متطوعون، وبعضهم تطوّع بهم كبار السن من قبائلهم تحت الضغوط، وآخرون منقادون كرهًا بسبب الظروف، وغيرهم ممن وجده العساكر في الطريق. كان الشوتزتروبه في طور التوسّع ويرحب في صفوفه بأي رجال مقاتلين. بعضهم كانوا يتحدثون بلا قيود، مفاخرين بالانضمام إلى هذه القوة، معتادين على هذه الأعمال، يضحكون على كلمات التعنيف من أفواه مرافقيهم، متشوّقين إلى لحظة السماح لهم بالانطلاق بالتعنيف بألسنتهم. آخرون كانوا صامتين قلقين، ولربما كانوا أيضًا خائفين، لا يعلمون ما نهاية هذا الطريق. حمزة من هذه الفئة، يلعن نفسه صمتًا على ما فعله. لا أحد أجبره، هو من تطوّع.

انطلقت المسيرة من مركز التجنيد مع انبلاج الضوء. لم يكن يعرف أحدًا ولكنه سار مع الآخرين، وقد أحسّ بشجاعةٍ من غرابة هذه الظروف،

خروجهم من الفجر ومسيرتهم إلى معسكر التدريب لبداية المغامرة. قاد الرجال الأقوياء الأشدّاء المسيرة، بخطوات واسعة واثقة، جارّين الآخرين خلفهم. شرع أحدهم يغني بصوت عميق، وردّد من يعرفون لغته الأغنية معه. قدّر حمزة أنها لغة الوانياموزيزي لأن ملامح الرجال توحي بأنهم من تلك القبيلة. ابتسم بعض مرافقيهم، وكانت ملامحهم هم أيضًا توحي بأنهم من الوانياموزيزي، بل وردّدوا معهم بعض الأحيان. مرّت لحظات ركود ثم صدح آخر يغني أغنية أخرى بالسواحلية. لم تكن أغنية حقيقية، بل هي أقرب إلى الحوار المنشد، بإيقاعات سريعة تساير خطوات المسيرة، وفي نهاية كل عبارة ردٌّ قوي:

تو ميفانيا فونغو نا جورماني، تياري.

تياري!

أسكاري و بلوزي و مداتشي، تياري

تياري!

توتامبغانيا بلا هوفو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بلا هوفو!

توتاواتيشا أدوّي وجي هوفو

وجي هوفو!

غنّوا مبتهجين، تخالط كلماتهم سخرية من أنفسهم بضربات على صدورهم:

انضممنا إلى الألمان،

نحن مستعدون!

نحن جنود حاكم مداتشي،

نحن مستعدون!

سنقاتل لأجله بلا خوف،

بلا خوف!

سنرعب أعداءنا ونزرع بينهم الخوف،

سنزرع الخوف!

ضحك مرافقوهم معهم وهم يغنون هذه الكلمات المتوعدة وأضافوا عبارات فاحشة من تأليفهم.

ولكن وهم يتوغلون في الأرياف، والحرارة تحبس أنفاس حمزة والشمس تشوي عنقه وكتفيه، والعرق يسيل على وجهه ويتقاطر على ظهره، عاد القلق يساوره. كان تطوّعه للتجنيد وليد اللحظة، هربًا من ظروف لا تُطاق، لكنه كان جاهلًا لأي شيء باع نفسه، وهل سيقدر على ما يتطلبه الأمر منه. لم يكن جاهلًا بالناس الذين اختار الانضمام إليهم. كل إنسان يعرف من هو جيش العساكر، الشوتزتروبه، ومدى وحشيتهم في قتال الآخرين. كل إنسان يعرف سمعة الضباط الألمان قساة القلوب. هو من اختار أن يكون أحد جنودهم، رغبةً في الهرب، وبينما هو يسير متفصدًا بعرقه، وهم يسيرون بطول الطريق الترابي في الرمضاء، فارت في نفسه مخاوفه مما فعل حتى إن أنفاسه تتسارع ذعرًا.

توقفوا لشرب الماء وتناول حبات التين والتمر المجففة. مرّوا على طرق كثيرة متفرّعة من الطريق الرئيس إلى قرى وراء حواجز من الغطاء النباتي، لكنهم لم يصادفوا أي شخص. كأن الناس مختبئون عمدًا عن الأنظار. في أحد الطرق الفرعية مرّوا بمنطقة براح صغيرة تحت ظل شجرة تمر هندي وارفة،

وفي المكان سلال موز، وكومة من الكسافا، وسلة خيار وأخرى طماطم. من الواضح أن أهل السوق أخلوه في عجالة. لا بد أن الناس تفاجأوا باقترابهم ولم يتسنَّ لهم جمع بضائعهم قبل الفرار، فاختاروا التراجع السريع. كلهم يعرفون أن فرق التجنيد تجول في الأرياف.

أمرهم مرافقوهم بالتوقف هناك ونادوا أصحاب البضائع كي يظهروا، لكنهم لم يفعلوا. فوزّع المرافقون الموز على المجنّدين، الموز لا غير، وهتفوا بالتجار المختبئين أن يقدّموا الفاتورة إلى حاكم القيصر. لم يسمح المرافقون قط بأن يغيب المجنّدون عن أبصارهم. كانوا يأمرونهم بأن يقضوا حاجتهم في طرف الطريق على مرأى من الجميع، ستة مجنّدين في كل مرة، سواءً احتاج المجند أن يقضي حاجته أم لا. ضحك المرافقون: كي تتعلموا الانضباط. أخرجوا هذه القذارة من أجسادكم قبل أن نصل إلى البوما، وغطّوها بالتراب بعد ذلك.

ظلوا في مسيرتهم طوال اليوم، بعضهم حفاة وآخرون يرتدون نعالاً من جلد. قال مرافقوهم: الألمان هم من مهّدوا هذا الطريق كيلا تعانوا عند قطع الأدغال. كي نوصلكم يا أولاد الكلاب إلى هناك مرتاحين. ما إن حلّ العصر حتى كانت ساقا حمزة وظهره في ألم عظيم، لا يحرّكهما إلا تكرار الخطوات والسليقة، لا خيار إلا المضي قدمًا. لم يستطع لاحقًا تذكر المراحل الأخيرة من المسيرة، ولكنه يتذكر أن المجنّدين انتعشوا عندما قال مرافقوهم إنهم اقتربوا من الوجهة، كأنهم مواشٍ اقتربت من حظائرها.

بلغوا المعسكر وقت الغسق، عابرين ضواحي قرية كبيرة احتشد أهلها لشهود مرورهم. تبعتهم الهتافات المشجّعة وبعض الضحكات حتى عبروا بوابات المعسكر بجدرانه العالية. على طول الطرف الأيمن من المعسكر مبنى طويل مبيض بالجص. لكل غرفة في الطابق العلوي – وبعضها مضاء

بالمصابيح - شرفات تطل على ساحة العرض المفتوحة. وفي الطابق الأرضي تحتها صف من الأبواب المغلقة. ومبنى ثانٍ أصغر على الجانب البعيد من الساحة المفتوحة المواجهة للبوابة. وله كذلك طابق علوي مضاء في العتمة. أما الطابق الأرضي ففيه باب واحد ونافذتان، جميعها موصدة. على شِمال ساحة العرض الشاسعة مخزنان مفتوحان، وبعض حظائر الحيوانات. وفي الزاوية القريبة من البوابة مبنى صغير ذو طابقين، تبيّن لاحقًا أنه الحجز. إلى هناك سيقوا داخلين إلى حجرة واسعة في الطابق الأرضي تنيرها مصابيح متدلية من دعامات السقف. كان الباب المؤدي إلى الأعلى مغلقًا ولكن باب مهجعهم مفتوح وكذلك الباب الرئيس الأمامي. بقي العسكري الذي رافقهم في المسيرة معهم، ما زال يراقبهم، وإن كانوا لا يقدرون التحرك إنهاكًا بعد طول المسير. بلغ إرهاقهم أنهم لم يلاحظوا الاستهزاء والتعنيف، اكتفوا بالجلوس قرب الباب في انتظار الفرج.

ضمّت مجموعتهم ثمانية عشر مجندًا، متعبون متعرقون صامتون الآن في الزنزانة المزدحمة. تبلّد كل ما في حمزة من الجوع والنَصَب، قلبه يخفق سريعًا في ابتئاس لا حيلة له فيه. أحضرت ثلاث عجائز من القرية قدرًا فخارية من الموز المغلي بقطع الكرش، واجتمع المجنّدون حول القدر للأكل ما استطاعوا، أيديهم تمتد وتتراجع تلتقط اللقمات قبل أن ينتهي الطعام. عندما جاء الحرس المناوب أخذوا المجنّدين إلى الظلام واحدًا تلو الآخر لاستعمال الدلو وهو المرحاض في حمام مقام على أحد جوانب الحجز. بعد ذلك اختار الحراس مجنّدَين اثنين لتفريغ فضلات الدلو في بالوعة خارج البوابة.

قال أحد الحراس: «بوما لا مزونغو. كيلا كيتو صافي. هتاكي مافي يونو نداني يا بوما لاكي. هابانا روهوسا كوفانيا مامبو يا كيشينزي هابا». هذا معسكر البيض. كل شيء نظيف هنا. الأبيض لا يريد قذارتك داخل البوما.

ليس من المسموح أن تتصرفوا تصرفاتكم البربرية هنا.

أُغلقت بوابات البوما بعد ذلك. كان الوقت حينئذ ليلًا وإن بلغتت سمع حمزة أصوات بعيدة من القرية خارج الأسوار، ومن ثم سمع مندهشًا المؤذن يؤذن في الناس لصلاة العشاء. رأى حمزة بعد حين من خلال باب الحجز المفتوح فوانيس زيت تتحرك في الظلام عابرةً ساحة العرض لكن لم يدنُ أيٌّ منها نحوهم. عندما استيقظ في إحدى ساعات الليل رأى المبنى المجصص يلمع في الظلام. لم يكن للحراس أثر. كأن لا أحد يراقبهم. ربما كانوا في الخارج يتربصون بأي شخص يجرؤ على عصيانهم، أو ربما كانوا موقنين أن لا مكان آمن يلجأ إليه الواصلون الجدد في هدأة الليل.

صُفّ المجندون في الصباح للتفتيش مواجهين المبنى الأبيض الطويل. رأى حمزة في ضوء النهار أن للمبنى سقفًا من صفيح مطلي باللون الرمادي وشرفة خشبية عالية تمتد على طول الواجهة الأمامية. ورأى أن الأبواب المغلقة التي رآها في الغسق أمس إما مكاتب أو مخازن. عدّها فوجد أنها سبعة أبواب وثماني نوافذ مغلقة. أما الأبواب والنوافذ في منتصف المبنى فهي مشرعة. نُصبت سارية العلم بالقرب من منتصف ساحة العرض المفتوحة، التي عرف حمزة فيما بعد أن اسمها بالألمانية (Exerzierplatz).

مشى الأونباشي النوبي الذي أيقظهم وسيّرهم إلى ساحة العرض معهم، مرةً أمامهم ثم خلفهم، ينخسهم في صمت بعصا الخيزران الغليظة ليسوّي الصف. كلهم حفاة حتى الذين جاءوا المعسكر بنعالٍ، يرتدون ملابسهم العادية، بينما الأونباشي في زيه العسكري الخاكي، والحزام الجلدي تتدلى منه أجربة الذخيرة، والحذاء الطويل المرصّع، والطربوش ذي شارة النسر في المقدمة، ومنديلٌ يظلّل رقبته في المؤخرة. كان رجلًا متقدمًا في السن، حليق الذقن، ممشوقًا ذا عضلات وإن ظهرت بوادر كرشة صغيرة. أسنانه مصطبغة

بالبني المحمر ككل ماضغي القات. وجهه ملتمع كظيم قاسٍ، بندبتين على الصدغين، وجه العسكري النوبي المرعب.

عندما أتمّ الأونباشي ترتيب الصف حتى انتظم واستقام، استدار إلى الضابط الذي ظهر من الباب المفتوح في المكتب الأوسط في المبنى الذي اصطفّوا أمامه. شدّ الأونباشي ظهره وهتف أن الخنازير جاهزون للتفتيش. هاوا شفاين تياري. لم يتحرك الضابط - الذي يرتدي الخاكي كذلك مع الخوذة - على الفور بل اكتفى برفع عصا السير إشارةً إلى أنه سمع الأونباشي. وبعد التباطؤ المتعمد حفاظًا على هيبته نزل من الشرفة تجاه المجندين. حدّق نظره إلى أحد طرفي الصف وسار متمهلًا، وكان يتوقف ممعنًا في فحص بعض الرجال دون أن يتكلم. نقر أربعة رجال منهم بعصاه. قد أمرهم الأونباشي أن يقفوا بلا حراك وأن ينظروا إلى الأمام، وألا ينظروا مباشرةً إلى الضابط الألماني مهما حدث ومهما قال. عرف حمزة أنه اختاره بعينيه قبل أن يدنو منه. رأى هذا قبل حتى أن يتحرك الضابط من الباب - الضابط النحيل الحليق - فأحس بارتعاشة تغشاه عندما وقف أمامه. لم يكن طويلًا كما توحي وقفته على الشرفة لكنه كان أطول من حمزة. لم يقف أمام حمزة سوى ثوانٍ قليلة ثم واصل التفتيش، لكن حمزة رأى دون أن ينظر أن عينيه قاسيتان شبه شفافتين. فاحت من ورائه رائحة دواء لاذعة.مكتبة سُر مَن قرأ

أُرسل أربعة منهم إلى مكتب فيلق العمل ليكونوا حمّالين أو من حملة نقالات المرضى، الأربعة الذين نقرهم الضابط بعصاه وهو يتفحصهم. ربما كانوا كبارًا في السن أو رأى أن حركتهم بطيئة، أو ربما لم يستسغ منظرهم. ترك البقية بإمرة الأونباشي. عاد الخوف والقلق يرافقان حمزة، وفكّر ما إذا كان يتمنى فيلق العمل على مكانته المنحطة في الجيش. كان يعلم أن ما هذا إلا تأثير جبنه. لم يكن الحمالون بمنأى عن مشاق الحياة العسكرية، بل إنهم

كانوا حفاة يرتدون الأسمال والجميع يعاملهم بالازدراء. أُمر المجندون الجدد بالسير بضعة أقدام ثم الجلوس على الأرض أمام المبنى الأصغر، وقد أصبح باب الدور الأرضي مفتوحًا الآن. أما الباب الآخر في الطرف البعيد من المبنى فموصد بأقفال من أعلاه وأسفله.

لا توجد أية أشجار في أي مكان بالقرب من الجدار المحيط، ولا ظل في ساحة العرض. صحيح أن الصباح ما زال في أبكر ساعاته ولكن الجلوس بلا حركة جعل الشمس التي بدأت تحتمي تلفع رقبة حمزة ورأسه بلا رحمة. مرّت الدقائق الثقيلة حتى خرج ضابط ألماني ثانٍ من المبنى، يتبعه رجل بالزي العسكري يقف وراءه بخطوة أو خطوتين. كان هذا الضابط الألماني مكتنزًا يرتدي بنطالًا يصل طرفاه حد ركبتيه، وسترة طويلة كثيرة الجيوب. في أعلى عضده الأيسر يضع رباطًا أبيض عليه صليب أحمر. بشرته متوردة وله شارب أشقر نحاسي ضخم، وشعر رأسه أشقر خفيف منحسر عن جبهته، وباجتماع البنطال القصير وحجم جسمه وذاك الشارب صارت له هيئة هزلية مضحكة. ظل ينظر إليهم مطوّلًا، ثم أمرهم بالوقوف، ثم أمرهم بالجلوس، ثم أمرهم بالوقوف ثانيةً. ابتسم، وقال شيئًا للرجل الواقف خلفه ثم عاد إلى الداخل. أومأ المعاون الذي يرتدي كذلك رباطًا أبيض ذا صليب أحمر برأسه للأونباشي ثم دخل العيادة. دخل المجندون بعد ذلك العيادة كلٌّ على حدةٍ لإتمام الفحص.

لّما حان دور حمزة دخل إلى غرفة ذات تهوية وإضاءة جيدتين، وفيها ستة أسرّة خالية مرتبة. في أحد طرفيها حجرة الفحص الصغيرة المفصولة بحاجز عن بقية المكان، وفيها طاولة قابلة للطي مثبتة في جانب، وسرير الفحص في الجانب المقابل. كان المعاون نحيفًا قصيرًا، على وجهه المسفوع بالشمس سيماء الخبرة والحذر، ابتسم له وسأله بالسواحلية عن اسمه وسنه

ومسقط رأسه ودينه. تحدّث مع الضابط بالألمانية، ونبرة صوته تنبئ بتشككه بالمعلومات التي ينقلها. فكّر الضابط بالتفاصيل وهو يسمعها ونظر إلى حمزة كأنه يتأكد من صحتها قبل تدوينها في بطاقة. كذب حمزة في إجابته عن سنّه، مدّعيًا أنه أكبر مما كان في الواقع.

قال المعاون بالسواحلية: «سُروالي»، أي البنطال، فنزعه حمزة في تردد. قال الضابط: «Haya schnell». هيّا، أسرع. لأن حمزة كان بطيئًا. انحنى الضابط إلى الأمام بمشقةٍ وتفحّص عورة حمزة، فإذا به بحركة سريعة من يده يصفع خصيتيه صفعة خفيفة من أسفل. قهقه عندما جفل حمزة، والتفت يشارك معاونه الابتسامة. انحنى بعد ذلك ثانيةً، وبلطفٍ أخذ يعصر قضيب حمزة عدة مراتٍ بكفه حتى بدأ ينتصب. «إنفانيا كازي»، قالها لمعاونه - يعمل جيدًا - لكن الكلمات خرجت متكسّرة، كأنها ثقيلة في فمه أو أن في لسانه عاهة. ترك القضيب أخيرًا كأنه مُكرهٌ. ثم فحص الضابط عيني حمزة، وجعله يفتح فمه وأمسك برسغه بعض الوقت. أخذ حقنة من صينية معدنية، فتح أمبولة صغيرة ودسّ الإبرة في سائلها الثخين. حقن عضد حمزة بسرعة ثم وضع الإبرة في طبق آخر فيه سائل شفاف. أعطى المعاون حمزة حبة دواء وكأس ماء وأمره بابتلاعها. ابتسم لمّا ارتعد حمزة من مرارتها. كان الضابط في تلك الأثناء يدون المزيد من الملاحظات على بطاقته، ثم نظر إلى حمزة متأمّلًا بعض الوقت حتى صرفه بإشارة من يده، وهو يبتسم. وكانت هذه أول مقابلة مع الطبيب العسكري.

تسلّم كل مجند زيًّا وحزامًا وحذاءً طويلًا وطربوشًا. قال الأونباشي: «أنا الجيفرايتر حيدر الحامد وأنا الأونباشي الذي سيدرّبكم على العسكرية. تلتزمون الأدب دائمًا وتطيعوني. أنا حاربت في الشمال والجنوب وفي الشرق والغرب، مع الإنجليز والخديوي والآن مع القيصر. أنا رجل عندي شرف

وخبرة. أنتم خنازير إلى أن أعلّمكم العسكرية. أنتم واشينزي مثل كل المدنيين إلى أن أعلّمكم العسكرية. تذكروا كل يوم أنكم محظوظون لأنكم في العسكرية. الاحترام والطاعة وإلا والله - سوف أريكم. أونافهامو؟ فهمتم؟ كلكم قولوا معًا: نديو بوانا. نعم سيدي. الآن، هذا الزي، هذا الحذاء، هذا الحزام، هذا الطربوش... أهم شي عندكم. تلبسونها جيدًا وتحافظون على نظافتها. تنظفها كل يوم، هذا أول واجباتك، بالعسكرية. كل يوم يجب تفحص زيك وحذاءك وحزامك، وكل شي... لا بد تفحصه. إذا لم يكن نظيفًا سوف تنال كيبوكو نا ماتوسي [السوط والإهانة] أمام الجميع، خمسة وعشرين. أتعرفون ما هذه؟ خمسة وعشرون جلدة عصا على مؤخرتك السمينة. لما تصل إلى عسكري خاص سوف تلبس طربوش مثل طربوشي. سوف أعلمكم وتحافظون على كل شيء نظيف وإلا والله - سوف تعلمون. حافظ على عدتك نظيفة. أونافهامو؟»

«نديو بوانا».

أوضح بالتفصيل طريقة ارتداء كل قطعة والمحافظة عليها. كان يتكلم بجفاء بلغات مختلفة، سواحلية وعربية وبعض الألمانية، جميع عباراته مكسّرة وغير مكتملة. وعزّز شرحه بالإشارات والإيماءات التي يستحيل عدم فهمها، وأعاد كلامه حتى أومأوا جميعًا بأنهم فهموا. نديو بوانا. «شاباش. أحسنتم. هذه هي لغة المعسكر، أونافهامو؟» ولوّح الأونباشي بعصاه في الهواء أمامهم. «إذا لم تفهموا شيئًا هذه تفسّر لكم».

كان مهجعهم ثكنة في القرية قريبة من أسوار البوما. بعد أول صباح انقلبت حياتهم إلى تدريب يومي حد الإنهاك، يبدأ من صوت النفير مع خروج الضوء حتى الظهر. أُقيمت التدريبات داخل البوما بقيادة الأونباشي النوبي الجيفرايتر حيدر الحامد أولًا، ثم بقيادة الشاويش الأونترأوفيتسير علي

نقورو حسن، وهو نوبي كذلك، رجل عبوس متقشف يصعب إرضاؤه. بعد أن قضوا في تدريباتهم أيامًا عديدة التقوا بضابط الصف الفيلدفيبل الألماني فالتر.

كان الفيلدفيبل طويلًا قوي البنية، ذا صوت جهوري هادر. شعره داكن وشاربه كبير وعيناه بنيتان تجحظان عندما يغضب أو ينزعج. شفتاه تلتويان ازدراءً مع كل كلمة تخرج منهما. دائمًا ما تتطلب جولاته التدريبية همّة ونشاطًا، يخرجون منها بإرهاق شديد، ولا يفتأ يجد في أدائهم ما يثير سخطه عليهم. عندما يتولى التدريب يدفعهم إلى بذل أقصى جهودهم، يداه مثبتتان على خصره وهو يكيل عليهم أقذع الشتائم، التي تنهمر من فمه كما تنهمر ماء المجاري من البالوعة. حتى عندما يصمت لا يكاد يستطيع كتم غيظه. كان هو التجسيد الحي لكل ما تصوّره حمزة في الضابط الألماني. لا تفارقه أبدًا عصا السير التي يخبط بها ساقه اليمنى إذا نفد منه الصبر، بقوةٍ لا شك موجعة أحيانًا. وأحيانًا لا يستعمل العصا إلا للإشارة أو للتلويح في عنف متى ما غلى مرجل غضبه بما لا يقدر على كتمه. لا تسمح كرامة أي ضابط ألماني بضرب عسكري، لذا كان يتوقع أن يبادر الأونباشي الحاضر في كل جولة تدريب بالضرب متى ما احتاج إلى التأكيد على أوامره.

يبدأ اليوم بجرعة من الكينين تتبعها تدريبات المسير والزحف التي تمتد إلى ساعات. هتف الفيلدفيبل أن العرض الممتاز من أساسيات الشوتزتروبه، وأن انضباط المسيرة أهم عناصره. تعلّموا كيف يخطون الخطوة العسكرية، ولاحقًا كيف يسيرون أمام بعضهم البعض، أفرادًا ثم مجموعات، بينما الأونباشي أو الشاويش أو الفيلدفيبل يلقي أوامره ويرسل شتائمه. بعد ذلك تعلّموا استعمال أسلحتهم، كيف ينبطحون على الأرض استعدادًا للرمي، وكيف يطلقون الرصاص ويصيبون الأهداف، وكيف يتحركون

بسرعة لإعادة التلقيم. عساكر شوتزتروبه لا يتراجعون إلا عندما يُؤمَرون بالتراجع، ولا يفزعون عند الهجوم، وهم ثابتون في كل الظروف. أونافهامو؟ كل أمر يصدر بزعيق يصحبه سباب. نديو بوانا. كل خطأ يُعاقب عليه بالعنف الجسدي أو العمل الشاق، حسب فداحته. العقاب علني ومستمر، وكلما مرّت بضعة أيام تُستدعى الفصيلة بأكملها، المجندون والعساكر المخضرمون معًا، للسير إلى البوما وشهود الخمسة وعشرين جلدة، وهو عقاب علني لمرتكب أي جنحة، وهي غالبًا لا تستحق هذا الإذلال الفظيع. الهدف منه هو ضمان طاعتهم وتعزيز شجاعتهم كما أخبرهم الأونباشي. ومَن ينفّذ حكم الجلد دائمًا ما يكون عسكري إفريقي، لا يفعلها ألماني أبدًا.

في أواخر ساعات العصر ينصرفون إلى ترتيب البوما وثكناتهم، ويؤدون الأعمال الأخرى الموكلة إليهم. وينظفون أسلحتهم وأحذيتهم وبذلاتهم العسكرية. كانت الجولات التفتيشية متكررة وكل شائبة تُنزل على المسؤول عنها العقاب، إما على الفرد أو المجموعة بأسرها أحيانًا. كانوا يمارسون التدريبات لتقوية أجسادهم، الجري والمسيرات المستمرة وتمارين بناء الأجسام. أتى معظم المجندين في مجموعة حمزة من المنطقة المجاورة فكانوا يفهمون بعضهم، ولكن ثمة لغات أخرى مسموعة في الفصيلة: غالبًا العربية، والوانياموزي، والألمانية. اختلطت مفردات هذه اللغات وعُجنت بالسواحلية فنتجت لغة كانت السائدة بين الفصائل.

نسي حمزة نفسه في ثنايا هذا الروتين القاسي. في قبضة الفزع الأول عندما انضمّ إلى العسكرية كان أخشى ما يخشاه أن يضعف أمام من هم أكثر خبرة واحتكاكًا بالعنف، من يتّخذون القوة والقسوة ديدنًا لهم. لكن سرعان ما رأى في مجموعته نظامًا قائمًا على القوة والمرونة. ومنهم اثنان يشع منهما الحماس والسلطة، كومبا وفُلاني، حتى رأى الجميع فيهم قائدين مجبولين

على القيادة. كان لفلاني خبرة عسكرية سابقة وإن لم تكن على مستوى الشوتزتروبه الرفيع. وهو من عشيرة الوانياموِيزي، وكان يعمل حارسًا في جيش خاص يحمي مصالح أحد التجار، وهذا التاجر هو من سمّاه فلاني لأنه كان ينسى دائمًا اسمه الوانياموِيزي. استعذب فلاني خفة اسمه وتسمّى به. أما كومبا فمفتول العضلات عظيم الثقة في نفسه، والرياضة تجري في دمه. كان هذان الاثنان يقودان كل التدريبات، ويتجرَّآن على مغازلة النساء اللائي يجلبن للعساكر الطعام، يتبادلان معهن التلميحات ويقطعان الوعود بالزيارة مساءً. أول من يُقدّم له الطعام هما، ولهما النصيب الأكبر. يثني الأونباشي عليهما دائمًا وينالان مديح الفيلدفيبل ثم أفظع شتائمه. كان كومبا يسخر من الفيلدفيبل في غيابه ويسمّيه جوغو، أي الديك. ويتبختر منتفخًا يقلّد مشيته كلما جاءت النساء. الكل يعلم أن تسلّط الفيلدفيبل على الرجلين، وتحديدًا كومبا، إقرار بتفوقهما على الفصيلة. لا مناص أمامه من التسلّط عليهما من أجل فرض سلطته دون الانتقاص منهما. حاول حمزة أن يذعن لهذا الترتيب ويجد مكانه فيه، كشأن بقية زملائه في الفصيلة.

لم يكن تفوّق فلاني وكومبا شأنًا ذا أهمية أو مشكلة في نظر حمزة لأن كثافة التدريبات والخوف العام من العقوبات كانا أكثر ما يشغل أذهان المجموعة. لا قِبَل لأحد بهدير وعنف الجيفرايتر أو الأونترأوفيتسير، وبالأخص الفيلدفيبل فالتر. لا يكلّم المجندون مدرّبيهم ولا حتى يخاطبونهم بالاسم، بل يطيعونهم على أكبر قدر من السرعة والخفة. وحده كومبا من يستطيع الإفلات مهما فعل لأنه لبق بصفاقة، يُشعِر من هو أعلى منه أنه لا يقصد الإساءة ولا يدرك إن بدر منه ما يزعج.

ومع هذا الروتين الصارم نما في نفس حمزة رضا لم يتوقعه عن قوته الجسمانية المتزايدة ومهاراته، فلم يعد يجفل من الصيحات: شفاين! خنازير.

واشينزي! بربريون، أو الكلمات الألمانية التي لمّا يفهم معناها بعد، التي يبصقها مدرّبوهم عليهم في كل حين. لم يتوقع شعوره بالفخر بانتمائه إلى المجموعة، دون أن ينبذوه أو يسخروا منه كما كان يخشى، بل يشاركهم التدريبات والعقوبات والإنهاك والتذمر، إحساسه بأن جسده أصبح أصلب وأسرع انصياعًا للأوامر، وأن يسير بالدقة التي لا يقبل مدرّبوه أقل منها. استغرق وقتًا حتى تعوّد رائحة الأجساد المنتنة الهاجعة في مكان واحد، والغازات التي تصدر عنها. والمشاكسات قاسية لكن الجميع يناله نصيب منها، وقد تعوّد حمزة على أن يحتملها دون إثارة مشاكل. وعندما بدأوا يتدربون على المناورات كان يلمح الخوف على وجوه القرويين عندما يرون العساكر مقبلين، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الانتفاض نشوةً أن أثار الرعب في قلوبهم.

ظلّ الضابط الأعلى خيالًا، لا يُرى إلا من بعيد بعد ذلك الصباح الأول. كان يطل أحيانًا ليراقب تدريبات الصباح التي غالبًا ما تتم في ساحة عرض البوما. لكن لم ينزل قط من الشرفة الخشبية العالية ولا يراقبهم مدة طويلة. كان في الغالب يقضي وقته خارج البوما في مناورات ميدانية مع الوحدات الاعتيادية. علموا لاحقًا من العساكر الآخرين أن هذه الرحلات الميدانية اسمها مهام «شوري»، وهي اجتماعات استشارية لتوضيح سياسات الحكومة أو إصدار الأحكام للبت في النزاعات أو تنفيذ العقوبات على القرى والزعماء المارقين. عندما انضمّت وحدتهم لمهمة شاوري لأغراض تدريبية ذات مرة أدرك حمزة أن لا شورى في الأمر على الإطلاق. فغاية هذه المناورات هي تأديب القرويين الواشينزي الأغبياء وإرهابهم وإجبارهم على طاعة التعليمات الحكومية دون تردد.

بعد أن قضوا في تدريباتهم عدة أسابيع نزل الضابط الأعلى من الشرفة

صباح أحد الأيام وتقدّم نحوهم. لا بد أن هذه اللحظة مدروسة من الجميع لأن ضبّاط التدريب الثلاثة حاضرون جميعًا، الجيفرايتر حيدر الحامد، والأونترأوفيتسير علي نقورو حسن، والفيلدفيبل فالتر. كانوا بكامل بهائهم العسكري مزينين بالنياشين، والضابط أيضًا بزي المرابط الأبيض اللامع. قد أوضح لهم الأونباشي أن الإعلان عمَن اختير من مجموعتهم للالتحاق بالتدريبات الخاصة في كتيبة الإشارة أو الفرقة الموسيقية سيكون أثناء هذا العرض. أحد أفراد مجموعتهم يعزف البوق، وإن لم يسمعه أحد منهم في الحقيقة، وكان ينوي تقديم طلب الانضمام إلى الفرقة الموسيقية. وطلب إذن الأونباشي في التقديم. ويتطلب التقدم بطلب الانضمام إلى كتيبة الإشارة إجادة القراءة، وكان حمزة يقرأ لكنه لم يتقدم بالطلب. هو من اختار ألا يتقدّم، شاغله ألا يجذب أي انتباه إلى نفسه، لكن الأونباشي حيدر رآه مرةً يتلو على الآخرين أخبار الصحيفة الحكومية السواحلية «Kiongozi» خلال إحدى استراحاتهم. ولما أوضح لهم عملية الاختيار التي ستجري أثناء العرض اختلس الأونباشي نظرة نحو حمزة وهو يذكر كتيبة الإشارة.

سار الضابط بخطوات متئدة بطول الصف، كما فعل ذاك الصباح الأول، بيد أنه هذه المرة كان يقف أمام كل واحد منهم يتفحصه بدقة. ولما فرغ وقف على مبعدة بضع خطوات أمام الفصيلة الواقفة في وضع الانتباه. نادى الفيلدفيبل اسم عازف البوق، وكان عبده، فتقدّم خطوتين إلى الأمام كما أُمر. ثم نادى اسم حمزة وفعل المثل. أدّى الضابط التحية وعاد إلى مكتبه. خرجت الفصيلة من المعسكر تاركة عبده وحمزة واقفين في ساحة العرض. أدرك الاثنان أن هذا اختبار وعقاب آخر، وأنهما إن تكلّما أو تحرّكا فسيقع عليهما عقاب شنيع وتضيع فرصتهما في التقدّم العسكري. رأى حمزة أن هذه نزوة وحشية لا طائل منها على الإطلاق، ولكن وقت الحكمة فات ولا خيار لديه إلا التحمّل.

من الصعب معرفة الوقت الذي قضياه واقفين في وضع الانتباه تحت أشعة شمس الضحى، ربما ربع ساعة، لكن الأونباشي حيدر دنا منهما وأمر عبده باللحاق به، ومكث حمزة واقفًا في الساحة وحده. ثم حان دوره، فسار بخطوة عسكرية أمام الأونباشي كما أُمر حتى بلغ باب المكتب المفتوح، وأصابه عمى مؤقت بسبب الظلام السائد داخلها. هنا تكلّم صوت من الداخل. كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها حمزة صوت الضابط، وأحسّ بصرامة الشخص في حباله الصوتية. دخل مكتبًا واسعًا له نافذتان في المقدمة وطاولة في المؤخرة تواجه الباب. وُضع كرسي أمام الطاولة، وثمة طاولة أصغر تُستعمل للرسم الهندسي ملاصقة بالجدار. كان الضابط جالسًا خلف مكتبه مسندًا ظهره إلى الكرسي. بدا وجهه أنحف دون الخوذة، وفيه تغضينة في الجلد فوق خده وصدغه الأيسر وتحت منابت الشعر. عيناه زرقاوان حادتا النظر.

بعد صمت طويل متعمد تكلّم الضابط بالألمانية وترجم الأونباشي: «الأوبرلويتنانت يسأل إن كنت تريد أن تكون جندي إشارة».

هتف حمزة: «نعم سيدي»، مخاطبًا الفراغ فوق رأس الضابط ومحاولًا إبداء ما يستطيع من التأكيد المقنع. لم يكن يدري ما إذا كان جندي الإشارة أكثر أمانًا من العسكري، لكن تلك اللحظة ليست لحظة الاختيار.

نطق الضابط كلمة. ترجم الأونباشي: «لماذا؟».

لم يفكر حمزة بإجابة عن هذا السؤال وإن كان ينبغي عليه أن يفعل. فكر قليلًا ثم أجاب: «لأتعلم مهارة جديدة وأخدم الشوتزتروبه قدر استطاعتي».

ألقى نظرة خاطفة على وجه الضابط فرأى أنه يبتسم. تلك المرة الأولى التي يرى فيها حمزة الابتسامة الهازلة التي سوف يعتاد رؤيتها فيما بعد. ترجم

الأونباشي ثانيةً: «أتجيد القراءة؟».

«أستطيع القراءة قليلًا».

ظهر التشكك على وجه الضابط وأمره أن يوضح. لم يعرف حمزة كيف يوضح. كان يعرف كل الحروف وبقليل من الصبر يستطيع تهجئة الكلمات إن كانت مكتوبة بالسواحلية. لم يكن يدري إن كان هذا ما يسأل عنه الضابط فظل ينظر فوق رأسه ولم يجب. تكلّم الضابط بالألمانية متأنّيًا ملتفتًا إلى الأونباشي الذي انتظر حتى أتمّ كلامه ثم ترجم. خرجت الترجمة بأسلوب النوبي الممسوخ باختلاطه باللغات الأخرى، ولأن حمزة كان يواجه الضابط لمح من طرف عينه امتعاضه كلما حاد الأونباشي وزاد. يقال إن الضابط أفضل من يتكلم السواحلية من الألمان أجمعهم.

«يقول الأوبرلويتنانت: لماذا لا تتعلم.. تقرأ أكثر؟ لماذا لا تقرأ كل شي مثل ما يقرأ هو؟ كل شي وضعه أمامك يا كلب ولا تعرف تقرأ. أنت لا تملك حضارة، لهذا أنت متوحش. يقول لا بد أن تتعلم.. ما الكلمة التي قالها... ريضة... شيء مثل ريضة. أنت لا تعرف هذا».

قال الضابط: «رياضيات».

قال الأونباشي: «نعم، ريضيات، أنت لا تعرف هذا يا كلب بربري».

قرر الضابط التصرف دون الأونباشي فسأل: «نيني جينا لا ماثماتكس كوال لوغا ياكو؟» ماذا تسمون الرياضات في لغتك؟ «هل تعلم ما الرياضيات؟ لا تستطيع فهم أي علم من العلوم دون الرياضيات، لا الموسيقى ولا الفلسفة، ناهيك بميكانيكيات الإشارات. أونافهامو؟».

زعق حمزة: «نديو بوانا».

«أنت لا تعلم حتى ما الرياضيات. جئنا إلى هنا كي نجلب لكم هذا،

الرياضيات والعلوم الذكية الأخرى التي لم تكونوا لتعلموها لولانا. مهمتنا هي تمدينكم... Zivilisierungmission». أشار بذراعه اليسرى تجاه النافذة يقصد البوما خارجها، والابتسامة التهكمية تلوي وجهه النحيل وشفتيه الرفيعتين. «هذه هي خطتنا الخبيثة التي لا يمكن حتى لطفل ألا يفهمها. أتينا إلى هنا كي نمدّنكم. أونافهامو؟».

«نديو بوانا».

كان الضابط يتحدّث السواحلية بحرص، يبحث عن المفردة الصحيحة، ولكنه بدا كأنه يمثّل بلغة لا يفهمها، كأنه يعرف كل الكلمات لكن الإحساس الذي تتضمنه غائب عنه، يريدها أن تنقل معاني لا تناسبها. في عينيه بريق متذبذب ما بين الفضول والاحتقار، يستشف دائمًا وقع كلماته على حمزة. وحمزة أيضًا كان يدرس ملامح الضابط دون النظر مباشرةً إليه. وقد علم فيما بعد أن تلكما العينين تحويان بريقَ نفسٍ قادرةٍ على أبشع أشكال العنف.

«لكني أظن أنك لن تتعلم الرياضيات أبدًا. فالعلم يتطلب كفاءة ذهنية لا تملكونها. انصرفا الآن». وأشار إليهما بالخروج من مكتبه.

علم حمزة في اليوم نفسه أنه كُلّف ليكون الخادم الشخصي للضابط، وصيفه، وأُمر بالحضور إلى مسكنه في الصباح المبكر ليتدرب على مهامه الجديدة على يد الوصيف المغادر. ورُفض طلبه للالتحاق بكتيبة الإشارة. لم يقولوا له السبب. لما علم المعسكر بوظيفته الجديدة بدأت موجات التهكم بقيادة كومبا.

قال: «أنت شوغا. لهذا اختارك. يريد جميلًا لينًا يدلك ظهره ويطبخ طعامه. وإذا اشتدّ البرد في الجبال فهو يريد من يدفئ فراشه ليلًا، كأنك زوجته. ماذا تفعل هنا؟ الكل يرى أنك أجمل من أن تكون عسكريًا».

قال فلاني: «هؤلاء الألمان، يحبون اللهو مع الشباب الجميلين، خاصةً إن كانوا مهذبين جدًا مثلك». ثم تكسّر بالقول وهو يمد يده: «كوا هيساني ياكو». إذا سمحت.

مدّ كومبا كفه يلاطف خد حمزة ويقول: «يا جمالك ولطفك يا حبيبي».

وتبع الآخرون الاثنين، ما بين تبختر وتمايل أنثوي والتظاهر بتقديم الأكل والتدليك. قال أحدهم: «وعندما يسأم الألماني منك تستطيع أن تأتي وتدلك ظهري». ظلّوا على استهزائهم مدة طويلة حتى ملّوا اللعبة وتركوه وشأنه. وفي أثناء ذلك كان حمزة ينكمش في ذلة وصمت، خائفًا من أن تصدق تنبؤاتهم حول ما سيحلّ به. كان يشعر أنه واحد منهم، شاركهم الشظف والعقاب، ولم يتحدث معه أحدهم بهذا الشكل المهين من قبل قط. كانوا كأنهم ينبذونه قسرًا من وسطهم.

4

لم يبلغهم أي خبر عن إلياس، لكن لا داعي للقلق كما يقول خليفة. «دار السلام بعيدة. ليس من المتوقع أن يصل إلينا أي خبر بهذه السرعة. سوف نسمع أخباره عندما يصل أحد من دار السلام أو ربما يبعث إلينا رسالة. سوف يتواصل معنا عاجلًا أو آجلًا».

كانت عافية في الأيام الأولى من استقرارها للعيش في بيت بي مكوبوا وبابا خليفة تنام على حشيَّة خفيفة من قطن القابوق على الأرض، في الغرفة نفسها التي ينامان فيها. ثمة حجرة في الفناء الخلفي تُستعمل مخزنًا. فيها سلة الفحم وبعض الأواني القديمة وقطع مختلفة من الأثاث التي يُرجى نفعها يومًا ما. قال خليفة إنه سوف ينظف الحجرة ويعدّها لها. كل ما تحتاج إليه طبقة من التبييض للقضاء على الحشرات وستكون بعدها مريحة لنومها. يوجد مخزن آخر في مقدمة المنزل وله بابه الخاص. قال خليفة: «يمكن أن ننقل الخردة إلى هناك. لا عجلة في الأمر. دعيها أولًا تعتاد وجودها بيننا. إنها مجرد طفلة. دعيها تتغلب على مخاوفها».

قالت بي عائشة: «إنها ليست طفلة»، لكنها لم تصرّ على الأمر.

كانت حرارة عافية مرتفعة ويدها تؤلمها، وإن خفّ الألم مع مرور الأيام. أخذتها بي عائشة إلى مجبّر العظام فدلّك يدها وصنع لها جبيرة من الأعشاب والدقيق والبيض. قال: «سوف تساعد هذه العظام على الالتئام». أزال الجبيرة بعد بضعة أيام وعلّمها بعض التمارين لتحسّن حركة يدها. لكنه قال

لبي عائشة: «لا أدري إن كانت ستستعيد يدها حركتها الكاملة. قد يبقى بعض الضرر الدائم في ألياف اليد».

دعت لها بي عائشة بالشفاء وعلّمتها قراءة القرآن. قالت: إن قرأنا معًا فسوف تنسين الوجع ولو مؤقتًا، وسوف يبارك فيك الله ويجزيك خيرًا. عكفت عافية أسابيع طويلة تتلو السور القصيرة يوميًّا حتى أحكمت قراءتها، فلما أجادتها بعثت بي عائشة بها إلى إحدى الجارات، بي حبيبة، التي كانت تعطي دروسًا في بيتها كل صباح لأربع فتيات. رأت بي عائشة أن صحبة الأطفال ستجعل عافية أبرع في التعلم. ولخليفة أسرّت أنها تشك أن بي حبيبة تجيد التدريس. فالصغيرات يعرفن كيف يستغللن طيبتها ولين جانبها فيتجنبن الدروس ويجعلنها تحكي لهن القصص.

سأل خليفة: «أي قصص؟». فهو يحب القصص.

ردت بي عائشة بغضب وقد أدركت أنه لم يفهم مقصدها: «لا أدري. أعتقد أنها قصص عن النبي والصحابة، لكن المفروض أنهن يتدربن على القراءة. من أجل هذا أدفع أجرها».

قال خليفة: «آه.. إنها قصص جيدة». ما أثار انزعاج بي عائشة أكثر لأنها لمست في نبرته استهزاءً. وغالبًا ما تنفعل بسبب تعمّده الاستخفاف بأمور الدين.

قالت: «طبعًا قصص جيدة. أتظنني أدفع مالًا كي تذهب إليها وتستمع إلى النمائم؟».

«لو كانت تستمع إلى النمائم لكلّفك ذلك مبلغًا أعلى»، وضحك مسرورًا بظرافته.

مرت الأسابيع وتحسّنت قراءة عافية وشفيت يدها، فصارت تساعد في

مهام المنزل بعد الدروس التي كانت مدتها ساعتين أو نحوها كل صباح. كلما رجعت من بيت بي حبيبة كانت تسرد ما قرأته ذاك الصباح، وأحيانًا تقرأ الأجزاء أمام بي مكوبوا. وصارت عافية ترافقها إلى السوق لشراء الخضروات والفاكهة، واللحم أحيانًا في الأيام التي يأكلون فيها اللحم. علّمتها بي عائشة أثمان البضائع وكيف تدفع قيمتها، وكيف تتعامل مع المال. قالت: عندما تكبرين سوف تتسوقين نيابةً عني. كانتا أحيانًا تمرّان على بيت التاجر ناصر بياشارا وتريان خليفة جالسًا إلى مكتبه مقابل الباب المفتوح. كان المكتب حجرة في الطابق السفلي من بيت التاجر. أما الطابق العلوي فله ولأسرته. وفي ساعات الضحى المتأخرة، بعد عودتهما من السوق، يمر رجل على البيوت كل يوم يبيع السمك الطازج من سلّته. كان يشتري السمك من الصيادين على الشاطئ ليكفي زبائنه عناء الذهاب إلى هناك والمساومة بين الحراشف والأحشاء المنتنة. تعلّمت عافية تحضير السمك: بطحن الثوم والزنجبيل والفلفل بالرحى، ودهن السمكة من الداخل والخارج. كانت تطحن بيد وتثبّت الحجر بالأخرى، وإن لم تقدر على تثبيتها جيدًا بيدها اليسرى. تأقلمت في هذا وفي احتياجات أخرى غيرها مع محدودية حركة يدها.

ذهبت لزيارة الأسرة التي كانت تسكن وإلياس في بيتهم، الأختان جميلة وسعدة وأمهما. سررن كثيرًا لرؤيتها، ورحبن بها ببالغ اللطف كما فعلن لما التقينها أول مرة. لاحظن ثقل يدها وسألنها عما جرى. أخبرتهن أن عمها ضربها لأنها تعلّمت الكتابة، فقالت الأم إن هذا الجهل إثم. كانت جميلة أكبر الفتاتين مخطوبة في ذلك الحين، لكن أباها قال إنها صغيرة على الزواج ولا بد من الانتظار حتى تبلغ الثامنة عشرة، وإلا فإن طفولتها ستضيع بالحمل والوضع. قالت جميلة إنها سعيدة بالبقاء في البيت ولا تمانع الانتظار، وكذلك

لا يمانع خطيبها الذي يعيش في زنجبار. لم تقابله إلا مرة واحدة ولا يعرفان بعضهما جيدًا، فلم تشتق جميلة إليه كثيرًا. سألن عن إلياس وقالت عافية إنها لا تعرف عنه شيئًا. دعت الأم بأن يحفظه من كل شر، وقالت إنها كلما مرّت على حجرتهما القديمة في الطابق السفلي تتذكرهما.

يرجع خليفة إلى البيت كل يوم لتناول الغداء الذي تقدّمه بي عائشة مباشرة بعد أدائها صلاة الظهر. كانت عافية ملزمة بالصلاة معها، لكن خليفة عادةً ما يصل بعد انتهائهما من الصلاة. كانت بي عائشة تجهر في الصلاة في البداية كي تسمع عافية الكلمات وترددها. وضّحت لها أن الإنسان يخاطب الله مباشرة في الصلاة، ولا يجوز أن يقطع صلاته كي يخاطب أحدًا أو يفعل شيئًا. فليس باستطاعتها أن تشرح أو توجّه وهي تصلي، وعلى عافية أن تتعلم بالمراقبة والتكرار. بعد الغداء يتمدد خليفة في حجرته بالقميص والكيكوي [الإزار] على الحصيرة لقيلولة العصر. وبي عائشة تنام على السرير فكانت عافية تظل وحدها تسلي نفسها. كانت تحب ساعات السكون في منتصف النهار، حتى الشوارع نفسها تلوذ بالصمت في الحر. تغسل القدور وتنظّف المواقد وتكنس الفناء الخلفي. ثم تجلس في زاوية الفناء، معها لوحها أو قصاصات ورق وتتمرن على الكتابة أو تتلو من المصحف الذي اشترته بي عائشة لها. قالت لها يجب أن يكون لكل شخص نسخة من المصحف، له وحده، ولم تنظر حتى لخليفة الذي أضاع نسخته منذ مدة طويلة.

كان أذان المؤذن لصلاة العصر منبهَ البالغين للاستيقاظ، كي يغتسل خليفة ويرجع إلى العمل ساعتين أو نحوها، وكي تقوم بي عائشة ببضعة أعمال في المنزل قبل الخروج لزيارة الجارات أو استقبالهن. سأل خليفة عافية يومًا إن كانت تود أن تصحبه إلى المكتب أم تفضل زيارة الجارات، فاختارت الذهاب معه. كان في حجرة المكتب الواسعة المفتوحة على الشارع التي تمرّ عليها مع

بي عائشة في طريقهما إلى السوق ثلاث طاولات. الطاولة التي في المنتصف مقابل الباب لبابا خليفة. التي على يمين الباب للتاجر ناصر بياشارا الذي قابلته عافية للمرة الأولى اليوم، وإن كانت قد سمعتهما يتحدثان عنه كثيرًا، ويصفانه بالمحتال الجشع أو – سخريةً – بتاجرنا الثري. كانت تتصوّره أكبر كثيرًا من سنه، على وجهه سيماء البخل والقسوة.

أجلسها بابا خليفة إلى الطاولة التي على يسار الباب، وأعطاها قلم رصاص وقصاصات ورق. كان بعض الرجال يأتون للحديث أو عقد الصفقات، لكن الأغلب يدخلون لتبادل آخر الأخبار وتناقل الشائعات. هذه الوسيلة الوحيدة لدى بعض الناس لمعرفة ما يجري في العالم. وغالبًا ما يعلّق الزائرون على وجودها، أرى أنكم وظّفتهم كاتبًا جديدًا، أو يبدو أنها الوحيدة التي تفهم أصول العمل في هذا المكتب. كانت تنصت إلى حديثهم في السياسة وأزمات الحكومة وهي تتظاهر بانهماكها بالخربشة. وغالبًا ما ينقاد الحديث إلى الحرب القادمة وضراوة الشوتزتروبه التي يتبادلون قصصهم بالمقت والإعجاب. سمعتهم يقولون إنهم حيوانات، أولئك العساكر. سألت خليفة إن كانوا هم أولئك العساكر الذي ذهب إلياس للقتال في صفهم أم عساكر آخرون.

قال خليفة: «هم نفسهم ولكنهم أيضًا مختلفون. ليسوا جميعًا الغِلاظ المتوحشين الذين تحدّث عنهم الرجال. بعضهم رجال شرطة أو موظفون أو معاونون للأطباء، بعضهم يقتصر عمله على عزف الموسيقى في فرقة. أعتقد أن إلياس سيكون من هؤلاء. أنا واثق أننا سنتلقى رسالة منه قريبًا. لا بد أنه أتم تدريبه الآن وسوف يرجع إلى البلدة لبضعة أيام بلا شك. سوف نسأله عندما نراه».

لم يكن التاجر يخاطبها إلا فيما ندر. غالبًا ما يكون منشغلًا مع سجلاته

وخطاباته أو مع زوّاره، وهو ليس ممن يميلون إلى كثرة الحديث على أية حال. وإن دار الحديث فهو المستمع والزوار وبابا المتحدثين. كان يرتدي نظارة ذات إطار معدني عندما يكتب ولم ترَ عافية أحدًا يرتديها من قبل. قامت ذات مرة ووقفت أمامه تحدق به وهو يعمل دون وعي منها. كانت تتساءل إن كان يؤلمه ارتداؤها، خاصة الذراعين الملتويتين خلف أذنيه. انتبه ناصر بياشارا إلى وجودها أمامه ورفع النظارة فوق رأسه. فرك عينيه لثوانٍ ثم أراح ظهره ونظر إليها.

سألها: «إلام تنظرين؟».

أشارت إلى نظارته فنهرها خليفة في حدةٍ: «عيب أن تشيري إلى وجه أحد هكذا».

صاح التاجر في وجه خليفة بالحدة نفسها: «دعها وشأنها». أدركتْ حينها أنه يكره بابا خليفة بقدر ما يكرهه بابا خليفة.

باغتتها ذات يومٍ نوبة سعال في المكتب، فظل ناصر بياشارا يحتويها بنظرات قلقة. ولما لم يتوقف السعال قال لها تعالي معي. كان الباب المفضي إلى مسكنه في الأعلى بجانب المكتب، ووقف أسفل الدرج ونادى: «خالدة، ستصعد عافية لشرب الماء». هكذا تعرّفت على زوجة التاجر، فكانت كلما رافقت بابا خليفة إلى المكتب - ولم يتكرر هذا كل يوم - كانت تصعد لشرب كأس من الماء وتناول كعكة الأرز أحيانًا. ولخالدة رضيع لا يجعلها كثيرة الخروج من البيت، فكانت زائراتها كثيرات، من الصاحبات والجارات، زوجات وقريبات التجار الآخرين وموظفيهم. كن يجلسن بأوشحة الكانغا المعطّرة وفساتين الشيفون المنفوشة، يتحدثن عن حفلات الزفاف والولادات والهدايا. تجلس عافية بينهن تنصت فاغرة فاهها، وهن يسخرن بابتهاج خبيث من رجال يمشون بالباطل، ونساء ذوات خيلاء وتكبّر، وأشراف

يشيع عنهم النفاق، بعضهم أحياء وآخرون متوفون. لا يكففن ألسنتهن إلا عن أزواجهن وأقاربهن، ما خلاهم ممن وجد طريقه في أحاديثهن فهو لقمة سائغة. لم تهتم حتى بالتظاهر بأنها لا تصيخ السمع. كنّ يضحكن من انتباهها الشديد، ويحذّرن بعضهن بالغمزات والحواجب المرفوعة والرموز ألا يسرحن بالكلام أمام الصغيرة. وكانت هي تدرك متى تحدّثن عن أمر لا يردنها أن تعلمه - بعض الناس في هذه الحجرة لهم آذان كبيرة - لأنهن يشرعن بالغمغمة والنحنحة والحديث بالإشارات اللفظية واليدوية، ما يجعلهن ينخرطن بالضحك أكثر وهن يلعبن هذه الألعاب. إلا أنها تعرف عامةً ما يحاولن إخفاءه عنها وإن تظاهرت بالجهل. وسرعان ما علمت أيضًا أن ما يتناقلنه عن الناس ليس كله صحيحًا.

وبهذا كانت عافية تملأ أيامها: الدرس مع بي حبيبة في صالة بيتها الصغير، وقصص المعجزات التي وقعت لأنبياء الله، من النبي موسى إلى النبي إبراهيم إلى النبي عيسى، وطبعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وزيارة جميلة وسعدة وأمهما، والجلوس في مكتب التاجر والرجال يتحدثون وهي تكتب وترسم على قصاصاتها، ثم الصعود لزيارة خالدة زوجة التاجر وصاحباتها وأكل كعك الأرز والاستماع إلى نميمتهن. لم تعرف في ذاك الوقت لكن عرفت فيما بعد أن تلك كانت أيامًا هانئة في حياتها، تلك الأشهر الأولى التي عاشت فيها مع بي مكوبوا وبابا خليفة.

***

أُزيلت الخردة أخيرًا من حجرة الفناء الخلفي ونقلت إلى المخزن الأمامي في المنزل. بُيّضت جدران الحجرة بعد ذلك، وكُنست الأرض وغسلت بالماء والصابون ودُهن إطار النافذة وقضبانها.

قالت بي عائشة: «في الماضي كان أبي يخزن البضائع في ذاك المخزن الأمامي. طلب التاجري ناصر أن يترك قمامته فيها، لكني رفضت. كان يريد أن يقفل الباب ويحتفظ بالمفتاح. لو تركته لكانت البداية، يأخذ المخزن ثم الفناء ثم البيت كله، وبعدها نعيش نحن في الشارع. لا شيء يسلم من يد هذا المحتال. ما البضاعة التي كان أبي يحفظها؟ كل شيء يتاجر فيه. كل الناس يتاجرون بما يقع تحت أيديهم: جوالات أرز رخيصة يبيعها، أو ذرة ودخن بعد حصاد جيد يصدّرها، أو صوانٍ معدنية أو ماء ورد أو تمور. بضائع من هنا وبضائع مشحونة من الخارج. اشترى مرةً أباريق ماء فخارية من الهند، بالعشرات، ولا أحد يعرف لماذا. ظلّت في المخزن سنوات، ولا أدري ما حدث لها في النهاية. لم يكن أبي بارعًا بالتجارة، دائمًا يتخذ القرار الخاطئ، إما يبيع أو يشتري في الوقت غير المناسب، أو بسعر غير مناسب. لم يكن ذا مالٍ على أي حال، أبي المسكين، ثم ترك خالي عامر يسرق هذا البيت منه».

وصل سرير جديد عليه إطار لتعليق الناموسية من ورشة التاجر ناصر هديةً لعافية منه. وجاء صانع الحشيات وفتق الحشيَّة القديمة التي كانت تنام عليها فوق الأرض وملأها بحشوة قابوق جديد. فصّلوا ناموسية جديدة من الحائك وعلّقوها بيضاء لامعة على الإطار. للمرة الأولى في حياتها، في سن الثانية عشرة، حصلت عافية على رفاهية غير متوقعة في حجرة لها وحدها. كانت في البداية خائفة قليلًا من النوم في الحجرة الصغيرة في الفناء، لكنها لم تقل شيئًا. أقفلت الباب وتركت إحدى درفات النافذة مفتوحة كما أُمرت. ثم شدّت أطراف الناموسية داخل السرير وتعلّمت تدريجيًّا تجاهل حفيف الأشياء في الظلام.

«لا تعرفين كم أنت محظوظة»، قالتها لها بي عائشة، وهي تبتسم تلطفًا. «أرجو فقط ألا نفسدك بهذا الدلال».

انطلق خليفة يروي عن حياته عندما كان في سنها، عن مبيته كل ليلة على حصيرة تحت الدرج في بيت معلّمه مع بقية الأولاد، وإنها كانت تجربة تستحق ما جناه في النهاية، لكن بي عائشة قاطعته. قالت: اعفنا من قصصك الهندية. ابتسم خليفة في سماحةٍ ودخل حجرته بعد الغداء ليغفو.

كانت عافية يومًا تعتزم الخروج لدرس القرآن الصباحي مع بي حبيبة، فأعطتها بي عائشة كانغا وعلّمتها كيف ترتديه. قالت: لقد كبرتِ. من الحشمة أن تغطي جسمك عند الخروج.

كانت تعلم أن حلمتيها تؤلمانها وأنهما بدأتا بالبروز، وقد لاحظت أعين الرجال وهي تمشي في الطرقات تهبط دومًا إلى صدرها. كذلك لاحظت أن ناصر بياشارا كان يفضل أن تصعد إلى بيته كلما دخل الزائرون المكتب. ربما أحرجته نظراتهم صوبها. كانت تعرف ما يجري لها دون أن يشرح لها أحد، فقبلت الكانغا بكل امتنان وغطّت نفسها كما أُمرت.

5

كانت للضابط شقة من حجرتين في طرف الطابق العلوي من المبنى القائم على يمين البوما. إحداهما حجرة نوم والأخرى فيها كرسيّان مريحان ومكتب صغير يجلس إليه الضابط أحيانًا للكتابة. في الطابق العلوي سبع حجرات، ويقابلها سبعٌ في السفلي، وقد وُضع تسلسل هرميّ لشاغليها. تجاور حجرتي الضابط الأعلى قاعة واسعة في منتصف الطابق هي لاجتماع الضباط للأكل، تليها أربع حجرات للضباط الأربعة، بدءًا بالطبيب العسكري وانتهاءً بالفيلدفيبل، صاحب أصغر حجرة في نهاية الممر لأنه الأدنى مرتبة. أما الضباط الثلاثة الآخرون في البوما فلهم حجرات في المبنى الأصغر المواجه للبوابة، وقد خُصّص طابقه السفلي للوحدة الطبية والمخزن المقفل. في المخزن تموين مخصص للضباط: علب معدنية من أفخر الأطعمة الأوروبية، وقوارير الجعة والنبيذ والشنابس والبراندي. يبلغ التنظيم منتهاه في المبنيين. الحمامات في الأسفل داخل مبانٍ منفصلة. ويسكن خدم الضباط في حجرتين خلف هذه المباني ويتصل بهما حمام. يسكن حمزة ويوليوس خادم الضباط الأربعة حجرةً واحدة، ويسكن الأخرى خادما ضباط المبنى الأصغر.

كان يوليوس أكبر من حمزة بسنوات، في نهاية الثلاثين. وهو أكبر الخدم سنًّا وأطولهم خدمة في الشوتزتروبه لما يزيد عن العشرة أعوام. لا يتحدث من الألمانية إلا بضع كلمات لكنه يفهم منها الكثير. وهو الوحيد منهم المسموح له بدخول مخزن التموين الذي لا يفارق مفتاحه الضابط المسؤول عن الإمدادات. يقول يوليوس إنه أُعطي هذه المسؤولية لأنه يحسن الكتابة.

لأنه إن أخذ شيئًا من المخزن فيجب أن يدوّنه في السجل المحفوظ داخله. ذكر لحمزة عن تعليمه في المدرسة التبشيرية في باجامويو لكنه عمدًا تحاشى ذكر المدة التي قضاها هناك. كان فخورًا بتعليمه ودينه. يردد بين الفينة والأخرى: لو كنت مثلي متعلمًا ومسيحيًّا لرأيت الأمور من منظور مختلف. أُصيب يوليوس إصابة طفيفة في غارة ضريبية على قرية، فكلّفه الضابط المسؤول بمهام الخادم لحين شفائه. قال: «هذا عامي الثالث ولم يفكر أحد في نقلي، فلا بد أني ممتاز في عملي».

لم تكن في المباني أنابيب تحمل المياه إلى الطابق العلوي، ليس بعد، وإن كان من المخطط إدخالها. ولذا فإن حمزة يملأ طست الضابط بماء جديد كل صباح ثم يذهب لإحضار قهوته من سقيفة الطبخ. كانت وجبات الضباط تُطبخ في سقيفة داخل حدود البوما وعلى يد نساء من القرية، كلهن متزوجات من عساكر. يرجع حمزة من السقيفة فيكون الضابط قد خرج من حجرة نومه مرتديًا قميصًا وبنطالًا، في انتظار وصول قهوته. ينصرف حمزة عندها إلى حجرة النوم لترتيب السرير وتنظيم الملابس، وهو يشعر غالبًا بنظرة الضابط لا تفارقه من خلال الباب المفتوح. ثم يقصد صالة الطعام يساعد يوليوس على إعداد مائدة الفطور. شرح له يوليوس لوازم المائدة من خزفيات وملاعق وسكاكين، ومبادئ الخدمة وقت تناول الطعام. ينزلان بعدها إلى الطابق السفلي لانتظار خادمي المبنى الأصغر اللذين يوصلان الإفطار من سقيفة الطبخ إليهما، فيضع حمزة ويوليوس الطعام في القاعة ويبلغان الضباط بأنه جاهز.

بعد الإفطار يزيلان الأطباق ويغسلانها ويضعانها في الخزائن، وكل ما يقدم للضباط هو لاستخدامهم حصرًا، وينظفان قاعة الطعام ثم ينتقلان إلى الحجرات الخاصة. يرتب حمزة شقة الضابط وينفض الغبار عن أثاثها

ويهوّيها، ويفرغ الطست وينظف المبولة، ويكنس الشرفة الأمامية والخلفية ويأخذ الملاءات المتسخة في حقيبة مخصصة إلى الأسفل كي تجمعها الغسّالة. فكان الروتين منظمًا ودقيقًا كي تُنجز هذه المهام قبل بلوغ الساعة السابعة صباحًا.

خلال الأسابيع الأولى من تكليفه خادمًا شخصيًّا للضابط كان يلحق بفصيلته في تدريباتهم بعد السابعة لأنه لم يكمل تدريبه الأساسي. كان يراهم وهو يكنس الشرفة أو يكوي قميص الضابط قبل السابعة منهمكين في المسيرة في ساحة العرض، يقودهم الأونباشي أو الشاويش، ويتوق إلى الانضمام إليهم. فإذا تدرّب معهم أنهك نفسك بالتمارين الشاقة لينفض عن نفسه الإحساس بالفشل الذي يلازمه منذ خدمته للضابط. وكان يخرج معهم إلى الميدان للتدرب على التصويب أو المناورات، إلا إذا ابتعدوا كثيرًا عن المعسكر. فإذا حان الظهر عجّل بالرجوع للاغتسال والتأهب لتقديم الغداء لأي ضابط شاء الأكل في القاعة ذلك اليوم. بعد الغداء يزداد الحر فلا يود أحد أداء أعماله، فيلتهم الضباط طعامهم ويهرعون إلى حجراتهم ابتغاء الراحة حتى يبرد الجو. وكان هذا الوقت عزيزًا لدى حمزة، الوقت الذي يهمد فيه البوما وجميع الأبنية المحيطة به. حتى الماعز والكلاب في القرية تنطرح في أي زاوية مظللة، تُسْكن لهاثها حتى تمر الساعات. كان يمضي هذه الساعات في قاعة الطعام والشرفة الخلفية لأنها أبرد في ذاك الوقت، وعندما يذهب إلى الحجرة المشتركة في الأسفل عادةً ما يجد يوليوس غاطًّا في النوم.

عند الساعة الرابعة عصرًا، بينما المؤذن ينادي لصلاة العصر في مسجد القرية خارج البوما، يقدّم حمزة كوب القهوة للضابط الذي استيقظ واستحم واتجه إلى مكتبه. أمره الأوبرلويتنانت بأن يظل قريبًا ليسمعه إن ناداه، فكان يجلس على مقعد في الشرفة. كذلك كان الأمر كل عصر. كان يرسله إلى

الضباط الآخرين في مأموريات متنوعة أو يطلب منه ما يلزم لراحته: كأس ماء، أو كوب قهوة، أو فوطة نظيفة. ومنذ البداية، خلال ساعات العصر، يأمر الضابط حمزة بالدخول لتعليمه الألمانية، كان يريد على الأرجح تسلية نفسه في البداية، فلما رأى أن حمزة محب للتعلم استمر في الأمر. بدأ بتسمية الأشياء.

«Fenster .. قلها» أمر الضابط وهو يشير إلى النافذة. «Tür .. قلها. Stuhl, Auge, Herz, Kopf». باب، كرسي، عين، قلب، رأس. يشير إلى الشيء أو يلمس نفسه وهو ينطقها.

ثم أجبر حمزة على ترديد جمل تامّة: «Mein Name ist Siegfried. لا لا، قل اسمك أنت. Mein Name ist Hamza. والآن قل: Sie sind herzlich willkommen in meinem Land. قلها أنت، لكن يجب أن تعني ما تقوله. Sie sind herzlich willkommen in meinem Land. لا بأس. نطقتها جيدًا جدًّا. تعني مرحبًا بك في بلدي». قالها الضابط بابتسامة متهكمة.

كان يأمره بالجلوس إلى طاولة الرسم الهندسي المفتوحُ فوقها دليل ميداني وبجواره صفحة بيضاء. ويكلّفه بنسخ بضعة سطور ليعوّد نفسه على كتابة الكلمات الألمانية. كان ينسخ كل يوم جملًا، ثم يقرؤها بصوت عالٍ دون أن يعرف ما معناه. وفي كل فرصة سانحة كان الضابط يخاطبه بالألمانية، من باب التسلية أحيانًا، فكان حمزة يبالغ في تحيّره حتى يُضحِك رئيسه. وإن لم يفهم حمزة أمرًا ترجم الضابط المعنى، ولكنه كان يتوقع منه الفهم والإجابة إن تكررت الجملة. وكان الضابط أحيانًا يخدعه، فيجعله يردد كلمات يستنقص بها من نفسه، فيضحك الضابط ثم يشرح له معانيها. كان الأمر كاللعبة في نظر الضابط، وسرّه أن حمزة مستجيب وحاضر البديهة. قال وعيناه تبرقان

خبثًا: سأجعلك قريبًا تقرأ شيلر.

عيناه. أحيانًا عندما ينهمك حمزة في ترتيب السرير أو كنس الشرفة أو كي قميص تحين منه التفاتة، فيجد تلك العينين الزرقاوين الشفافتين مستقرتين عليه لا تحيدان عنه. حسب في المرة الأولى أن الضابط قال شيئًا وينتظر منه ردًّا، لكن العينين لم تتحركا، والشفتين لم تنفرجا. فتنحّى حمزة في ارتباك، قلقًا من مَضَاء تلكما العينين. أصبح يشعر بسكون غريب عندما يكون الضابط حوله، موقنًا أنه إن التفت سيجد العينين ملتصقتين به كعادتهما. هذا التفحّص المتطاول الوقح يجرّده من أي خيار، إلا أن يدعه يراقبه طويلًا، أن يرقبه كأنه غير قادر على رد تلك النظرة بمثلها. تعلّم حمزة ألا ينظر.

سُرَّ الضابط من نجاحه في تعلم شيء من الألمانية، تحدّثًا وقراءة. أخذ يستعرض إنجازات حمزة أمام الضباط الآخرين في قاعة الطعام، لا سيّما أثناء تناولهم وجبة العشاء أو بعدها، بعد أن يشربوا الجعة والشنابس. كان يدعوهم إلى مخاطبة حمزة، لاختباره. تبسّم الطبيب العسكري بعذوبة ونظر إليه من أعلى إلى أسفل كأنما يفتّش عن أدلة إجادته الألمانية على جسده. وانطلق الضابطان الآخران، زميلا مسكنه، عن طيب خاطر يشاركان في لعبة ضابطهما الأعلى، فسألا أسئلة يسيرة ودودة كالتي يوجّهها البالغ لأي طفل. سألا: Wie alt sind Sie? كم عمرك؟ ضحك الضباط الآخرون وألقوا تعليقات لم يفهمها حمزة، ما جعلهم يضجون أكثر بالضحك. جميعهم إلا الفيلدفيبل فالتر الذي لم تعجبه لعبة الضبّاط الجديدة، نخر بأنفه ازدراءً وهم يلهون، وهمس في وقت لاحق همسة هازئة غاضبة تحمل كلمات لم يعرفها حمزة لكنه خمّن من نبرتها أنها بذيئة. كان يوليوس يبتسم تعاطفًا أثناء تلك الألاعيب، ثم يقول له بعدها إن الضباط حوّلوه إلى قرد يسليهم. فكان حمزة يعجّل في المغادرة حالما يستطيع، فرارًا من الهُزء وقبل أن ينحدروا بالشرب

والكركرة إلى مآل قبيح.

قال يوليوس: «لا تهتم بالفيلدفيبل. ما هو إلا رجل خسيس لا يستحق السكن في المبنى نفسه مع هؤلاء الضباط الكرام. لا يكف عن تدخين حشيش البانغي ثم يذهب إلى القرية لمطاردة النساء. حجرته منتنة من رائحة الدخان».

أحيانًا تطول جلسات الشرب، عندما يُكلّف أحد الضباط بالخروج في مهمة لتأديب قرية أو زعيم، أو عند الخروج في مناورات ميدانية. عندها تُسمع أصواتهم في كل أرجاء البوما، ويستيقظ الأوبرلويتنانت في الصباح التالي مهدودًا من الصداع، قابضًا صدغيه بأصابع منفرجة، مغلقًا عينيه في ألم شديد. دائمًا ما يعاني من هذه الآلام بعد ليالي الخمر والسمر.

عصر أحد الأيام، دخل حمزة المكتب حاملاً القهوة وحيّا الضابط بالألمانية كما أمره، لكن الضابط كان منهمكًا فيما يقرؤه فلم يجب. بدت الأوراق التي في يده كأنها أوراق رسمية، وقد لاحظ حمزة شعار الحكومة أعلى الصفحة. لاحظ الضابط بعد لحظات وجود حمزة فصرفه بإشارة من يده، ولم يستدعه ذلك اليوم لدرس المحادثة المعتاد الذي لا تزيد مدته على نصف ساعة. لما دخل لاسترجاع كوب القهوة كان الضابط مسندًا ظهره إلى الكرسي وعلى وجهه نظرة خاوية وهو مستغرق في التفكير. انتظر حمزة أي تعليمات إضافية منه. فلما طال الصمت تقدّم لحمل صينية القهوة. بلغ من تدقيق حمزة بمظهر الضابط أن تشتت ذهنه وتهاون في حركاته. تعثر وارتطم بالمكتب فقرقعت الأواني. التفت رأس الضابط بحدة وفي عينيه غضب أحمر. قال: «اغرب عن وجهي».

كان جو قاعة الطعام ذلك المساء مشحونًا بالتوتر، لا ريب بسبب ما كان يقرؤه الضابط عصر اليوم. لا بد أن الضابط تسلّم أوامرَ جديدة. فكان

الحوار بين الضباط مشوبًا بحماس يتخلله تجهم، وسيل الأحاديث ينهمر بطلاقة وسرعة لا يقدر حمزة على إدراكها بثقة. لا يظنهم يتكلّمون بسرعة عمدًا بقصد الإغماض عليه وعلى يوليوس. بل إنهم انغمسوا في الحوار حتى لم يتبينوا أن الخادمين موجودان، فلمّا فعلوا تبادلوا النظرات وقرروا ضمنًا ألا يخاطروا في قول كلام قد يفهمانه. أومأ الضابط الأعلى نحو الفيلدفيبل فأمر هذا يوليوس وحمزة بالانصراف من قاعة الطعام. سمع حمزة كلمات كثيرة سيعرف معانيها في وقت لاحق، لكن الكلمة التي كان يعرفها هي Krieg. حرب.

سأل يوليوس عندما أويا إلى حجرتهما: «مَن نقاتل؟».

كشّر وردّ مستحقرًا: «مَن تظن؟ ألم تسمعهم يقولون إنها ستكون حربًا كبيرة؟ ألست معجزة الفصاحة الألمانية. قد يكونون البلجيكيين أو البرتغاليين، لكن الإنجليز لن يسمحوا لهم بذلك، فلا بد أنهم جميعًا فيها. سوف نحاربهم كلهم. لن يقول الألمان إنها ستكون حربًا كبيرة إن كانوا يتحدثون عن قتال الواتشاغا أو الواهاديمو».

قدّم حمزة في الصباح التالي للضابط قهوته، فقال وإحدى ابتساماته الهازلة تعلو وجهه: «لا تتدرب في الميدان اليوم. فاتك درس أمس. أريدك في مكتبي حال إتمام مهامك. يجب ألا ندع برقيات القيادة العليا تؤثر في دروسك».

***

تغيّر الروتين مع مرور الوقت. أراد الضابط من حمزة أن يكون بجواره أكثر فأكثر. وصارت لعبة تعليم خادمه الحديث والقراءة بالألمانية شغله الشاغل. بل إنه راهن ضبّاطه، بعد تجرّع بضع كؤوس، أن التلميذ سوف يقرأ شيلر قبل حلول الأمطار الموسمية. ضحك الضباط. أمطار أي سنة؟

ربما بعد عشر سنين من الآن.

كان حمزة يفعل ما يفعله كل صباح، يملأ طست الضابط بماء دافئ ثم يحضِر قهوته. يجب أن تُحضّر قهوته كل يوم من حبوب محمّصة مساء أمس ومطحونة في الصباح. لا يدري إن كانت النساء في سقيفة الطبخ يتبعن هذه التعليمات بدقة، لكن الضابط لم يَشْكُ قط. عندما رجع بالقهوة وجد أن الضابط ما يزال في سريره في الحجرة الداخلية، فأشار إليه أن يقدم القهوة وهو على هذه الحال، في حين كان يشربها كل يوم بعد أن يقوم من سريره ويلبس القميص والبنطال. انتظر حمزة في الشرفة الخلفية أثناء اغتسال الضابط، حتى ناداه ليساعده في ارتداء الجورب والحذاء. دخل حمزة مرة واحدة إلى الحجرة قبل أن يدعوه، عندما حسب أن الضابط فرغ من اغتساله، فرآه واقفًا عاري الصدر في غرفة نومه. كان جذعه متسلّخًا بندوب الحروق. تراجع حمزة مسرعًا وبقي مكانه ينتظر استدعاءه. توقّع أن يوبّخه لكن الضابط خاطبه بالألمانية كما يفعل عادةً في تلك الساعة وجعله يجيب. كان يسمي هذا الحوار اليومي درس المحادثة الأول. ربما لم يرَ حمزة يدخل. اتجه حمزة إلى الحجرة الداخلية لترتيب السرير، والضابط مستمر في محادثته معه وهو يحلق ذقنه. وكلما لاحظ حمزة أن الأوبرلويتنانت سكت كان يعلم يقينًا دون أن ينظر أنه يحدق فيه بطريقته العجيبة تلك.

بعدها ينظف حمزة مع يوليوس طاولة طعام الإفطار في القاعة وينصرف إلى ترتيب الحجرات وإلى مهامه الأخرى، بعدها يذهب إلى مكتب الأوبرلويتنانت. فكان يرتب ما يحتاج إلى ترتيب ثم يستقر في مكانه خارج المكتب بانتظار الأوامر. كان ينقل رسائل إلى الضباط الآخرين وأحيانًا إلى الفصائل التي تتدرب خارج البوما في القرية. استغلّ تلك الأوقات بالتجول قليلًا إن لم يكن مستعجلًا، وإن صادف وقت الصلاة اتجه إلى المسجد لأدائها

والاستئناس بالناس. واعتاد أيضًا أن ينقل التقرير الطبي من الطبيب العسكري إلى الأوبرلويتنانت، وكان الطبيب يأبى أن يوصله معاونه بحجة أنه معاون طبي وليس مراسلًا. عانى كثير من الضباط والعساكر من نوبات الملاريا المتكررة، مع حرصهم جميعًا على أخذ جرعة الكينين يوميًّا والنوم تحت حماية الناموسية. بعضهم ينضم إلى العسكرية وهو مصاب بالمرض، ولكن بقاءهم في الخارج للقيام بالمناورات دون حماية من البعوض كفيل بتعرضهم للإصابة. وثمة حالات أخرى كالزحار والأمراض الجنسية وداء الطوامر في أصابع الأقدام. أحيانًا تتفشى حالات التيفوئيد في أوساط ضيقة فيتحتم عزل المصابين في العيادة دون مخالطة. ومن قراءة حمزة خفيةً للتقرير الطبي عرف عن السر المكبوت، وهو إدمان الأفيون المنتشر بين ضباط الصف النوبيين.

كلما ذهب حمزة إلى العيادة لجلب التقرير يبتسم الطبيب العسكري له ابتسامة العارف بالخبايا، فكان يتظاهر بأنه لا يلاحظها وإن كان يمقتها. عندما ناول الطبيب العسكري حمزة التقرير ذات صباح قال لمعاونه وهو يتحدث بتمهل كيلا تفوت المعاني على حمزة: «أصبح الأوبرلويتنانت مهووسًا بهذا الشاب. سوف يجعله عالمًا. وعدنا أن هذا الشاب سوف يقرأ له قريبًا حكايات ما قبل النوم».

ابتسم الاثنان، وانقلبت ابتسامة المعاون إلى امتعاضة حقد. كان حمزة يشعر أحيانًا بيد الطبيب العسكري تمسّد فخذه عندما يقدّم الأطباق في قاعة الطعام. كان يلمسه دون أن يلاحظ الآخرون، ثم ينظر إلى حمزة حتى تتلاقى نظراتهما فيبتسم تلك الابتسامة. سأل حمزة يوليوس إن كان يفعل به ما يفعل بحمزة، فقهقه يوليوس وقال لا.

«إنه يريدك أنت. أنت تعجبه. ألم تعرف هذا؟ كلنا نعرف أن الطبيب

العسكري باشا [مثليّ]. يقول الناس إن معاونه زوجته. حتى في ألمانيا نفسها مسموح للجنود بممارسة الجنس فيما بينهم. كان أحد حكّام شرق إفريقيا الألمانية بأسرها باشا. رُفعت ضده قضية أمام المحكمة قبل بضع سنوات يُتّهم فيها بتوظيف خادم مخصص للجنس فقط».

سأل حمزة: «رفعوا قضية على الحاكم شخصيًّا؟ من يجرؤ على مقاضاة الحاكم؟ ألا يملك الحاكم المحكمة؟»

قال يوليوس متباهيًا: «هذه حكومة مسيحية. لا أحد يملك المحكمة».

قال حمزة والريب يملأ صوته: «ولكن أن يُقدّم الحاكم إلى المحكمة لأنه باشا!».

«نعم. الحاكم شخصيًّا وعدد من ضبّاطه. ألم تسمع بهذه القصة؟».

قال حمزة: «لا».

نظر يوليوس إليه بشفقة. كان يرى أن حظوظ حمزة بائسة من نواحٍ كثيرة، أولها حرمانه من التعليم التبشيري والأخرى دينه الرجعي. يعتقد حمزة أن يوليوس يظن نفسه الأنسب لخدمة الضابط الأعلى بدلًا من خدمة أولئك الذين أقل رتبةً منه، لا سيما الفيلدفيبل النكِد، ولا يخفي يوليوس رأيه بأن هذا الرجل من طبقة أدنى وضيعة. أخفض صوته الآن ليكمل هامسًا: «سمعتُ أن القيصر نفسه...» وهز رأسه بإشارة ذات مغزى.

قال حمزة في استنكار مبالغ فيه: «لا! أضفت بهارات كثيرة.. القيصر نفسه!».

«أخفض صوتك! نعم. لكنهم يحاولون التكتم على الأمر خشية أن نضحك منهم».

إن لم يكن حمزة يؤدي مهامه أو يجلس على الكرسي خارج المكتب، وإن لم يكن الضابط الأعلى مشغولًا في الواجبات العسكرية في البوما أو في الميدان، يدعوه إلى الدخول متى ما طاب له ذلك حسبما يبدو، ويأمره بالجلوس إلى طاولة الرسم الهندسي ليتدرب على الكتابة. كان في غالب الوقت ينسخ من الدليل الميداني الذي يحوي ترجمة بعض الجمل اليسيرة من الألمانية إلى السواحلية، وإرشادات متنوعة بالألمانية ينسخها حمزة ثم يترجمها. إذا لم يعرف مفردة ينطقها بصوت عالٍ فيخبره الضابط معناها. وأحيانًا تتبدل الأدوار فيسأله الضابط عن معنى كلمة بالسواحلية..ما معنى اللّبان؟ أوباني. كيف تقول كلمة متنمل؟ غانزي. ما معنى رغوة؟ رغوة؟ فقاعات. مابوفو.

كان الضابط يترك أعماله أحيانًا كي يحادث حمزة بضع دقائق. إن أحسن يمنحه إيماءة خاطفة استحسانًا، وإن أنجز إنجازًا غير متوقع ابتسم بحبور مكتوم. قال له: تحسّنك مستمر لكنك لست مستعدًا بعد لشيلر. ومع متابعة الدروس أحيانًا في ساعات العصر شعر حمزة كما لم يشعر من قبل بأنه في مدرسة. ينتهيان عند سماع المؤذن ينادي الناس لصلاة المغرب في القرية المحاذية للبوما، وتلك هي الإشارة التي تجعل الضابط يسكب لنفسه أول كأس شنابس في تلك الليلة.

كان حمزة، وبما لا يمكن إنكاره، تحت حماية الأوبرلويتنانت، وإن لم يكفه هذا الإساءة والشتائم التي تعد من الممارسات العسكرية الراسخة في البوما فإنه آمن على الأقل من الجَلْد والعمل الشاق الذي لا يسلم منه أحد في الفصيلة. لكنه ليس آمنًا من كراهية الفيلدفيبل. كان يسمي حمزة الجندي اللعبة حين لا يسمعه القائد الأعلى.

«لعبة مَن أنت؟ أنت لعبته الجميلة، تسلية الشوغا». هزّ إصبعه في إنذار واحتقار، ومدّ يده مرةً يقرص حلمة حمزة. «أنت مقزز».

تمرّ على الأوبرلويتنانت أوقات تجهم متكدرة، يتخللها صمت طويل أو كلمات غامضة كأنه يسخر من نفسه. وإن رفع حمزة بصره متسائلًا يقذفه بكلام قاسٍ. أتريد أن تعرف ما قلته بالضبط، أيها البابون البليد؟ تعلّم حمزة ألا ينظر إليه عندما يشعر بأنه في هذا المزاج، وأن يبتعد عنه إن استطاع. كان يعرف منذ البداية أن الضابط قادر على العنف. رأى جذوته في بريق عينيه، وفي انقباض البشرة المحيطة بصدغيه، كأنه يحاول كبح غريزة كاوية. كان يدلّك ذلك الغضن من جلده دون وعي كلما استغرق في التفكير أو هوى في جُب القنوط. تهيّب حمزة تلك اللحظات الحالكة التي يتعرض فيها لأي إهانة يشاء الضابط توجيهها إليه. وقد تتنوع هذه، كأن يرميه بشرر نظراته أو يقذف شيئًا على المكتب ثم يقذفه بأقذع الألفاظ، وحمزة متسمر في وقوفه والضابط يستشيط غضبًا، إلى أن يعطيه الأمر بالانصراف. حاول جهده أن يبتعد عنه إن لمح بوادر المزاج العدواني، ولكن حتى هذا التصرف قد يعده الضابط استفزازًا، إن ناداه ولم يجب أو تأخر في الإجابة.

بدأ حمزة يستوعب من كلام الضابط أكثر من قبل مع تحسن فهمه للألمانية، وكان الضابط يكرر كلامه غالبًا عندما يكتب: لماذا حدث هذا؟ لماذا حدث هذا؟ إن أثار الحر غضبه أو استفزه خطاب وصل إليه: ما جدوى تكرار الأمر نفسه مرةً تلو المرة - ولكن أليس هذا ما أفعله؟ أحيانًا يخاطب حمزة مباشرةً كأنه يكمل حديثًا لم يبدأ في الواقع قط: إنّ حماقة تفسير ما نكونه وما نفعله لا حدود لها لأن لا تفسير يمكن أن يكون مقنعًا. إننا نكرر ما نقوله مرة تلو المرة. في تلك اللحظات كان حمزة يتظاهر بالصمم، ولربما كان خفيًّا عن نظر الضابط.

أعلن الأوبرلويتنانت في أحد الأيام إقامة مناورات واسعة النطاق تبدأ بعد يومين لتهيئة جميع الفصائل للحرب. كانت الاستعدادات على أشدّها

والرسائل والبرقيات الميدانية تكاد لا تنقطع. كلهم بانتظار الأمر بالتحرّك. أصبح من المعتاد أن يجتمع الضباط اجتماعات مطوّلة متجهمة وأن يقودوا الفصائل في تدريبات يومية. الحرب قادمة. في لحظة هدوء تبعت يومًا من العمل المكثف، عندما كان حمزة ينظف شقة الضابط، أحسّ بصمت مشؤوم يكاد من ثقله أن يكتم أنفاسه.

سأل الضابط قاطعًا الصمت: «ماذا تفعل هنا؟ ماذا يفعل شخص مثلك في هذا العمل الوحشي؟».

استقام حمزة فورًا في وضع الانتباه ونظر إلى الأمام، وقال: «أنا هنا لخدمة شوتزتروبه والقيصر».

قال الضابط هازئًا وهو يتقدم ليقف أمامه: «نعم. بلا شك. وأي واجب أنبل من هذا! وأظن أنك تستطيع أن تسألني السؤال نفسه. ماذا يفعل رجل من مارباخ، تلك البلدة الوادعة، هنا في هذه البالوعة؟ ولدت في أسرة عسكرية، وهذا هو واجبي. لهذا أنا هنا - كي أحوز على ما هو حقٌّ لنا لأننا الأقوى. نحن نتعامل مع أناس بربريين متخلفين، والسبيل الوحيد لحكمهم هو إيقاع الرعب في قلوبهم وقلوب سلاطينهم التافهين، ودكّهم دكًّا حتى لا يجدون مخرجًا إلا الطاعة. سلاحنا هو الشوتزتروبه. أنتم سلاحنا أيضًا. نريدكم أن تكونوا منصاعين مذعنين فتّاكين بما يتجاوز تصوراتنا. نريدكم أن تكونوا متبجّحين عديمي الإحساس مقتولي الضمير تفعلون ما تؤمرون دون تردد، ثم ندفع إليكم الأموال ونمنحكم الاحترام الذي تستحقونه، سواءً عبيدًا أم جندًا أم منبوذين. ولكن... أنت لست مثلهم. أنت ترتعد، وتنظر وتسمع كل نبضة قلب كأن كل هذا يؤرقك. كنت أراقبك منذ البداية، عندما أحضروك إلى هنا أول مرة. أنت حالم».

ظلّ حمزة متسمّرًا مكانه يحدق إلى الفراغ أمامه.

قال الضابط وهو على بُعد خطوتين منه: «سحبتك من ذاك الصف لأنك رقت لي. أتخاف مني؟ أحب أن يخاف الناس مني. خوفهم يجعلني قويًّا».

دنا الضابط خطوة فصفع حمزة على خده الأيسر ثم بظاهر يده صفع خده الأيمن. شهق حمزة مصعوقًا وشعر بعد ثوانٍ بقرصة الألم على جلده. لا يفصل بينه وبين الضابط سوى إنشات، تنفّس حمزة تلك الرائحة، رائحة الدواء اللاذعة التي شمّها في اليوم الأول في المعسكر وقت تفتيش الأوبرلويتنانت للمجنّدين، لكنه الآن يعرف أنها رائحة الشنابس.

قال الضابط وما زال ملتصقًا به: «هل آلمك هذا؟ لا يعنيني شقاؤك». تجنّب حمزة النظر إلى عينيه مباشرةً ورأى ذاك الجلد المشدود على صدغ الضابط ينبض بقوة. «أجب عن سؤالي. أتخاف مني؟».

هتف حمزة: «نديو بوانا».

ضحك الضابط: «أعلّمك الحديث والقراءة بالألمانية كي تفهم شيلر فتجيبني بتلك اللغة الطفولية. أجبني بالطريقة المناسبة».

قال حمزة: «Jawohl, herr Oberleutnant». نعم سيدي الأوبرلويتنانت. ثم أضاف في نفسه: Scheißer. سحقًا لك.

ظل الضابط ينظر إلى حمزة محتقن الوجه ثم قال: «أضعتَ مكانك في هذا العالم. لا أدري لِمَ يهمني هذا الأمر لكنه يهمني. أو.. ربما أدري. لا أظنك تعلم عما أتكلم. لا أظنك تعلم ما الأهوال المحيطة بك. انصرف إلى أعمالك». قال بعد أن استدار متجهًا إلى الحجرة الداخلية: «اخرج، وتأكد أن عتادي جاهز للمناورات».

***

بدأت الحرب بعد يومين. وصلت الأوامر برقيًّا في الصباح الأول بعد عودتهم من المناورات. والأوامر هي أن يسافروا بالقطار إلى موشي ثم يسيروا حتى يبلغوا المواضع المحددة لهم قرب الحدود لتعزيز خط الدفاع. نفّذوا الأوامر في دقة صقلتها التدريبات والانضباط. سارت الفصائل من البوما إلى المدينة في تشكيل منْضَمّ، منشدين أغاني الاحتشاد، والضباط إما يركبون البغال أمامهم أو يسيرون بمحاذاتهم. ومن ورائهم فيلق العمل، والزوجات والأطفال والماشية، فلما ركب الجميع في القطار انحشروا جميعًا فيه، حتى لم يبقَ مكان للحمّالين وحملة البنادق فاعتلوا سقفه. أكملوا المسير بعد موشي شمالًا تجاه الحدود مع منطقة شرق إفريقيا البريطانية. كذلك كانت معالم تلك الأراضي من القارة في ذلك الوقت. كل جزء منها تحت أيدي الأوروبيين، ولو على الخريطة على الأقل: شرق إفريقيا البريطانية، شرق إفريقيا الألمانية، شرق إفريقيا البرتغالية، شرق إفريقيا البلجيكية.

امتدّ الرتل ميلًا أو ما يزيد بوجود مئة وخمسين عسكريًا، مع إضافة عدد من التابعين. يتقدّم الرتل العساكر مع ضبّاطهم راكبين بغالهم، ثم الأطباء العسكريون والمعاونون الطبيون خلفهم مباشرةً. هذا التشكيل هو المتّبع في المسير وفي ميدان المعركة. يليهم الحمّالون ومعهم العتاد والذخائر والإمدادات والمتعلقات الشخصية للضباط. ومن خلفهم تابعو المخيم، وفريق من عساكر معدودين تحت إمرة ضابط ألماني لحراسة المؤخرة ومنع الفرار والسرقة.

إذا شرعت قوات الشوتزتروبه في المسير فإن البوما بأسره يسير معها، فالعساكر لا يقبلون خوض أي حرب دون زوجاتهم ورفيقاتهم. ويعيش الشوتزتروبه من خيرات الأرض التي يحلّون فيها، النساء هن الموكلات بالبحث عن الطعام والمعلومات، والطهي للفصائل، والمقايضة متى ما

سنحت الفرص للمقايضة، وإشباع الأزواج. هذا أمر قبله فيسمان على مضض عندما أنشأ قوات الشوتزتروبه، ويستحيل نقض العُرف الآن دون المخاطرة بنشوب تمرّد أو فرار الجنود.

كثير من العساكر في فصيلة حمزة من المخضرمين في خوض الحروب ويعرف بعضهم تضاريس المنطقة جيدًا. فكانوا إذا أقاموا المخيم تحلّقوا في الأمسيات وتسامروا بقصص غاراتهم السابقة في المنطقة: عندما أخمدوا عصيان زعيمي الواتشاغا رندي وابنه ميلي وشنقوا ثلاثة عشر زعيمًا آخر منهم، عندما أبادوا قرى كاملة لإخفائها الطعام أو لمشاركتها في المعارضة، وعندما أدّبوا متمردي واميرو وأروشا الذين قتلوا مبشرين ألمان. ما هؤلاء إلا واشينزي في نظر العساكر. يجب قمعهم وجلدهم وتأديبهم وإرهابهم. وكلما زاد تمردهم اشتدّ عقابهم. هذا هو نهج الشوتزتروبه. بظهور أي بادرة مقاومة، ولو واهية، يزهقون أرواح أولئك الخنازير وينهبون أنعامهم ويحرقون قراهم. تلك هي الأوامر التي ينفذونها بكفاءة وحماس يرعب خصومهم ويكفل لهم التبجيل في أعين العساكر الآخرين والمجتمع. كانوا كواسر فتّاكة، والله.

ولكن وهم يتباجحون بقصصهم ومسيراتهم عبر صحراء الظل المطري عند الجبل العظيم لم يعلموا أنهم سيمضون أعوامًا يقاتلون في المستنقعات والجبال والغابات والسهول، تحت الوابل وفي الجدب، يقتلون ويُقتَلون على أيدي جيوش لا يعلمون عنهم شيئًا: بنجابيون وسيخيون، وفانتيون وأكانيون وهوساويون ويوروبيون، من الكنغو ولوبا، كلهم مرتزقة خاضوا حروب الأوربيين بدلاً عنهم، الألمان لهم شوتزتروبه، والبريطانيون لهم «بنادق الملك الإفريقية» و«قوة حدود غرب إفريقيا الملكية» والأفواج الهندية، والبلجيكيون لهم القوات العامة. وإلى جوارهم جنوب إفريقيون

وبلجيكيون وحشود من المتطوعين الأوربيين الذين يعدون القتل مغامرة، ويسرّهم أن يكونوا في طوع تلك الآلة العظيمة المصممة للغزو والاستعمار. دُهش العساكر برؤية أجناس متنوعة من البشر لم يعرفوا عن وجودهم في هذه الدنيا. ما كانت فداحة الأمر ظاهرة لهم في تلك الأيام الأولى من الحرب، كانوا يسيرون تجاه الحدود، ضبّاطهم الألمان فوق ظهور البغال أمامهم، وزوجاتهم وأطفالهم يتسكعون في ابتهاج من خلفهم، ومن مكان ما كانوا ينهلون طاقةً للضحك والغناء والمؤانسة.

بدأت المناوشات على الحدود عندما حاول القائد الألماني الاستحواذ على مومباسا الواقعة على بعد بضعة أميال. لكن الهدف بعيد عن خطوط إمداد الشوتزتروبه فاضطروا إلى التراجع. تمثّلت الحرب بالنسبة لحمزة وفصيلته طوال الأشهر التالية في غارات ودوريات متكررة لقطع الخطوط الحديدية في شرق إفريقيا البريطانية. أما على الساحل فقد نزل البريطانيون في تنغا. وفي نوفمبر 1914م، وصلت البحرية الملكية وسفنها المرافقة إلى الميناء وطالبت بالاستسلام. تأهبت قوة الشوتزتروبه الصغيرة للمقاومة، مع تراجعها من البلدة خشية قصف سفن البحرية الملكية. أما سكان البلدة الذين لا مربح لهم في هذه الحرب فنكصوا واختبئوا خوفًا أو فرّوا إلى الأرياف إن استطاعوا. وقد كان الهدف من استحواذ هذه البلدة موقعها الحسّاس لكونها المحطة النهائية للسكة الحديدية التي تمتد إلى موشي شمالًا.

انتهى الإنزال البريطاني بكارثة ماحقة. نزلت بضع كتائب، وكانت معظمها من الأفواج الهندية، إلى بر الساحل البعيد عن الميناء. وقد تعمّد قادتهم هذه الخطوة الحذرة لأنهم لا يعلمون أي مقاومة تنتظرهم في البلدة. كان إنزال الأفواج في ظلام الليل، فخاضوا اليمَّ حتى وصل ماؤه خواصرهم. وفي الصباح بلغوا أجمات كثيفة وحشائش عالية دون أي معرفة قاطعة باتجاه

البلدة من موقعهم ذاك. فانساقت الأفواج في طريق كان في تقديرهم الموصل إلى البلدة، فكان عساكر الشوتزتروبه متربصين لهم بمعونة فصائل عُجّل باستدعائها من موشي بالقطار. وحيث إن الشوتزتروبه من أخبر الجيوش بأسلوب الكر والفر وقع الاضطراب بين قوات الإنجليز. فر الحمّالون أول الأمر، ومع تعاظم القتلى فر الجنود، وبعد الاضطرابات المتكررة فر الجميع، حتى إن أولئك الذين ما كادوا ينزلون من السفن للتو فرّوا إلى البحر فورًا.

وبينما يدور القتال كانت البحرية الملكية تطلق قذائفها على البلدة، فهدمت المباني وقتلت عددًا غير معلوم من أهلها. لم يعبأ أحدٌ بالعدِّ. أحد المباني التي استهدفته البحرية الملكية هو المستشفى الذي يعالج فيه الألمان الجرحى. هذا هو النحس الذي تجلبه ويلات الحرب. بعدما انتهى الأمر وطلب الإنجليز هدنةً، مخلّفين غالبية عتادهم وراءهم، بلغ عدد القتلى من جنودهم على الطرقات وفي شوارع البلدة المئات. وعدد غير معلوم من الحمّالين صرعى أو غرقى. لم يعبأ أحدٌ بعدِّ الحمالين الموتى كذلك، لا في تلك اللحظة ولا في أثناء الحرب برمتها. وحالما استقرت المواجهة بين الطرفين ركبت فصيلة حمزة القطار إلى موشي للرجوع إلى موقعهم السابق. وستكون شهور الحرب القادمة للشوتزتروبه شبيهة بتلك التي مضت؛ هيجان مستعر من تقدّمٍ وانسحاب.

لم تخمد شرارة الآلة الإمبريالية البريطانية بعد الإنزال الفاشل، بل وصلت الكتائب العسكرية من مختلف بقاع العالم. كانوا يظنون أن الأمر منتهٍ لا محالة في غضون أشهر، لكن خطط القائد الألماني تحدّتهم. كلما حسبت القوات الإمبريالية البريطانية أنها أطبقت على أنفاس الشوتزتروبه تجدهم ينسلون من بين أصابعهم، تاركين مرضاهم وجرحاهم للبريطانيين كي يعنوا بهم. وكان عساكر الشوتزتروبه أنفسهم منهكين، وعدد كبير منهم مرضى، لكنهم

منتشون من الغارات المباغتة والانسحابات السريعة التي كادت لخصومهم. وكانوا يطعمون أنفسهم مما يجدونه في القرى والمزارع، ناهبين أو مصادرين ما يقع تحت أيديهم.

حوصرت قوات الشوتزتروبه من جميع النواحي، فما كان لهم إلا الانسحاب في رتلين؛ واحد بمحاذاة البحيرات إلى الغرب والآخر متجه إلى الجنوب من موشي. كان حمزة في الرتل المتجه جنوبًا. جرّوا مدافعهم وعتادهم وزوجاتهم وخدمهم وأمتعتهم في خط الانسحاب قاطعين سلسلة جبال أولوغورو. وفي مسيرة الانسحاب من مدينة موروغورو عبر جبال الأولوغورو قُتل كومبا قائد فصيلتهم. انقذفت نحو صدره قطعة معدنية كبيرة انفصلت عن قنبلة، فمزّقت جسده. كما قُتل آخرون بالقصف نفسه أو لم يعودوا قط. ظلت فصيلة حمزة تنسحب ببطء خلال الشهور الطويلة التالية نحو الجنوب تجاه نهر روفيجي، تقاتل في مسيرتها بلا انقطاع في غارات قصيرة أو في معارك محتدمة، كمعركة كيباتي التي صرع فيها الآلاف.

كان فيضان روفيجي ذلك العام مكتسحًا والبعوض متفشيًّا. قتلت حمى البول الأسود من العساكر أكثر مما فعلت الحرب. التماسيح تنهش الحمالين وهم يعبرون المستنقعات. الضباع تنبش الموتى من مراقدهم. كابوس. عبروا نهر روفيجي أخيرًا ونشبت معركة ماهيوا، وكانت أفظع معركة خاضتها فصيلة حمزة والشوتزتروبه. انتصروا فيها انتصارًا كلّفهم الكثير، ولكنهم تابعوا انسحابهم إلى الهضاب الجنوبية، ثم إلى نهر روفوما والحدود مع شرق إفريقيا البرتغالية. وفي الطريق تركوا العتاد والزوجات والأطفال ليغنم بهم البريطانيون. تاهوا أوقاتًا كثيرة رغم خرائطهم، فاضطروا إلى القبض على أهالي المنطقة واستجوابهم. لا بد أن من بين ظهراني العساكر من يعرف لغة المنطقة بما يكفي لطرح الأسئلة، إضافةً إلى أن إيقاع الألم الكافي كفيل

باستخلاص الأجوبة. لم يأمر أحدٌ العساكر بممارسة العنف أو الوحشية على الناس. كانوا يعلمون ما يريدون ولا يحتاجون توجيهًا. في تلك المرحلة من الحرب كان معظم الجنود المشاركين في القتال إما أفارقة أو هنود: فصائل من نياسالاند وأوغندا، من نيجيريا وساحل الذهب، من الكونغو ومن الهند، وفي الجانب الآخر الشوتزتروبه الأفارقة.

كان جنود الشوتزتروبه وحمّالوهم يتساقطون صرعى في ساحات المعارك وعلى فراش المرض، ومنهم من هرب، ومع هذا فإن ضبّاطهم تابعوا القتال بتعنّت ومكابرة قاربت حد الهوس. ترك العساكر الأرض مدمّرة، أهلها في سغبٍ وموت يحصد مئات الآلاف، والعساكر خائضون خوضًا أعمى مهلكًا في قضية لا يعلمون أصلها، طموحها عبثي يرمي إلى استعبادهم. قضت أفواج من الحمالين نحبها من الملاريا والزحار والإنهاك، ولم يعبأ أحدٌ بعدّهم. فرّوا من الخدمة العسكرية في رعب مطبق ليتلقفهم الموت في الريف القاحل. تحوّلت تلك الوقائع بعد سنين إلى حكايات عن بطولات عجيبة لامبالية، عرض جانبي في مسرح التراجيديات العظيمة في أوروبا، ولكن في أعين مَن عاشها كانت عهدًا تشرّبت فيه أرضهم الدماء وتبعثرت عليها الجثث.

في خضم كل هذا حرص الضباط على أن لا يسقطوا أحكام الوجاهة الأوروبية. فعندما يقيمون مخيمهم يعتزل الألمان في ناحية بعيدة عن العساكر، وينامون في أسرّة متنقلة عليها ناموسيات. إن وقفوا عند جدول لا يشربون إلا من منبعه ويشرب العساكر من مجراه، ويشرب الحمالون والحيوانات في مكان أبعد من ذلك. بذل الضباط أقصى جهدهم للاجتماع كل مساء على وجبة العشاء، محافظين على اللباقة والكياسة قدر المستطاع. لا يحمّلون أنفسهم أي جهد جسماني، فهذا من مهام العساكر أو الحمالين،

كنقل العتاد أو البحث عن الطعام، أو نصب الخيام، أو الطهي أو تنظيف الأطباق. لا يخالطون الفصائل ولا يأكلون معهم، ويطلبون إظهار التبجيل كيفما استطاعوا. كان كل رجل من قوات الشوتزتروبه في ذلك الحين، ضبّاطًا وأفرادًا، يرتدي أيما قطعة ثياب يعثر عليها من زملاء السلاح والأعداء، ما عدّه بعض العساكر تصريحًا للتزين بالريش والشارات، وإن كان ضبّاطهم ما زالوا يختالون كأنهم يتحلّون بالأبازيم الفضية والكتفيات الذهبية. حتى العساكر حرصوا على التمسّك بكبريائهم. فكانوا يصرّون على الترفع عن المعاملة بالمثل مع الحمالين ويرون أن حمل المتاع أدنى من شرفهم العسكري.

من بين جميع ضباط البوما لم يبقَ في السَرية سوى الطبيب العسكري والفيلدفيبل فالتر المسمى جوغو. قُتل ضابطان أثناء الانسحاب من روفيجي، وحل مكانهما ضابط من الفرقة الموسيقية ومستوطنٌ متطوع. ثلاثة ضباط نُقلوا إلى سريات أخرى. كل العساكر الذين انضموا مع حمزة إما قتلى أو أسرى أو مفقودين. صار الرجال بعد شهور وأعوام من المناورات المباغتة والاشتباكات الفادحة مكسورين، شُعثًا، هَزلى. نحل جسد الطبيب العسكري وطالت لحيته كثّةً شقراء. وانشغل بتطبيب الجراح ومداواة الأمراض، مع صرف الجرعات اليومية من الكينين للفصائل طالما لم تنفد مؤونته. حاول استبقاء المؤن ما استطاع، فمنع إعطاء الكينين للحمالين. وما زال معاونه النحيف البارد معه. والعجيب أن الطبيب العسكري كان أكثر ابتهاجًا مما كان في المعسكر، كثير التبسم والضحك وهو يؤدي مهامه الشنيعة، ولا عجب في ذلك إذ إن بشاشته هذه مصدرها مؤونته السرية من البراندي والمواد الأخرى المحفوظة في خزانة الأدوية. كانت حمى الملاريا تقعده عن العمل عدة ساعات، وتعاوده بانتظام كل يومين. فيقوم بعد هذه النوبات خائر القوى، أنحل من قبل، وابتساماته أوهى مما كانت.

أما الفيلدفيبل فالغضب يطيش صوابه عند كل ضائقة تواجههم، ويغذّي هيجانه بالبانغي وجعة الدخن الهندي التي يصادرونها من القرويين. لم يمرض قط كما يمرض بقية الضباط من حين إلى حين. كان في سورات غضبه يضرب العساكر والحمالين بأي شيء في يده: عصا أو سوط أو قطعة حطب. وقد تعاظم أضعافًا مقتُه وبغضه لأهالي المناطق التي ينهبونها أكثر مما كان في المعسكر. كانوا في نظره متوحشين، ويقطر السم من كلماته حين يتكلم عنهم أكثر مما كان يبدي للخصوم الإنجليز. أما بغضه لحمزة فمتأصل في قلبه، وكان يفرط في إذلاله كلما أمسكه زالًّا في خطأ مستصغر أو متخيل. تجنّبه حمزة قدر الإمكان وإن كان ليظن أحيانًا أن الفيلدفيبل يسعى إليه سعيًّا.

كان حمزة ملازمًا للأوبرلويتنانت بأمر القائد وتحت إصراره، ما أثار نقمة الضباط، فبعضهم يتهكم والفيلدفيبل يزداد كرهًا. انهال العساكر بمظالمهم على حمزة وطلبوا منه أن يوصلها إلى قائده. فكان حمزة يومئ رأسه ولا يرد. كان الضابط الأعلى يأمر حمزة بمدّ فراشه بجوار سريره وقت الغسق لمدة ساعة أو اثنتين وهما يتابعان ما سمّاه دروس المحادثة. بعدها يحمل حمزة فراشه ويعود إلى مخيم العساكر. كان الضابط يمد يده في بعض الليالي ليتحسس وجوده في الظلام. يقول: ما زلتَ هنا. أنت هادئ جدًا. لا يدري حمزة ما يبغيه منه. شعر بأنه محبوس في حضن الضابط، متقزز من الحميمية الجبرية وإن كان من الأيسر تفاديها في الحرب أكثر من البوما. كان الضابط الأعلى أكثر انشغالًا في الميدان بالغارات والاحتماء والبحث عن الطعام، حتى بدت له دروس المحادثة أحيانًا عبثية.

خفتت الهالة الساخرة المزدرية التي كانت تحيط بالضابط مع تفاقم الصعوبات، فأصبح فاتر الروح منكمشًا على نفسه، يصمت أحيانًا أوقاتًا طويلة وهو يحاول تجاوز تقلبات مزاجه ما بين الصفو والعكر. حافظ

الضباط الألمان الآخرون على الألفة المتجهمة فيما بينهم، ما أظهر انزواء الأوبرلويتنانت أكثر. لا شك أن ويلات الحرمان والحرب أضعفت الكثيرين منهم، لكنها جعلت القائد متقهقرًا مترددًا بعدما كان مهيمنًا مقدامًا. كان سريع الانزعاج من الضباط والعساكر، عديم الصبر مع القرويين الذين ينهبونهم، مصدرًا أحيانًا أحكامًا قاسية عقابًا لما سمّاه «أعمال تخريب»، كإحراق أكواخهم بعد مصادرة جميع ممتلكاتهم. اقترح الضباط في إحدى القرى إعدام كبيرها لرفضه الإفصاح عن مكان مخزن تحت الأرض لليام، ولم يتوصلوا إليه إلا بعد إبراح فتى ضربًا حتى أجبر على إخبارهم. أشاح القائد بصره أمام طلب ضباطه ثم أومأ وسار بعيدًا. أطلق الفيلدفيبل رصاصةً خرقت رأس الشيخ.

نفّذ حمزة عبر مئات الأميال الكابوسية التي قطعوها بإزهاق الأرواح أيَّ أمر يقرر قائده إصداره بحكم الظروف القاهرة، وحاول قدر المستطاع أن يوفر له مطالبه. اجتهد في ألا يلفت الأنظار إلى نفسه. سار مع الفصيلة، وجرى وزحف كما تدرب، وأطلق النار من مسدسه إن اضطر وإن لم يعلم يقينًا إن كان قد أصاب أحدًا قط. احتمى من النيران وتسلل وهتف كما يفعل بقية العساكر، لكنه أطلق الرصاص على الظلال متفاديًا الأهداف. وبمعجزة من حسن الطالع لم يضطر قط إلى الاشتباك في قتال مباشر، أو قتل أحد القرويين الذين يضطر العساكر إلى القصاص منهم بعد خيانة أو كيد. أكل من الطعام المسروق كما أكل الجميع، وشهد دمار البلاد ثم ولّى مسرعًا كما ولّوا جميعًا. كان يعيش حالة الرعب منذ اللحظة التي يفتح فيها عينيه مع انتشار الضوء، ولكن الإنهاك يدفعه أحيانًا إلى حالة من اللا خوف، دون تظاهر ولا استبسال، مجرد انسلاخ تام من اللحظة وانفتاح كامل لأي أمر يقع له. وأحيانًا كان يتردّى في شراك اليأس.

6

جرت أخبار حرب تنغا على كل لسان أسابيع طويلة، وعلى طول الساحل، حتى هدأت الأمور بعد الهجمة الفاشلة. لم يُفاجأ أحد، كانوا يعلمون أن لا قِبَل للبريطانيين بشراسة الشوتزتروبه. ومع تواتر الأنباء من تنغا إلى جنوب الساحل انتشرت الشائعات والمبالغات حول ضراوة شوتزتروبه وانضباطهم، والتبعثر والاضطراب الذي وقعت فيه الأفواج الهندية التي أُلقي اللوم عليها لتسببها بإيقاع الذعر. قال خليفة إنهم لا بد متلقون خبرًا من إلياس عن هذا النصر الألماني، لن يقدر على مقاومة فرصة التغني بمدائح شوتزتروبه. لكنهم لم يتلقوا منه شيئًا.

كان رد الإنجليز على هذه الخسارة أن فرضت البحرية الملكية حصارًا على الساحل. توقفت التجارة مع زنجبار وومومباسا وبيمبا، ناهيك بالتجارة على نطاق أوسع مع الدول الأبعد بعبور المحيط. ما بين ليلة وضحاها لاحظ الناس شحّ البضائع التي هرع التجار إلى اكتنازها، حفاظًا عليها من النفاد وتحرّيًا لارتفاع أسعارها وحمايتها من أيدي السلطات الألمانية التي لا ريب إن علمت بمكانها ستصادر كل شيء لها ولقوّاتها. وجد ناصر بياشارا نفسه في وضع أشدّ مضضًا من حاله بعد وفاة أبيه، وقد كان في الأشهر الماضية يتعافى ببطء من الضربة القاصمة التي حلّت عليه بعدما سدّد الديون. كان قد التزم بعقود شراء بضائع منوعة من الساحل للتوزيع جملةً على الزبائن في الداخل: سكر هندي، وقمح للطحن، ودخن هندي وأرز، كلها مدفوعة

الثمن وبانتظار شحنها. حتى قَطَع الحصار مورده الطموح الذي أمل أن يعوّض به خسائره للدائنين.

لم يكن التجّار أمثال ناصر بياشارا وحدهم من تأثر في الحصار. كل شيء أضحى أندر من قبل: الأرز والقهوة والشاي - وكلها مما يُزرع في البلد - والسكر والأسماك والدقيق. كان عساكر شوتزتروبه يأكلون من ثمار الأرض أينما نزلوا، ولأن رحى الحرب دائرة فالأرض كلها تحت طوعهم. السمك وفير، وجوز الهند والموز والكسافا ما زال ينمو رغم أنوف البحرية الملكية والشوتزتروبه. مرّت مدة تقايض الناس فيه على سبيل الشراء: قميص مقابل سلة مانغو، ولفة من القطن نظير كبش. لم يهتم أحد بالمال حينها. وعندما لم يجدوا أغراضًا تصلح للمقايضة كانت الحلي هي البديل. كل أسرة تملك قطعًا من الحلي، إما حازوها مهرًا أو إرثًا. ولم يخفَ عن التجار والمقايضين قيمة الذهب والأحجار ولم يستطيعوا مقاومتها إن قُدّمت لهم. كان الجميع فزعين حينها من شح البضائع.

والأخبار كذلك شحيحة عن حرب الداخل، وما يسمعون عنها يصلهم من السلطة الألمانية. بدا أن تجربة الإنجليز في تنغا كانت كفيلة بصدودهم عن الأمر بعملية إنزال أخرى في أي مكان على الساحل، ومع امتداد الهدوء رغم وقوع الحصار تكيّف الناس وتأقلموا، وفي خضم المعمعة والاضطراب تناسوا دفع الضرائب للسلطات الألمانية. فانتعشت التجارة والمقايضة وإن كانت أحوال ناصر بياشارا ما زالت تترنح على شفا الانهيار.

قال له خليفة: «لم تجلب لنا حذاقتك إلا الخراب».

كان التاجر يكره النبرة التي تظهر في صوت خليفة عند حديثه معه، كما لو كان مبتدئًا جاهلًا بعمله. انقلب وجهه وهو يحاول جهده ألا يفور غضبه

لما قاله خليفة. حدّق ممتعضًا بشفتين مزمومتين، ثم أشاح بوجهه متمالكًا نفسه قبل أن يرد بتمهل. لم يكن مستعدًا بعد للمواجهة. «ليس في الأمر حذاقة. رأيتُ أن علينا فعل شيء لجبر الخسارة. أنّى لي أن أعرف عن الحرب والحصار؟».

قال خليفة: «إيداعك كل أموالك في مشروع واحد ليس من الذكاء التجاري قط».

قال ناصر بياشارا غاضبًا: «ما كنت تريدني أن أفعل؟ أنتظر حتى أموت فقرًا؟ لم أضع كل مالي في ذلك المشروع. ما زالت ورشة الأخشاب في حوزتنا». ثم تنفس نفسًا عميقًا وأكمل في صوت موزون: «وإن كنتَ تفهم في التجارة أين كنت والديون تتجمع في زمن أبي؟ لماذا لم تقل له هذا الكلام بدلًا من تبرمك عندي؟».

قال خليفة: «لم أكن أعلم عن تعاملاته مع التجار. قلت لك هذا من قبل».

أجاب ناصر بياشارا: «كنت كاتبه. من واجبك أن تعلم. من واجبك حفظ السجلات».

سأل خليفة متأنيًا والاحتقار في ابتسامته: «أتلومني على تكتّم أبيك؟».

أخفض ناصر بياشارا نظارته التي كانت معلّقة فوق رأسه خلال هذه المحادثة، وعاد بتركيزه إلى سجل بين يديه يفتّش فيه للمرة الألف عن أية أدلة لمعاملات والده مع التجار، لربما فاته منها شيء في مطالعاته السابقة. لم يبادل خليفة كلمةً بقية اليوم وتجنب النظر إليه كليًا. واستمر في صدّه وسكوته أيامًا، لا يتكلم إلا بأدب بارد عند الضرورة. لم تكن الأشغال كثيرة على أية حال. كان ناصر بياشارا يقضي معظم يومه في المكتب الصغير في ورشته.

وبقية الوقت يجلسان فيه بالمكتب ويدردشان مع أي زائر. لم يناقشا أي أمر ذي أهمية، حتى كان اليوم الذي أعلن فيه ناصر بياشارا أنه وجد مستأجرًا للمكتب السفلي سوف يحوّله إلى دكان. «سأنقل السجلات إلى ورشة الخشب وأبيع كل الأثاث. من اليوم سوف تتعهد المستودع، فلا توجد سجلات تحفظها، ولو احتجتُ إلى قيد السجلات فسوف أتولاها أنا. وسوف أخفض أيضًا من أجرك. كلنا تضررنا من الأوضاع الحالية».

قال ما قاله في غلظة تردع أي نقاش. فلما أتم كلامه وضع طاقيته على رأسه وصعد إلى بيته.

قالت بي عائشة: «يريد التخلص منك، الخسيس الجاحد البائس، المنافق اللص التافه، بعد كل ما فعلته له ولأبيه». تدفقت منها الشتائم نهرًا ظل خليفة يسمع هديره ممتنًّا. كان يعلم أن لا خيار أمام ناصر بياشارا إلا الاقتطاع من أجره مضطرًا، ومع هذا استمتع بالسباب المكيل إلى التاجيري الصغير. وعجب من أن ذاك الفتى الذي عهده خجولًا هيّابًا قادر على الحزم. وابتسم خفية على ما جرى. برأيه أن إيجار المكتب تصرف ينم عن ذعر التاجر، لكنه ليس ذا أهمية ويمكن التراجع عنه متى أراد. لكن ماذا يعمل في مستودع شبه خالٍ؟ خشي أن بي عائشة محقّة، أن التاجر يخفف من مهامه حتى يأتي اليوم الذي لا يدفع له أجرًا البتة. ربما لن يكون التاجر تاجرًا عما قريب. فمن يحتاج كاتبًا في هذه الأحوال التعيسة؟

لكن التاجر لم يتخلّص من خليفة. ومع تواري أخبار الحرب إلى حفنة من الشائعات عن قتال في البر الداخل قرّر ناصر بياشارا الاستثمار في الخشب لأعمال الإصلاح والبناء القادمة لا محالة بعد انتهاء الأزمة. لا يعقل أن تستمر الحرب أكثر من ذلك. قرّر التاجر هذا دون الرجوع إلى خليفة ولا استشارته، وحَفَظ سجلاته وقيّد معاملاته بنفسه، فلا حاجة له بكاتب غير

كفء. أما خليفة فتعهّد المستودع بالتنظيف والتنظيم استعدادًا لاستقبال شحنات الخشب التي ابتاعها التاجر. وإن ظلّ يقيد ويحسب في سجلاتٍ خشية الاتهام بالإهمال أو ربما ما هو أسوأ في المستقبل.

ذات يوم تكلّم أحد معارف عامر بياشارا القدامى، وهو النوخذة راشد مولدي، مع ناصر بياشارا عن مشروع يفكّر به لنقل الأرز والسكر من بيمبا بمركبه الذي يقبع بلا عمل في المرسى. علم التاجر دون الخوض في التفاصيل الدقيقة أن راشد مولدي أحد عناصر شبكة التجار المريبة التي كان والده يتعامل معها. فرفض لأن في الأمر مخاطرة عالية. إن قبض عليه الإنجليز سيغرقون مركبه ويحبسونه أعوامًا. وإن علم الألمان أنه هرّب كميات من الأرز والسكر سوف يصادرونها لمنفعتهم ويجلدونه بالكيبوكو [بالسوط] لاختزانه السلع. توجّه راشد مولدي إلى خليفة الذي كان أكثر اطلاعًا على هذا النوع من المعاملات وأوضح له خطته، فأنصت خليفة إليه وسأله إن كان يستطيع جلب شحنة بالدين. أهذا ممكن؟ قال راشد مولدي إن سمعته في موطنه بيمبا جيدة، لكنه يخشى من المخاطر الحاصلة لو أخذ الأمر على عاتقه وحده. لو تعثّر المشروع فلا يملك ما يكفي للنهوض بعدها وقد يخسر مركبه. قال خليفة إن التاجر مجرد شاب متوتر الأعصاب ويحتاج إلى قليل من الإقناع. واقترح أن يجلب راشد مولدي شحنة صغيرة بالدين برهانًا على نجاح الخطة، ثم يحادثان التاجر مرة أخرى. جلب راشد مولدي شحنة ليست كبيرة من الأرز والسكر كما اتفقا، ولما أودعاها في أمان بالمستودع أحضرا ناصر بياشارا كي يراها.

قال خليفة: «أنت لا تعلم عن وجودها هنا. تعطيني المال لأشتري البضاعة باسمي وأنا أبيعها. ثم نصرف على المشروع من أرباحه. نشتري بالأرباح سلعًا أكثر. لا حاجة لتورطك بالأمر. وأي ربح نحصّله نقسّمه

بيننا: أربعة أقسام لك، وأربعة أقسام لراشد مولدي، وقسمان لي. ولا حاجة إلى أن تعرف أكثر من هذا عن الأمر».

تطلّب الأمر بعض المفاوضات، ودخلوا في جدالات كثيرة، ولكن الأمر تم. وخلال الأعوام المتبقية من الحصار كان راشد مولدي يحضر شحنات صغيرة مما يمكن أن يبتاعه في بيمبا، وخليفة يخفيها في المستودع ويبيعها للتجار الذين يثق بهم. لم يكسبوا من مشروعهم ثروات طائلة لكنه أتاح لهم ممارسة التجارة، وأوجد لخليفة دورًا جديدًا، وهو تاجر البضائع المهرّبة إضافة إلى أمين المستودع. وكان يعامل ناصر بياشارا بمنتهى التهذيب، وإن ظهر الانزعاج أحيانًا، لكنهما تركا بعضهما دون تدخل.

***

دخلت القوات البريطانية تنغا في الثالث من يوليو عام 1916م، أي بعد نحو عامين من محاولتها الأولى الكارثية في عام 1914م. استحوذت قوة صغيرة مكوّنة من بضع مئات من الفصائل الهندية على الميناء دون إطلاق رصاصة واحدة. وجدوا بلدة ما زالت تحمل ندوب قصف البحرية الملكية، ووجدوا الميناء والمكاتب الجمركية والمرسى أنقاضًا، لأن الألمان فجّروها قبل انسحابهم. غادرت القوات الألمانية المنطقة إلى الداخل للّحاق بقائدهم الذي يحشد قواته قبل الانسحاب أكثر تجاه الجنوب. انتهت الحرب في ذاك الجزء من الساحل، وإن كان الصراع سيشتد احتدامًا في أغسطس في باجامويو ودار السلام. وانتهى كذلك الحصار واستؤنفت التجارة على مهل مع مومباسا وبيمبا وزنجبار. وبدأت أخبار الحرب في الداخل تصل بتفاصيل أوضح. والجميع واثق أن نهاية الحرب وشيكة. يقولون إنها ستنتهي قبل أن تنتهي الأمطار الموسمية.

كانت عافية في الثالثة عشرة عندما استحوذ الإنجليز على الساحل. مرّ أكثر من عامين الآن على رحيل إلياس إلى دار السلام، ولم يسمعوا عنه أي خبر طوال هذه المدة. أخبرها بابا خليفة أن الأخبار من الداخل تقول إن المعارك دائرة في كل مكان وأن القتلى كُثر، من الألمان والبريطانيين والجنوب إفريقيين والهنود، ولكن معظمهم أفارقة. قال إن الأفارقة يموتون في تصفية الحسابات الأوروبية هذه، أولئك المجنّدون في الشوتزتروبه وبنادق الملك الإفريقية وجيوش الغرب الإفريقي. أقنع المعلم عبدالله حبيب زميل إلياس في مصنع السيزال بأن يسأل من يعرف عنه. أكّد ما يعرفونه وهو أن إلياس أُرسل إلى دار السلام للتدريب، وعرف أنه تدرّب ليكون جندي إشارة، وأنه انتقل لبدء خدمته في منطقة ليندي في الجنوب. لم يستطع حبيب معرفة أكثر من هذا، ولم يبقَ أحد ليسأله لأن المدير الألماني وقع في قبضة البريطانيين.

سمع خليفة أن تابورا وقعت بيد القوات العامة البلجيكية، وأن معركتها كانت دامية. وأن أشرس الاشتباكات انتقلت الآن إلى الجنوب في منطقة ليندي حيث يفترضون أن إلياس مكلّف في صفوف كتيبة الإشارة. لم يذكر أيًا من هذا لعافية، لكنه بدأ يشعر أن شؤمًا لا بد محيط بصمت أخيها الطويل. حاول أن يهوّن من مخاوفها، فقال لها: «عمل جندي الإشارة من أكثر الأعمال العسكرية أمانًا. سيكون بخير. كل ما عليه فعله هو أن يقف على أي مكان مرتفع بعيدًا جدًا عن أي قتال، وأن يبعث الرسائل باستعمال المرايا. لا تقلقي. ستصلنا رسالة منه قريبًا».

***

هجرت عافية الآن طفولتها، فأصبحت كيجانا، شابة، وبدأت ترى النقمات التي لا تنتهي في إقصاء النساء عن الحياة. قلّت زياراتها لخالدة لأن

بي عائشة أمرت بذلك. قالت لها إن تلك أسرة من المحتالين، وإن النساء الفارغات التي تصاحبهن خالدة يعشقن الغيبة والنميمة. عار عليهن. وعافية تعلم أن لا حديث على لسان بي عائشة تكرره وتستمتع به إلا عيوب جيرانها ونقائصهم. لم تبدِ اعتراضًا على هذا الحظر ولكنها ظلّت تزورهن دون أن تخبر بي عائشة، ولم تخبر خالدة ما قيل عنها وعن زوجها ولا عن الشتائم التي نالت صاحباتها. ما خلا بعض الزيارات لخالدة أو لجميلة كانت تقضي جلّ يومها إما محبوسة في البيت ليلًا نهارًا أو مستترة بالعباءة البَيْبُوي إن أرادت الخروج. شعرت بأن شيئًا في داخلها ينكمش ويتضاءل ويهتاج، كأنها تنتظر من يؤنّبها. كثرت الأمور التي لا يصح الآن وقد كبرت فعلها لأنها عيب. لا يجوز أن تلمس يد ولد أو رجل حتى للسلام. لا يجوز أن تخاطب ولدًا أو رجلًا في الشارع إلا إن خاطبها أولًا وكان شخصًا تعرفه. لا يجوز أن تبتسم لغريب، ويجب أن تمشي غاضة البصر لتفادي النظر في عيني رجل. أخذت بي عائشة تراقب تحركاتها، أو حاولت بالأحرى، وتنصحها في لهجة حازمة حول سلوكها ومَن الأشخاص الذين لا يصح أن تختلط بهم وما التصرفات التي لا يليق أن تفعلها.

ما زالت جميلة مخطوبة لم تتزوج، وقد صرّحت بي عائشة أن الزواج لن يتم على الأرجح. هذا ما يحدث عادةً إن طالت مدة الخطبة. لا بد أن أحد الطرفين متردد في إتمام الأمر. كان خطيب جميلة يعيش في زنجبار وينوي الانتقال والعيش هنا بعد الزواج، أمر غير مستغرب في نظر بي عائشة. مَن لا يريد الرحيل عن زنجبار إن سنحت له الفرصة؟ كل مرض يخطر على بالك موجود في زنجبار، وفوق هذا المعاصي والخيبات. رفعت عافية كتفها وتركت مرارة بي عائشة تمرّ بلا صدود. لم يبدُ على أسرة جميلة أي قلق بسبب هذا التأجيل، وكانوا يتكلّمون عن الأمر صراحةً بلا امتعاض ولا تشكّك،

يرحبون بعافية متى زارتهم ويشاركون معها خططهم. خصّصوا الحجرة السفلية التي كان إلياس مستأجرها لتكون بيت جميلة الجديد بعد الزواج، وانشغلت العروس بتزيينها.

لم تصدر بي عائشة أمرها بعد بحظر زيارة جميلة، لكن عافية أحسّت بتكدّس امتعاضاتها من صديقتها. «كم عمر جميلة الآن؟ لا شك أنها قاربت التاسعة عشرة. الأفضل أن يزوّجوها قبل أن تنجرف وراء الكلام الفارغ. أنت لا تعلمين حيل الرجال وبلاهة الفتيات. تذكري كلامي يا صغيرة، جلبوا المتاعب لأنفسهم».

أنا لست صغيرة، قالتها عافية في نفسها وحاولت ألا تتضايق. منذ أن عاشت مع بي عائشة لم تفعل إلا كل ما يرضيها، ولو عصت فإنها تعصي في أمور تافهة لا ضرر فيها. زياراتها السّرية لخالدة كانت أعظم تمرد تجرأت عافية بارتكابه، وما خلاها صغائر، مثل إخفاء موزة من مشتريات السوق لتأكلها في المساء إن جاعت، أو إخفاء سلسلة من القواقع وجدتها جميلة وسعدة في علبة حلي أمهما، وقدّمتاها لعافية هدية. لا ترضى بي مكوبوا بالتزين. وإن عرفت بي عائشة عن تصرفاتها المارقة الصغيرة فإنها تبتسم غير ممانعة. تقول للفتاة: أوناكوا مجانجا وي، أصبحتِ خبيثة. وكان بابا يهب لنجدتها أحيانًا لكن بي عائشة كانت ترجئ أشدّ أوامرها حزمًا إلى الأوقات التي تخلو فيها مع عافية.

بعدما أغلق التاجر المكتب وانتقل إلى ورشة الأخشاب أنقذ بابا من بقاياه سجلًّا شبه خالٍ، وأحضره إلى البيت لها. كانت صفحاته ثخينة ومصقولة، والغلاف رخامي معرّق بالرمادي والوردي. تحسّرت على إفساد الصفحات الجميلة بخربشاتها الغليظة. وكان يحضر لها أعدادًا قديمة من صحيفة «Kiongozi» حيثما وجدها. لم تعد تصدر الصحيفة منذ وصول البريطانيين

ولكن الناس ما زالوا يتداولون أعدادها السابقة. وعثر خليفة أيضًا عن طريق المعلم عبدالله على بعض نسخ «Rafiki Yangu». فكانت هاتان الصحيفتان مواد القراءة التي تعكف على مطالعتها ونسخ فقرات كاملة منها في تدريبات الكتابة. كانت بي عائشة تستنكر هذه الإصدارات لأنها حسب قولها كلام كفار يريدون بأباطيلهم إخراج الناس من دينهم. يتمارون في شرورهم بلا رادع. أحيانًا يعنّ لبي عائشة أن تنشد قصيدةً وهي تعمل، وإن كان مزاجها رائقًا جلست مع عافية وأملت عليها الكلمات وتابعت تهجئتها بصبر. ثم تقرأ عافية الأبيات عليها فتقول بي عائشة: أريني. وتبتسم إعجابًا ببراعتها. عافية كذلك سعيدة بتقدّمها ولكنها لا ترى أنها وصلت إلى البراعة التي تمتدحها بي عائشة، فهي لا تستطيع القراءة إلا ببطء، أما كتابتها فعسيرة وأحرفها متقلقلة، مقارنة بخط بابا الأنيق.

قال خليفة: «يجب أن تستمري في التدريب. ابذلي أقصى جهدك».

قالت بي عائشة: «ما حاجتكِ إلى أن تكتبي مثلما يكتب؟ إن وظيفته كاتب. أنت لن تكوني كاتبة يا صغيرة».

أنا لست صغيرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

في عامها الخامس عشر، في أول أيام العيد في تلك السنة، ارتدت عافية فستانًا خاطته جميلة وسعدة لها هديةً. صدر الفستان من الساتان الأزرق الملفوف بإحكام على جسدها. رقبته دائرية مهدّبة بالدانتيل الأبيض. وتنورته طويلة ذات طيّات، قماشها من البوبلين السماوي المطبوع ببراعم خضراء صغيرة. تجمّعت قطع القماش من فساتين سابقة متفرقة. وكانت جميلة بارعة

في تنسيق الأقمشة وخياطة الفساتين، وهي من صمّمت هذا الفستان. لمّا جرّبت عافية الفستان لأول مرة في منزل الأختين ابتسمتا لبعضهما فخرًا بصنع أيديهما، وقالا لها أن الفستان يناسبها. كان أجمل فستان ترتديه في حياتها. أخفته تحت البَيبوي في طريق عودتها إلى المنزل، ثم دسّته في خزانة في حجرتها. أنبأها حدسها أنها ستلقى استنكارًا.

معظم الناس يلبسون الجديد في العيد: فستان أو كانغا جديدين للنساء، وكانزو [ثوب] وطاقية جديدة أو حتى سترة للرجال. ما زالت الأحوال متعسرة حتى بعد رفع الحصار، ولكنها متأكدة أنها سوف تتلقى فستانًا من بي مكوبوا. ليس فستانًا جديدًا، مجرد فستان قديم صنعته بي مكوبوا لنفسها منذ سنوات وعدّلته الآن ليناسب مقاس عافية. كانت عافية نحيلة وفي طور النمو، والفستان واسع أكبر من جسدها. لكن بي عائشة قالت إن هذه ليست مشكلة، سوف تكبرين ويناسبك. لبسته ليلة العيد واستعرضت به في البيت، فرأت وجه بابا من وراء ظهر بي عائشة يرثي حالها ويبتسم إشفاقًا.

في صباح أول يوم عيد أدّت عافية مهامها وساعدت في إعداد إفطار العيد بملابس البيت. ولكن بعد أن انتهت الإعدادات في الضحى وقبل أن يجلسوا لتناول الفطور ذهبت إلى حجرتها لتغيّر ملابسها. تدري أنهما ينتظران أن تخرج بالفستان الذي عدّلته بي عائشة. لكنها ارتدت الفستان الآخر هدية صديقتيها، الفستان الذي لم تخبر بي عائشة ولا بابا عنه. فلما خرجت إليهما بعد دقائق هزّ بابا رأسه استحسانًا وابتسم، ورفع كفيه يصفق بدون صوت لها.

قال: «ما أجمله! الآن تبدين كالأميرة، وليس كيتيمة. من أين لك هذا الفستان؟»

قالت عافية: «صنعته جميلة وسعدة لي».

ظلت بي عائشة تنظر إلى فستانها في صمت، فلما حسبت عافية أنها ستأمرها بالذهاب إلى حجرتها وتغيير ثيابها ارتسمت ابتسامة مترددة على محيا بي عائشة وقالت: «أصبحتْ شابة».

تجلّى مغزى كلمات بي عائشة ببطء خلال الأشهر التالية. كلما تأهبت عافية للخروج سألتها بي عائشة إلى أين تذهب ولماذا. كلما عادت إلى البيت تطلب تقريرًا بمن قابلت وماذا قيل. وتدريجيًا، ودون أن تنتبه عافية إلى ما تفعله، وجدت نفسها تطلب من بي عائشة الإذن قبل الخروج. وبي عائشة تقيّم ما ترتديه، إما استحسانًا أو تأنيبًا حسب ما تراه مناسبًا. أما فستان العيد فقد دخل حيز المستنكرات منذ ذلك الحين لأنه ضيق برأي بي عائشة، ضيق من ناحية الصدر، فاضح جدًا. حتى بوجود بابا أصبحت عافية ملزمة بلبس الكانغا حتى لا يظهر منها إلا وجهها. وأخذت بي عائشة تحسب مواعيد الدورة الشهرية وتسأل عافية عنها. لم تكد عافية تتخطى نفورها وتتأقلم مع ما يحدث في جسدها أثناء الدورة حتى أصبحت تتعرض لاستجواب مهين ومطالبات بوصف اللون والغزارة.

تكلّمها بي عائشة غالبًا بنبرة قاسية، تلمس بين كلماتها عدم رضا. ولا يظهر رضاها عن عافية إلا حينما تصلي معها أو تجلس معها لتلاوة القرآن في العصر. فإن نوت عافية زيارة صديقاتها خصّصت وقتًا مستقطعًا قبل الزيارة تبالغ فيه بالتعبّد، بل إنها أصبحت تفعل هذا من حين إلى آخر لا لشيء إلا لتضمن الرضا. أحسّت أنها مطوّقة طوال الوقت، تحت المراقبة، كأنها تفكر سرًّا بارتكاب الآثام. وكانت واثقة أن بي عائشة تفتّش حجرتها عندما تخرج. خالط امتعاضها من هذا شعورًا بالذنب لأنها أخذت تذكّر نفسها بحنان بي عائشة عليها عندما كانت طفلة مجروحة وخائفة. أرادت أن تقول لبي مكوبوا إنها لم تعد طفلة، لكنها لم تجرؤ. والحقيقة أنها لا تعلم على وجه اليقين

كم عمرها، لأن لا أحد سجّل تاريخ ميلادها.

ذكرت الأمر لبابا فقال: «دعينا نحسب. أنت تعلمين أي عامٍ ولدتِ لأنه العام نفسه الذي هرب فيه إلياس من البيت. كل ما عليك هو اختيار يوم ميلادك. لا يحصل هذا الشرف لأي إنسان. يوم ميلادي مكتوب بخط أبي. تاريخ ميلاد بي عائشة مدوّن في أحد سجلات بوانا عامر بياشارا. يمكنك اختيار تاريخ ميلادك. اختاري ما بدا لك».

اختارت عافية اليوم السادس من الشهر السادس – مويزي سيتا وَمفونغو سيتا – لأنها أحبت إيقاع الجملة. قال بابا: إذًا من الآن ستعرفين بالضبط كم عمرك. بعد بضعة أشهر من بداية عامها السادس عشر انكشفت لها معاني جملة بي عائشة التي قالتها في أول أيام ذاك العيد، عندما ارتدت عافية الفستان الذي حاكته صديقتاها من أجلها.

كانوا جالسون إلى مائدة الإفطار معًا في يوم عيدٍ آخر بعد مرور سنة. قالت بي عائشة: «أصبحتِ شابة الآن. حان الوقت لنجد لك زوجًا».

ضحك بابا، يظن أن بي عائشة تمازح عافية لأنها كبرت. وابتسمت عافية أيضًا لأنها حسبت أن هذا ما تقصده.

قالت بي عائشة بجفاف: «أنا لا أمزح». وأدركت عافية فورًا ما كان ينبغي عليها أن تدركه منذ أكثر من عام. أنها لا تمزح. «لا يمكن أن نترك شابة في سنها تجلس في البيت بلا شيء يشغلها. سوف تلهي نفسها بالطريق الخطأ. إنها تحتاج إلى زوج».

هتف بابا غير مصدق: «شابة في سنها! ما زالت طفلة!». ظهرت قوة انفعاله في صوته حتى إن بي عائشة شهقت في دهشة. «أنتِ دائمًا تقولين عنها إنها طفلة صغيرة، الآن أصبحت امرأة فجأة».

قالت بي عائشة: «ليس فجأة. لا تتظاهر أنك لم تلاحظ أنها كبرت».

«دعيها تنعم بشبابها قبل احتمال هم الأمومة. ما استعجالك؟ أطلب أحد يدها؟».

ردّت بي عائشة في عناد: «لا. ليس بعد. لكن أعتقد أن أحدًا سيخطبها قريبًا جدًّا. ألم تحسب أنت عمرها؟ إنها في السادسة عشرة. ومن الطبيعي أن تتزوج أي فتاة في هذا السن».

قال بابا في غضب: «هذا جهل وتخلف». زمّت بي عائشة شفتيها في هدنة مؤقتة.

7

انفصلت ذات ليلة مُفرَزة مكوّنة من خمسة أفراد، من بينهم حمزة، يقودها القائد الأعلى، متجهةً إلى إرساليّة ألمانية اسمها كيلمبا كانوا يأملون أن القوات البريطانية لم تصلها بعد. فقد كان الإنجليز يقفلون كل منشأة أو مزرعة أو مقر بعثة تبشيرية ألمانية، لقطع خط الإمداد عن عساكر الشوتزتروبه. أما المدنيون الألمان فيُعاملون بالكياسة الواجب تقديمها لمدنيي دولة متحضرة معادية، فينقلون إلى رودسيا أو شرق إفريقيا البريطانية أو بلانتاير في نياسالاند لإمضاء فترة حبسهم على يد أوروبيين آخرين لحين انقضاء الاشتباكات العسكرية. محالٌ أن يعهد إلى إفريقيين باعتقال أوروبيين وحبسهم. فالسكان الأفارقة، الذين ليسوا سكانًا ينتمون إلى أمة عظيمة ولا متحضرين، والذين ينتهجون نهج البربريين، إما يلقون التجاهل من الأجانب أو يتعرضون للنهب أو التجنيد القسري لفوج الحمالين إن استدعت الحاجة.

عرف الضابط من خريطته أن الإرسالية كانت قريبة من هنا قبل الحرب، لكنه لا يدري إن كانت قائمة حتى الآن أم أن الإنجليز وضعوا أيديهم عليها. جرت العادة أن تُترك مهمة إيجاد الإرسالية لكتائب العساكر، فهم أكثر خبرةً في الاستطلاع والتعقّب، ولكن الفضول استولى على القائد الأعلى لزيارة مقر هذه الإرسالية، وقد سمع عنها من ضابط أمضى فيها عدة أسابيع للنقاهة بعد إصابته خلال حرب الماجي ماجي. وفي تقدير حمزة أن تناول وجبة ألمانية مع الشنابس الجيد فرصة مغرية لم يستطع القائد تفويتها.

وجدوا مقرَّ الإرسالية دون صعوبة، ووصلوا إليه قبيل المساء. قطعوا

غابات ترتفع أرضها بالتلال ثم تنخفض إلى سهل عشبي محاط بالجبال على مبعدة. والإرسالية على قمة تلٍّ في منتصف السهل. مبانٍ بيضاء بالجص ومحاطة بجدران عالية، وفيها شجرة تين عظيمة. بدا المكان لهم وادعًا مسالمًا. كان المبشّر واقفًا مع زوجته وطفلتيه الشقراوين ينتظرون استقبالهم عند البوابة الداخلية عندما وصلوا. من الواضح أنهم سعداء برؤية الجنود الألمان، المبشر وزوجته يبتسمان والطفلتان تلوحان.

بعد الدخول من البوابة الخارجية وجدوا مصطبتين صغيرتين يحيطهما سور، مزروعتين باليقطين والملفوف ومحصول آخر لم يعرفه حمزة. تقدّم الضابط لتحية المبشّر وأسرته وتبعهم إلى داخل المبنى بينما انتظرت المفرَزة خارج المركز. بعد دقائق خرج رجل إفريقي ودعاهم إلى الدخول. وجهه غليظ متغضن وعلى الجانب الأيمن من عنقه ندبة خشنة، ويتحدث السواحلية بطلاقة. أخبرهم أنَّ اسمه باسكال وأنه يعمل في الإرسالية. ولمركز الإرسالية الواسع عدة مبانٍ، منها مدرسة وعيادة وقن دجاج وحديقة خضروات وفاكهة. لمّا دنا القتال منهم هرب أهالي القرى المجاورة، لهذا يبدو المكان مقفرًا. وقد كان يضج بالناس سابقًا: أطفال في المدرسة ومرضى في العيادة المزدحمة دائمًا، لمداواة الأمراض الكثيرة التي تصيب سكان هذه المناطق، الديدان ومرض النوم والملاريا. سمح الإنجليز لمركز الإرسالية بالبقاء مفتوحًا لأن المبشّر وأسرته اعتنوا بضابط رودسي مصاب، فانعقدت صداقة بينه وبين الأسرة وناشد السلطات بترك المكان كما هو، لتستمر الإرسالية بتقديم خدماتها لسكان المنطقة بدلًا من اعتقال الأسرة وإرسالها إلى بلانتاير.

سأل عسكري اسمه فرانز: «لماذا لم يلجأ الأهالي إلى الإرسالية طلبًا للحماية؟».

أجاب باسكال: «لأن المبشر رفض. قال إنه يخشى أن يرجع الإنجليز ويتهمونه بالتستر على الروغا روغا هنا».

سأل فرانز وقد تقمّص دور المتحدث باسمهم: «ألديكم روغا روغا في هذه الأنحاء؟».

قال باسكال: «لا أعلم. لم أرهم. الروغا روغا هم من نخشاهم حقًا، ليس الإنجليز ولا الرودسيون. يقولون إنهم يأكلون البشر».

ضحك بعض العساكر، وسأل أحدهم اسمه ألبرت: «من قال لك هذا؟». انتشرت بين العساكر عادة التسمي بأسماء ألمانية.

ردّ باسكال بهدوء: «الناس يقولون. أخبر الضابط الرودسي الذي أقام هنا المبشّرَ أن الروغا روغا لا يأخذون أسرى من أعدائهم وأنهم يأكلون لحوم البشر. لا أدري إن كان هذا صحيحًا».

قال فرانز بعد نوبة أخرى من الضحك: «إنهم مجرد طغام وأوغاد، لا يأكلون البشر. رعاع يلبسون جلد الماعز والريش ويتظاهرون بالضراوة. نحن نستعين بهم لأن صيتهم سيئ ويجلبون الدمار أينما حلّوا ويرهبون الناس. أتدري لماذا يسمون روغا روغا؟ لأنهم يثبون كالمسعورين حين ينتشون بالبانغي.. الحشيش. روغا روغا، أفهمت؟ نحن من يجب أن تخشوهم، نحن شوتزتروبه. نحن أوباش غاضبون عديمو الرحمة، نحب أن ننتصر، ونحب أن نرعب ونشوه الواشينزي المدنيين. ضبّاطنا خبراء محترفون في بث الرعب. دوننا لا توجد شرق إفريقيا ألمانية. اخشونا نحن».

قال عامل الإرسالية بهدوء: «نديو مامبو ياليفيو». هكذا هي الأمور. لامبالاته المهذبة أوحت أنه إما لا يصدق فرانز، أو أنه لم يتهيّب كما يأمل العسكري.

قدّم لهم باسكال طعامًا، عصيدة ذرة ويخنة السمك المملح، وبعض الخوخ والتين، أكلوها تحت سقيفة مائلة السطح وضعوا فيها أحمالهم وعتادهم. جلس معهم وهم يأكلون في تلذّذٍ عظيم. قالوا إن هذه وليمة. فأنت لا تدري ما كنا نأكل في هذه البرية. بعدما فرغوا نادى باسكال رجلين يعملان معه في الإرسالية، أحدهما اسمه وتنس والآخر جيرمايه ويحب أن يسمّيه الناس جمعة. وكلاهما مسيحيان من أتباع كنيسة الإرسالية، يتوليان رعاية الماشية وزراعة البساتين، ولوتنس زوجة تخدم أسرة المبشر. وهي في الداخل في هذه اللحظة تقدّم للأسرة والضابط عشاءً ألمانيًّا متقنًا كما أخبرهم باسكال. شرع فرانز يحكي لهم عن المعارك والأحداث الدامية التي شاركوا فيها، وانضم العساكر الآخرون إلى الحديث بسرد ذكرياتهم المروّعة. كان هدفهم إخافة رجال الإرسالية، لكن هؤلاء أنصتوا إلى كل حرف بانتباه مشدود فاغري الأفواه. لهذا السبب أتوا، ليستمعوا إلى قصص عن شراسة عساكر الشوتزتروبه. وكلما زادت فظاعة القصص ساد الصمت وتعمقت الهيبة في نفوسهم.

قال باسكال: «كادت الحرب تصل إلينا. لكنها ابتعدت عنا. استشفى لدينا ضابط ألماني وذلك الرجل الرودسي الذي ذكرته لكم. الرب رعاهما ورعانا، لم نفقد أحدًا هنا في الإرسالية».

انخفضت درجة الحرارة انخفاضًا شديدًا بعد حلول الظلام. صعد حمزة سلّمًا حجريًا إلى قمة الجدار، فأحسّ بالريح تهبّ باردة قوية على وجهه. ظلّ ينظر في توجسٍ نحو بركة ماء في السهل انعكس عليها نور القمر فتوهّجت. جاء الأمر بمبيتهم الليلة هنا والرحيل عند الفجر. وقد أرضى الضابط فضوله تجاه الإرسالية والمبشرين الذين شملهم الرب في رعايته. غادروا كيلمبا بهدايا من السجق وقارورة شنابس للضباط الآخرين ومؤونة من

التبغ، وهو المحصول المزروع في المصطبة الذي لم يعرفه حمزة. أراهم باسكال السقيفة التي يجفّفون فيها التبغ، لكنه نهاهم عن أخذ شيء منه. فالمبشّر يتابع شخصيًّا عملية صناعة التبغ، وهو يجيد العد. فسوف يعلم إن أُخذ منها شيء. كان باسكال يخشى أن يحسبه المبشر لصًّا.

غادروا مبكرًا ولحقوا بفصيلتهم دون مواجهة أي صعوبات. في تلك الليلة، وبعد أن انقضت وليمة الضباط، اضطجع الأوبرلويتنانت على سريره وحمزة جالس على فراشه قربه. حان وقت درس المحادثة. حسّنت زيارة الإرسالية، ومن ثم كؤوس الشنابس، مزاج الضابط.

قال الضابط: «أرى أن المبشر رجل خيّر ولكنه متجهم قليلًا».

قال حمزة: «نعم، إنه رجل خيّر».

«أين عقله عندما قرّر أن يجلب زوجته وطفلتيه إلى هذا البلد البعيد المعزول الموبوء؟ زوجته امرأة لطيفة ودودة. والبساتين جميلة، هاه؟ هي التي تعتني بالفاكهة وتشرف على المدرسة. برودة ذاك المكان هي ما يساعد الفاكهة على النمو، مناخ مثالي للفاكهة. لكن المسكينة مذعورة من شائعات الروغا روغا وأكلهم البشر. طمأنتها أن هذه ما هي إلا دعاية مغرضة ينشرها الإنجليز. أليس الروغا روغا من قواتنا الإضافية؟ لن نقبل أبدًا بالتعامل مع قوم يأكلون البشر».

ردّ حمزة: «حسنًا فعلت أن استطعت طمأنتها». تعلّم أن يتحدث من حين إلى آخر وإلا تضايق الضابط وقال له إن واجبه تبادل الحديث، لا الإنصات إلى خطبة. وإن لم يكن لدى حمزة ما يقوله يكتفي بترديد آخر ما قاله الضابط.

«من الجائز أنهم يأكلون البشر. لا شيء مستحيل إن فقد البشر عقولهم كما فقدنا نحن عقولنا، فما بالك بالروغا روغا البربريين المتعطشين إلى الدماء.

لهذا نستعين بهم، لأنهم يرعبون خصومنا بوحشيتهم. ما يمنعهم من أكل أجساد قتلاهم؟ أتتخيل هذا، أكل لحم البشر؟ لا أعني أكل الإنسان بسبب نوبة جنون في ظروف الحرب، أو بسبب تقليد يتّبعه الهمج القبليون عندما يأكلون أعداءهم لاستخلاص قوتهم، لا أقصد أكل البشر بصفتها عادة أو مكوّن من مكونات الغذاء الاعتيادية، بل أكلهم بسبب الرغبة، بسبب الفضول، بسبب حب المغامرة. أتتخيل فعل هذا؟»

سكت الضابط ينتظر إجابة حمزة، فقال: «لا. لا أتخيل».

ابتسم الأوبرلويتنانت في سخرية: «لا. فلا أظن فيك هذه الجرأة».

***

كانت الأسابيع الأخيرة من الحرب كالكابوس، وهم يعدون ويختبئون من القوات التي تطاردهم. سبّب الانسحاب إلى الجنوب ملاحقة الإنجليز وقوات التحالف لهم حتى وصلوا في أعقابهم إلى نهر روفوما. لكن الشوتزتروبه لم يعدوا ويختبئوا فقط، بل أذاقوا الإنجليز وحلفائهم الأمرين جزاءً لهم، وقد كان حلفاؤهم قوات من جنوب إفريقيا وروديسيا وبنادق الملك الإفريقية والبرتغال، وقد قرّر البرتغاليون الانضمام إلى الحرب في ساعاتها الأخيرة، لكنهم تكبّدوا خسائر فادحة، لا سيما في معركة ماهيوا. كان الحمّالون يهربون من الخدمة بأعداد كبيرة كل بضعة أيام، أو ربما تساقطوا على جوانب الطريق من الجوع والإنهاك. فلا أمان في الهرب حتى. هم الآن على الأرض التي حارب فيها عساكر الشوتزتروبه قبائل الواهيهي قبل زهاء ثلاثين عامًا، وبعدها بخمسة عشر عامًا أوقعوا المجازر على قبائل الماجي ماجي. فأهالي المنطقة الذين نجوا من تلك الفوادح وأُثقلوا اليوم بالقتل

والسلب قد فاض بهم الصبر على عنف الشوتزتروبه ولن يبدوا عطفًا على أي جندي هارب منهم حتى إن كان حمّالًا.

حافظ العساكر على ثباتهم وولائهم. وإنها لمعجزة إذ فعلوا. فأجورهم لم تُدفع لهم منذ شهور، أو أعوام في بعض الحالات، منذ سقوط دار السلام وفقدان الحكومة الألمانية مركز سكّ عملاتها فيها. ومع هذا فإن من الأسلم للعسكري أن يظل في رتله وإن اشتدّت الصعاب على أن يفر في هذه المنطقة المعادية. شحّت ذخائرهم وأطعمتهم، وما عادت غاراتهم على مؤن الخصم والقرى تعود بالنفع الكبير. استنزفوا خيرات الأرض كلها، وما ظلّ فيها إلا قرى خاوية أو جائعة، ومؤنهم القليلة في خطر مستمر من نهب الجيوش المتخاصمة. بعد اجتياز الروفوما اتّجهت قوات الشوتزتروبه غربًا تجاه رودسيا، ومن ورائهم تركوا عمدًا قرى تضطرم فيها النيران لعرقلة مطارديهم الذين يعانون من نفاد المؤن وتفشي المرض. كانت فصيلة حمزة في قلب القوات المنسحبة، وقد بلغ من إعيائه من الحركة المستمرة أن كان ينام واقفًا على قدميه. والجنود عن بكرة أبيهم، والضباط الألمان منهم، حينئذ في أسمال ورقاع، حتى لا يخالهم المرء جيشًا منظّمًا بل زمرات متفرقة من الأوباش. وكانوا ينوون النكوص على أعقابهم إلى المنطقة التي كانوا فيها بداية العام، قرب إرسالية كيلمبا. وفي تلك الأنحاء دارت أحداث المراحل الأخيرة من حرب حمزة.

في ساعات الصباح المبكرة، والظلام ما زال مخيّمًا، شمَّ رائحة المطر قبل أن يفتح عينيه. استيقظوا على خبر فرار معظم الحمالين المتبقين في الليل. لم يكن الخبر مستغربًا لدى حمزة أو أي شخص يفهم دمدمتهم التي لم تنقطع في الأيام الماضية. أصابهم إعياء شديد من المطاردة الدؤوبة والأحمال الثقيلة والأشغال المهينة. كانوا حمالين بالأجرة ولم يقبضوا أجرًا، وكثيرون منهم

مكرهون على العمل. والضحايا من بينهم يتزايدون. لا يطعمونهم إلا النزر اليسير ولا سلاح يدافعون به عن أنفسهم، ومنهم الحفاة المتدثرون بالأسمال أو ما استطاعوا نهبه أو سرقته. يموتون من الأدواء أو قلة الدواء، ولأن أوضاع الشوتزتروبه متردّية كما يرون أصابهم اليأس من النجاة في جيش مغلوب لا محالة. وكانت تفرّ زمر قليلة منهم يوميًا لكن فرارهم هذه المرة كان عملًا منظّمًا، كاعتراف منهم أن الشوتزتروبه لا تضمن حياتهم ولا معاشهم. استشاط غضب الأوبرلويتنانت إزاء قلة انضباط الحمالين وانضم إليه الألمان الآخرون، كأنهم يصدّقون حقًا أن الجنود المهلهلين الذين يمقتونهم ويضربونهم ويهلكونهم اشتغالاً مدينون لهم ولو بأدنى درجات الولاء.

«لا خيار أمامنا إلا أن يقوم العساكر بأعمال الحمالين». كان الفيلدفيبل هو من طرح هذه الفكرة وبصوت قوي قاطع. لم يردعه أنه يخاطب القائد الأعلى بأن يطالبه بالانصياع في لهجة عنيفة تكاد تكون خروجًا عن الأمر. هزّ الأوبرلويتنانت رأسه ونظر إلى الألمان الثلاثة الذين ما زالوا معه. كذلك الطبيب العسكري هزّ رأسه. وقد اشتد مرضه في ذلك الحين إثر الملاريا والإعياء وإصابته بالتهاب معوي يدفعه ركضًا إلى الشجيرات في كل وقت ليريح نفسه. نفدت الأدوية التي تخفف عنه. أما الضابطان الآخران فقد انضمّا إلى الفصيلة في الشهور الأخيرة من الانسحاب المتعثر، فظلا صامتين. أحدهما معلم موسيقى سابق كان يطالب العساكر بالتدرب كل صباح، ومن عادته التلويح بمسدسه في وجوههم وهو يصرخ بأوامره، والآخر ملازم من المستوطنين المتطوعين، رجل خفيض الصوت عليل مكلوم بمتاعبه. كان صمتهما احترامًا للقائد، ولكن المغزى وراءه كان جليًا. لا خيار إلا أن يحمل العساكر المتاع، وإن كانوا يعلمون أن العُرف العسكري يشترط ألا يحمل

العساكر المتاع. المسألة مسألة شرف. فكما أن الأوروبيين لا يقبلون الحياد عن قدسية كرامتهم، كذلك العساكر. ظلّ الأوبرلويتنانت يهز رأسه ذعرًا وترددًا، لأنه يدرك أن لا سبيل آخر لحل المسألة. لو اختاروا ترك المؤن والعتاد فكأنهم يختارون السير مباشرةً إلى أقرب مقر لقوات العدو والاستسلام. بل إن هذا أسلم من التجوّل بلا سلاح بين الأهالي الكارهين لهم.

بعد دقائق معدودة من التفكير العقيم استسلم لطلب ضبّاطه الصامت وأصدر الأمر بأن يحمل العساكر المتاع. ابتسم الفيلدفيبل في انتصار وتولى تنفيذ الأمر. هدر مناديًا الجنود للانتباه، فلما اصطفوا أعلن الأمر الجديد. حطّ صمت قصير، أتبعه خروج عن الصف وصخب واضطراب عارمين. واستمر وهلة طويلة حتى استطاع الفيلدفيبل الغاضب وضبّاط الصف تحت إمرته، بالاستعانة بعصيّهم ومسدساتهم، إخضاع العساكر للانتظام ثم الإجبار بالطاعة. وقد اشتدّ هطول الأمطار، فوقف الجنود في صفين مقطبين مكفهرين أمام الضباط، والفيلدفيبل فالتر يرغي ويزبد. وأُوكلت لضباط الصف مهمة توزيع الأحمال على العساكر قبل الانطلاق في مسيرة ذلك اليوم. انهمر المطر ثقيلًا باردًا يثقب جلودهم وهم يتثاقلون الخطى قاطعين هضبة نيكا تجاه المنحدر.

كان تقدّمهم بطيئًا رغم هتافات الضباط وعصيّهم التي تنزل على أجسادهم بلا هوادة، وقد تجاسر الأونباشي والشاويش بإيعاز من الفيلدفيبل على أن يكونا أعنف وأقسى. وما هي إلا مدة قصيرة حتى تباطأت المسيرة حتى كانوا يجرّون أقدامهم، ولم يؤثر فيهم جهود ضباط الصف المستميتة. تكرر قعودهم عن المسير، إما طلبًا للراحة أو لتعديل أحمالهم، ومع كل وقفة يعلو التبرّم وتطول النظرات الحاقدة. ولم ترحمهم مخاطر المسير المعتادة، من قرص الحشرات والحرارة، والإعياء، والمطر الغزير المتقطع، والأقدام

المتورمة من السير في أحذية بالية. بل إن هذه أصبح أسوأ في نظر العساكر الآن وقد حُمّلوا مهامًّا دنيئة. فلما توقفوا أخيرًا قبيل المساء لنصب الخيام ساد في الجو توتر منذر بالخطر. أخذ الرجال يشتكون بأصوات عالية، يرجون أن يسمعهم الضباط، أن أعمال العبيد الواشينزي هذه ليس ما انضموا إلى الجيش لأجله. وكانوا يعلمون أن البريطانيين يشجّعونهم على الفرار. وقد رأوا منشورات في القرى التي أغاروا عليها لأخذ الطعام وسمعوا شائعات من العساكر الآخرين. قالوا إن الإنجليز لا يهينون جنودهم. وأن هذا الاستفزاز لكرامتهم لا يحتمل. دهش حمزة من شدة امتعاضهم وقوة استنكارهم التي تتفاقم أحيانًا إلى حد العنف، وكلهم يعلمون ما العنف الذي يقدر عليه عساكر شوتزتروبه. شعر حمزة بالخوف من التمرّد والاغتيال الذي طوّق الضباط في تلك الأسابيع الأخيرة. سمع الأوبرلويتنانت يهمس للألمان الآخرين: «كونوا على حذر. قد تقع مشاكل».

انتبه الفيلدفيبل إلى أن حمزة سمع التحذير. جعلت أعوام الشظف والمشقة الفيلدفيبل مشدود الجسد متين العضلات، ملوّح الوجه بالشمس، عيناه تلتمعان ببريق المتنبه الحذر، شعر رأسه ولحيته طويل متسخ، وكل ما فيه يوحي بالعدوانية والبغض للجميع، حتى الأوبرلويتنانت. شعر حمزة أن كراهية الفيلدفيبل للأوبرلويتنانت امتدّت إليه هو أيضًا، أنه على نحو ما يهيّجها أكثر. في تلك اللحظة، لما رأى أن حمزة سمع تحذير القائد الهامس، صوّب إليه نظرة حادة مهددة. فأشاح حمزة وجهه بسرعة.

انقلبت زخّات المطر إلى عاصفة رعدية مع انسدال الليل. نصبوا مخيّمهم تلك الليلة في غابة، ولم يكن هذا الإجراء المعتاد ولكنهم احتاجوا إلى غطاء يعصمهم عن أعين الدوريات. وبعض الأشجار في تلك المنطقة ضخمة الجذوع. أحاط حمزة إحداها بذراعيه، فأحسّ بقلبها ينبض وبالنسغ يدفق

إلى الأغصان في الأعلى. التمع البرق بين الشجر فأضاء الأيكة التي لاذوا بها. ففكر حمزة ما إذا كان اختيارهم هذا المكان لحين اجتياز العاصفة فكرة آمنة. لكنه مبتل راقد على أرض روت بالماء وتشبّعت حتى لم تعد تمتصّه. والماء يقطر عليه من الأشجار، وشيء يزحف على جسده، لكن الإنهاك منعه من إبعاده. سمع في منتصف الليل أصوات حركة، فظنَّ أن حيوانًا صغيرًا يمشي خلسةً، حتى أدرك أنها تحركات العساكر فلم يحرّك ساكنًا ولا أصدر صوتًا، بل إنه دفع نفسه إلى الأرض الطرية كأنه يريد الاختفاء. لما التمع البرق أغمض عينيه لاإراديًا، لكنه في ثانية واحدة قبل إغماضهما رأى أشكالًا متكوّمة تختفي بين الأشجار. استمرّت تحركاتهم المكتومة بضع دقائق، ثم حلَّ الصمت ولم يسمع إلا رذاذ حبات المطر على الأرض المتشبعة بالماء. عرف أن العساكر ينون الفرار، لكنه قرر الاستلقاء تحت المطر في انتظار الفجر.

لا بد أنه نام دون أن يشعر، لأنه استيقظ على هتافات وأوامر. كاد ضوء الصبح أن يبلج وقد اكتشف أحد ضباط الصف - يظن أنه الشاويش - فرار الجنود فنبّه الآخرين. هبَّ معظمهم من النوم وقوفًا، يهتفون ويتلفتون حولهم في اضطراب لا يدرون مكمن الخطر. كان الشاويش يصرخ في ذعر: واميكمبيا، واميكمبيا. لقد فرّوا، لقد فرّوا. أمر القائد الأعلى بعدّ الرؤوس. داس الفيلدفيبل الأرض تحت المطر بخطوات ثقيلة، شاهرًا سيفه في يده، يصرخ آمرًا ضباط الصف بعدَّ الرؤوس. يذرع المنطقة بأكملها وهو يزأر: خونة، خونة. فرّ تسعة وعشرون عسكريًا في الليل، وما بقي إلا اثني عشر. اثنان منهم الأونباشي والشاويش الذي نبّه النيام، وكلاهما من النوبة وقد خدما الشوتزتروبه أعوامًا طويلة. حملق الفيلدفيبل في شتات الفصيلة من حوله حتى استقرت عيناه على حمزة، فأدار هذا وجهه فورًا، ولكنه تأخر.

زعق الفيلدفيبل: «تعال إلى هنا»، وأشار إلى بقعة لا تبعد عنه سوى

خطوتين. تقدّم حمزة كما أُمر ووقف على بعد خطوة أو اثنتين من المكان الذي أشار إليه الفيلدفيبل. قال الفيلدفيبل فالتر مخاطبًا الأوبرلويتنانت: «سَمِعَك تحذرنا من المشاكل». كان الألمان يقفون في جماعة مشتتة على جانب، وفي الجانب المقابل وقف العساكر الأفارقة، ومعلم الموسيقى والملازم يحملان مسدسيهما. هتف الفيلدفيبل في غضب أسود: «عاهرك الخائن هذا هو من غدر بنا. هو من شجّعهم على الهرب. كذّب عليهم حتى فرّوا». ثم تقدّم وضرب بسيفه حمزة ضربة كانت مهلكة لولا أنه تفاداها باستدارة حادة. لكنها أصابت فخذه وقطعت اللحم والعظم. سمع شخصًا يصرخ ثم ارتجّ رأسه مرتطمًا بالأرض بقوة. سمع هتافات الرجال تعلو وأحدهم قريب منه يصرخ بجنون. حاول التقاط أنفاسه، الهواء يدخل إلى رئتيه لكنه يأبى الخروج. ثم غاب عن الوعي.

أفاق لحظة خدرة رأى فيها الطبيب العسكري على ركبته بجواره وأحس بأذرع تحمله. واستيقظ ثانية على هرج عالٍ ما بين جدال وأوامر. ولما استعاد وعيه وجد نفسه على نقالة يحملها عسكريان. كانت السماء تمطر والماء يسيل على وجهه. طالت إفاقته هذه المرة لكنه لم يدرك على الفور أنه أفاق، حتى استطاع تجميع ما تفرّق من انطباعاته المشوّشة قبل أن يفقد وعيه مرة أخرى. وفي لحظة يقظة فيما بعد رأى الأوبرلويتنانت يسير إلى جوار النقّالة ثم أضاعه. أصاب عقل حمزة الهلوسة في ذلك الحين، ربما لم يكن على نقالة أصلًا. ورأى الأوبرلويتنانت ثانية يمشي بجانبه فسأل: Sind Sie das أهذا أنت؟ كل جسده يرتجف ويلتوي، وفي فمه طعم القيء. تركّزت أشدّ لسعات الألم على جانبه الأيسر، لكنها سرعان ما اشتملت كل جزء منه. لا طاقة له بتحريك أي طرف من جسده. ولم يرغب في تحريك أي طرف من جسده، حتى فتحُ عينيه يتطلب قوة قاهرة. أقعدوه على الأرض فاستعر الوجع في ساقه مجبرًا

صرخة على الخروج من شفتيه دون أن يدري حتى أنها ستخرج. في تلك اللحظة استعاد كامل وعيه ورأى الأونباشي حيدر الحامد مثنيًا ركبته بجوار النقالة.

قال: «ششش. واتشا كليلي. كف عن الإزعاج. ششش شششش الحمد لله. لا تبك يا عسكري». كان وجهه مبتلًا بماء المطر، وقد ضمّ شفتيه كأنه يسكت طفلًا.

وبينما حمزة مستلقٍ على الأرض والألم يسحق جانبًا من جسده، والغثيان يكتم أنفاسه، رأى الأوبرلويتنانت على بعد أقدام، ينظر إليه وهو ملتفٌ بملاءة النقالة. قال الضابط: «Ja, ich bin es. Macht nichts ». نعم، هذا أنا. لا تقلق.

وفقد حمزة وعيه. توقفوا عن المشي في وقت ما أثناء الليل. عرف هذا لأنه أفاق أكثر من مرة، إفاقات قصيرة. كانت ليلة صقيعة. وكان هو مبتلًّا حتى النخاع، يرتعد ويرتجف بلا توقف. سمع في إحدى ساعاتها الضباع تعوي، وسعالًا لم يعرف مصدره. وسمع زعيق حيوان نهشته الأنياب حتى خرجت روحه.

غادروا مع أول خيوط الضوء وقد توقف المطر، والتمس راحة في حرارة الشمس ودفئها. لكنه أدرك عندئذ أن البلل ما كان كلّه من المطر، إنما من جرحه الذي ينزف دمًا غزيرًا. حام الذباب حوله، على وجهه وعلى جسمه، وما كان فيه قوة على إبعاده. وجدوا خرقة غطّوا بها وجهه عن الذباب. لم يبارح الانتفاض جسمه وهو يتردد ما بين اليقظة والغيبوبة. فلما أفاق ثانيةً كان الليل قد حلّ، واستغرق عقله وقتًا طويلاً حتى استوعب أنه مستلق على سرير، في حجرة لا يضيئها إلا فانوس على منضدة قريبة. الرعدة مستمرة والأنين لاإرادي، وتشنجات الألم تسري في جسده. وتحت سطوة هذا الألم

لم يهتم بأي شيء. شعر بدنو الفجر بعد حين من خلال فرجة الباب، وتناهى إليه صوت شخص يدخل ويقترب منه.

قال رجل: «آه، أفقت». صوته مألوف لديه، لولا أن المرض أثقل جفنيه فما استطاع النظر إليه. «أنت في أمان الآن يا أخي. أنت في إرسالية كيلمبا. أنا باسكال... أتذكر باسكال؟ لا بد أنك تذكرني. سوف أنادي المبشر».

حضر المبشر، وأمال وجهه المسفوع نحو حمزة، وترجم باسكال وهو لا يعلم أن حمزة يفهم كلام المبشر، صوتاهما يتسللان إلى أذن حمزة ثم يتراجعان. «فعلنا ما بوسعنا لتقطيب الجرح. النزيف... بعض السيلان... لا ندري... الضرر داخل العظمة... التهاب. من المهم... خفض الحرارة... التغذية. ثم ننتظر ونأمل الشفاء. سأخبر... الضابط... أفقت».

دخل الضابط وقرّب كرسيًّا إلى ناحية السرير. لم يستطع حمزة إبقاء عينيه مفتوحتين مع مراوحته الوعي واللاوعي، لكنه كلما فتح عينيه وجد الضابط ما زال جالسًا بجواره. كان قد اغتسل وإن كان ما زال يرتدي أسماله التي عليه في الميدان. على وجهه تلك الابتسامة الهازلة. حاول حمزة الإنصات وقد قوي إدراكه الآن بعض الشيء. تحدّث الأوبرلويتنانت بروّية ولطف: «يبدو أنك ستنجو بعد كل ما جرى. كم كلّفتنا من عناء. والآن سوف تضطجع هنا للاستشفاء في هذه الإرسالية الجميلة بينما... نرجع... الفصيلة ونتابع حربنا العقيمة. مهمة التمدين... كذبنا وقتلنا من أجل هذه الإمبراطورية ثم سمّينا ما فعلنا مهمة تمدين. وها نحن ما زلنا نقتل لأجلها. أتشعر بكثير من الألم؟ أتسمعني؟ أغمض عينيك ثم افتحهما إن كنت تسمع... طبعًا تسمع... الألم عظيم، لكن المبشر وجماعته... وعدوني. إنهم خيّرون. سوف يتخلصون من زيك كيلا... أحد أنك عسكري وسوف يطعمونك ويدعون لك بالشفاء، وسوف تشفى قريبًا».

بدت كلماته بعيدة مستحيلة. لم يحاول حمزة الكلام.

لما تابع الضابط كانت كلماته فجأة في غاية النقاء: «أخبرني، كم عمرك الحقيقي؟ يذكر سجلك أنك كنت في العشرين عندما انضممت لكني لا أصدق».

حاول حمزة لكن استجلاب الكلمات يتطلب طاقة لا يملكها.

قال الضابط: «كلا. أنا لا أصدقك. أستطيع أن أعاقبك بخمسين جلدة بتهمة الكذب على ضابط، خمس وعشرون مضاعفة. لا يمكن أن تكون أكبر من سبعة عشر عامًا عندما تطوعت. كان أخي بهذا السن عندما مات. في حريق نشب في الثكنة. وكنت معه أيضًا. ثمانية عشر... شاب جميل، لا أكف عن التفكير فيه». دّلك بإصبعيه البشرة المشدودة على صدغه، وجلس متصلّبًا عدة دقائق كأنه فرغ من الحديث. امتدت يده نحو السرير لكنه أعادها إلى جواره. «كان الحريق هائلاً أعدم كل شيء. لم يكن يرغب في الانضمام إلى الجيش. ولم تكن مناسبًا لحياة العسكرية. أبي من أراد انضمامه. لأنه تقليد أسري... كلنا جنود... ولم يشأ أخي الصغير تخييب أمله... كان حالمًا. تعلّمك الألمانية... بسرعة وإتقان... دليل على ذكائك. كان يعشق شيلر، أخي هرمان. يجب أن ترتاح الآن. سوف نستعد للمغادرة».

حضر الأونباشي حيدر الحامد والعساكر الآخرون لتوديعه. قرّب الأونباشي شفتيه من أذن حمزة كأنه لا يريد أن تفوته كلمة، وقال بنبرته المزمجرة المعتادة: «أنت محظوظ يا فتى. الأوبرلويتنانت يستلطفك، لهذا أنت محظوظ. وإلا كنا سنرميك في الغابة يا حمل».

ربت العساكر الآخرون على ذراعه وقالوا: «أمري يا مونغو. مونقو أكويكي، سيسي تونارودي كويندا كوليوا». هذا أمر الرب. نسأله أن

يحفظك، سوف نرجع للموت.

عندما عاد الضابط وهو متأهب للرحيل سمع حمزة كل كلمة قالها: «أتعلم لماذا أخبرتك عن أخي؟» ومنحه إحدى ابتساماته الساخرة. «لا. طبعًا لا تعلم. أنت مجرد عسكري وغير مسموح لك بتخمين ما يجول في رأس ضابط ألماني. أصبحت الجلدات تتجمع في سجلك، الكذب والفرار، والآن التطاول على رئيسك». وضع كتابًا على المنضدة الواقعة في الجانب الآخر من الحجرة. «سأترك لك هذا. يسلّيك مدة النقاهة ويساعدك على تعلم الألمانية. اتركه هنا في الإرسالية بعدما تُشفى وتقرر المغادرة. سوف تنتهي حربنا قريبًا، وربما أعود إلى هنا وأسترجعه. أتوقع أن الإنجليز سوف يحتجزوننا مع المجرمين الزنوج مدةً، امتهانًا لنا وجزاءً على المتاعب التي سبّبناها لهم، لكنهم بعدها سوف يرحّلوننا إلى بلادنا».

***

تعهد باسكال برعاية حمزة، فكان يرتاد حجرته كل يوم مرات كثيرة، يحضر له الماء أو يطعمه الحساء الذي وصفه له المبشر أو ينظفه. وكان إدراك حمزة لما يجري خلال تلك الأيام غامضًا متقطّعًا. حرارته مرتفعة ولا يوجد جزء من جسده لا يؤلمه، حتى إنه يعجز عن تحديد مكمن الألم. كان الجرح في فخذه الأيسر فكان ذاك الجانب بأكمله ينسلخ ألمًا مع تشنجات فظيعة. لم يستطع الإحساس بساقه اليمنى ولا تحريك ذراعيه. وأحيانًا كان الجهد الذي يبذله كي يفتح عينيه فحسب أكبر مما يطيقه. واظب المبشر على فحصه في النهار وتوجيه باسكال في طريقة تنظيف المريض وإراحته. كان وجها الرجلين يدخلان حيز بصره ويخرجان منه، والليل والنهار يختلطان معًا. وإن شعر حمزة أحيانًا بيدٍ باردة على جبينه فإنه لم يعلم يد من تلك.

استيقظ ذات ليلة في ظلام دامس وأدرك أنه هو من ينشج في كابوسه: الأرض مغرقة بدماء تشدّه من قدميه، وكل جسده منقوع بها. أشلاء بشر، أطراف وجذوع مبتورة، تزاحمه، وأصوات تصرخ وتصيح في خبلٍ وخوف. كتم حمزة نشيجه لكنه لم يستطع إسكان رعدة أطرافه ولا مسح دموعه. سمعه باسكال ودخل الحجرة ومعه فانوس. دون أن يتفوه بكلمة، رفع الغطاء لفحص الضمادة ثم وضع الفانوس على المنضدة في الطرف الآخر من الحجرة. عاد إلى موضع حمزة ومسح على جبينه. مسح دموعه بقماشة مبللة وأزال المخاط من منخريه وشفتيه وسقاه من كأس الماء. سحب كرسيًّا وجلس إلى جوار السرير لكنه لم يتكلم حتى هدأ تنفس حمزة.

«أنت في أمان يا أخي. هاوا وازونغو واتو ويما». هؤلاء الأوروبيون طيبون. «إنهم مؤمنون بالرب». ابتسم رغمًا عنه وأضاف: «لست طبيبًا لكن أظن أن الحمى بدأت تزول. قال المبشر عندما تخف الحمى فأنت في طريقك إلى الشفاء. إنه يعرف كيف يداوي. عملتُ معه مدة طويلة، منذ كان في الساحل قبل أن يعمل في كيلمبا. طبّه أنقذني عندما تأذيت». ثم لمس الندبة التي على عنقه. «سوف يجعلك تتحسن، لكننا لن نترك كل شيء بيده. سوف نطلب من الرب العون. سوف أصلي لأجلك». أغمض باسكال عينيه وضمّ كفيه وشرع يدعو. رآه حمزة بكل وضوح، كأن غشاوةً أزيحت عن عينيه. رأى باسكال جالسًا على كرسي بجانبه، وجهه متغضن متشقق، عيناه مغمضتان وهو يتمتم الكلمات المقدسة. جال بصر حمزة في الحجرة – في المنضدة والفانوس فوقها، في الباب المموارب – فكأنه يرى هذه المناظر لأول مرة. مدّ باسكال يده في غمرة صلاته وقبض على يد حمزة اليمنى، وكانت ملقاة على الفراش، ثم رفعها. رأى حمزة يده في قبضة باسكال لكنه لم يشعر بها. وضع باسكال يده الأخرى على جبينه، ثم تلا أدعية بصوت واضح.

سأل باسكال حين انتهى: «أكنت تتذكر أوقاتًا سيئة؟ سأبقى معك إن شئت ولكن ربما كان من الأفضل أن تنام. إن ناديتني فسأسمعك. الباب مفتوح وأنا نائم في الحجرة المجاورة. أتريدني أن أبقى؟ أظن أن المبشر سيسرَّ كثيرًا غدًا عندما يرى عينيك تلتمعان هكذا».

فحص المبشّر في الصباح التالي حرارته، وأومأ مستحسنًا انخفاضها. لكنه لما أزاح الضمادة قل ابتهاجه وإن حاول ألا ينم وجهه عن هذا. عدّل باسكال وسائد حمزة وانتظر المبشر. وجده حمزة رجلاً نحيلاً نظيفًا فيه بعض الجمود، كما وصفه الضابط من قبل. سأل المبشر بالألمانية بعدما جعل باسكال المريض في وضعية مريحة: «Verstehst du?» أتفهمني؟ أتريد أن يترجم لك باسكال؟

قال حمزة: «أفهم»، وفوجئ بالصوت الذي لا يشبه صوته.

أضاءت ابتسامة وجه المبشر الرصين. «أخبرنا الأوبرلويتنانت أنك تفهم. جيد. هزّ رأسك إن لم تفهم كلمة مما سأقوله». ثم تابع في تجهمٍ خشية أن يظن حمزة أنه شفي: «أعتقد أن حرارتك انخفضت ولكن ما هذه إلا أولى الخطوات نحو شفائك. ما زال الطريق طويلاً. يجب أن ينقطع النزيف تمامًا أولاً ثم يمكنك الحركة قليلاً وأداء بعض التمارين. ما زال هناك بعض السيلان. هذه الحرب صعّبت علينا كل شيء. سنفعل ما بوسعنا هنا حتى نتمكن من نقلك إلى مستشفى لتلقى العلاج المناسب. أهم ما يعنينا الآن هو منع حصول الالتهاب. وسوف نبدأ بإطعامك أغذية جامدة تدريجيًا. أيمكنك تحريك ذراعك اليمنى؟ سوف نبدأ التمارين الآن، بالذراع اليمنى والساق اليمنى. سوف يعلّمك باسكال».

كان باسكال ممرضه. يبيت الليل في الحجرة المجاورة هاجرًا حجرته الرئيسة في المركز. وينظف حمزة كل صباح ويساعده على القعود، ويدلّك ذراعيه وساقه اليمنى، ويحادثه بصوته المتروي المشوب بالاغتمام. يدعو

بعدها وعيناه مغمضتان، ثم يطعم حمزة وجبة مكوّنة من الزبادي والدخن الهندي واليقطين المهروس، وقد أخبره أن العمال الأفارقة في الإرسالية يأكلون الطعام نفسه. وأخيرًا يجعل حمزة مرتاحًا في استلقائه ما أمكن، قبل أن يتركه ليتمّ مهامه الأخرى في الإرسالية.

كان حمزة يبصر من النافذة المفتوحة أغصان شجرة التين وجزءًا من بيت المبشّر. وفي أغلب الصباحات يرى بلشونًا أخضر صغيرًا يحطّ على حافة السقف ويظلّ ساكنًا كالتمثال مدة طويلة، حتى يطير بغتة دون سبب ظاهر. لا يدري لماذا يثير فيه منظر البلشون الساكن على حافة السقف الحزن، ويغمره بوحشة الوحدة. يأتي المبشّر عصرًا لفحصه. شمّ حمزة خليط روائح كلما انحنى عليه، الصابون والجلد المبتل ورائحة خضار نشوية. تفحّص المبشر الجرح بدقة متناهية، وأجرى التمارين لأطراف حمزة، واستجوبه مطوّلاً بأسئلته، ومهما كانت نتائج فحصه يظل وجهه متجهمًا.

ومن هذه النافذة يسمع حمزة البيانو وغناء الصغيرتين وأصوات لعبهما في الشرفة الأمامية. وأحيانًا تأتي أمهما، زوجة المبشر، خلال النهار لعيادته. كانت شقراء رشيقة يبدو في تصرفاتها اعتيادها العمل الشاق، وسريعة الابتسام مهما بلغ منها التعب. ولا تزوره خالية اليدين، بل تحمل صينية من صفيح عليها إما بسكويت وفنجان قهوة أو صحن من التين أو قطع الخيار. فتحكي له عن الشهور التي قضوها على الساحل قبل الانتقال إلى كيلمبا. أليست الطبيعة هنا مذهلة؟ برد الليل يصرف البعوض، وهذه من أكبر النعم لا سيما بعد تجربة العيش في الساحل. هي وزوجها من أسر تعمل في الزراعة، والمناخ هنا مثالي لنمو المحاصيل التي يزرعونها. ما رأيك في هذا المكان البديع؟ وسوف يفيدك هذا المناخ، تأكد من كلامي. كانت تطرح الأسئلة على حمزة وتنبهر من إجاباته الألمانية. نطقك ممتاز. يحسّ حمزة بعد كل زيارة

منها بأنه أفضل مما هو في الحقيقة. وإن لم تستطع السيدة إحضار البسكويت أو الفاكهة إليه في الوقت المعتاد كانت تبعث زوجة وتنس صبيري بالصينية، فتضعها على المنضدة بهمسة ودودة سريعة.

مرّ أسبوعان قبل أن يرى بعينيه الفتاتين في الفناء. ففي ظهر أحد الأيام، بعد أن استعاد بعض القوة في ذراعيه استعان للوقوف بالعكازين الخشبيين اللذين صنعهما له باسكال، مستندًا إلى باسكال طبعًا، وسار مترنحًا تجاه النافذة. شعر حمزة بالدم يجري في ساقه اليسرى وبوخزٍ مفاجئ يسري في كامل جسده. كان يرى من النافذة زاوية الشرفة الأمامية من بيت المبشر، والفتاتين تجلسان على بساط وتلعبان ببيت العرائس. سمع صوت الأم تكلّمهما لكنه لم يرها. لم يدركن أنه يراقبهن. أصبحت عادته أن يضع الكرسي أمام النافذة ويجلس، أحيانًا طوال الصباح، ليشاهد الغادي والرائح في مركز الإرسالية. ولما تحسّنت حركته وقويت عضلاته أخذ يعرج خارج العيادة ليتشمّس، فيلوح للصغيرتين إن رآهما وتردّان التحية تحت عين أمهما. تذكّر ما قاله الضابط عن خوفها الشديد على ابنتيها، وشهد حرصها على تتبع حركاتهما. كان أحيانًا يرى السيدة في البستان الملاصق لجانب منزلها والفتاتين تتبعانها حاملتين سلال القطف.

ذات صباح، بينما كان جالسًا على الكرسي الذي أخرجه من حجرة العيادة، أقبل عليه المبشر ووقف يحمي عينيه من وهج الشمس، وظل ينظر إليه دقائق دون أن يتكلم. قال: «بلغنا للتو أن الحرب انتهت وأن ألمانيا استسلمت. وهنا في شرق إفريقيا الألمانية استسلم قائدنا مع ما تبقى من قواته للبريطانيين. يبدو أنه لم يعلم أن الجيوش اتفقت على الهدنة منذ ثلاثة أسابيع، لكن الحرب انتهت تمامًا الآن. أنقذك الرب من الموت الذي لحق بالآلاف، ويجب أن تشكره. يجب أن تحمده دومًا على هذه النعمة، وعلى أن

جعل هذه الإرسالية ملاذًا لرحمته».

أخبر باسكال حمزة أن الإرسالية ستقيم قدّاسًا لأرواح الذي قضوا في الحرب، ولا بد من حضوره. قال: «سوف يسعد المبشر والسيدة زوجته، ويرضى الرب أيضًا. ولكن إن لم تحضر فسوف يستاء المبشر. من الأفضل أن تسعده. إنه رجل حذر، ويود لو تغادر الإرسالية قبل وصول الإنجليز والرودسيين. سوف يأتون بكل تأكيد. إن عثروا عليك هنا فسوف يعلمون أنك جريح من عساكر شوتزتروبه، وقد يبلغ من غضبهم أن يقفلوا الإرسالية. إن كان المبشر مستاءً منك فسوف يتركهم يحتجزونك، لكنه لن يسمح بهذا إن كنت من رعيته».

عاد بعض القرويين الذين ينتمون إلى جماعة الكنيسة في الإرسالية، فحضر القداس ما يزيد على الاثني عشر شخصًا وجلّهم نساء. كانت تلك المرة الأولى التي يدخل فيها حمزة كنيسة الإرسالية، وهي حجرة مجصصة لا زينة فيها، وعلى أحد حيطانها صليب وأمامه منبر. كان يعي ما يرمي إليه باسكال، يريد الرجل إنقاذ حياته وفي الوقت نفسه الظفر بتسليم روحه إلى المخلّص. لم يعرف أيًّا من الترانيم فجلس خافضًا رأسه والجماعة من حوله يغنون، والمبشر يصلي للموتى.

تحسّنت حالة حمزة خلال الأسابيع التالية، وإن كانت حركته تبعث الآلام غالبًا في الأُربية ومفصل الفخذ المصاب. التأم الجرح واستعاد حركته بالمواظبة على التمارين، لكن المبشر قال إن الضرر لا بد قد وصل وترًا أو عصبًا وأن معالجته تتجاوز حدود معرفته. فاضطر حمزة إلى استعمال العكازين للتنقل لأن ساقه لا تقوى تحمّل وزنه. أخبره باسكال أن هذا يعني أنه سيمكث معهم مدةً أطول، فمن الأفضل إذًا تحقيق أسباب راحته. أقام باسكال بمعونة وتنس جدارًا في السقيفة المجاورة للحجرة التي يسكنها مع

جمعة، وغطّى بالطين اللزج السميك ألواحًا من أغصان مجدولة، ثم ساعد حمزة على الانتقال إلى هذه الحجرة. قال: ما عليك سوى رفع صوتك حتى يسمعك أحدنا.

عادت العيادة إلى وظيفتها الأصلية وتقاطر الأهالي نحوها لطلب العلاج. بلغتهم شائعات عن تفشي الأمراض في كل مكان عقب نهاية الحرب، وإن لم يمسّ أسوأها كيلمبا. أخذ حمزة يقدّم العون في أعمال الإرسالية، في الأمور التي يمكنه إنجازها جالسًا في البداية، مثل فرز أوراق التبغ وتنظيف الخضروات وإصلاح الأثاث. واكتشف مهارته في إصلاح الأثاث تحديدًا، فكانت السيدة وباسكال يبحثان عما كُسر من الأثاث ويحضرانه لحمزة لإصلاحه. أما المبشر فكان يراقب عمله مع أوراق التبغ والأثاث ويبدي استحسانه بتحفظه المعهود. فهو رجل يقظ محتاط، يراقب كل ما يجري في الإرسالية بعينين لا تسهوان، ولا يتدخل للتصحيح أو التوبيخ علنًا إلا فيما ندر. وفي المساء ينضم حمزة إلى باسكال والعمال الآخرين لتناول وجبة العشاء والحديث عن الفوضى العارمة خارج أسوار الإرسالية.

قالت السيدة إن شفاءه من المعجزات. لا شك أنك رجل صالح. يعلم أنها تبالغ قطعًا رفعًا لمعنوياته، وكان شديد الامتنان لذلك. كانت الفتاتان، ليزه الكبيرة ودورته الصغيرة، تحضران أوراق الترانيم إليه وهو جالس يستظل وتعلّمانه الكلمات، تنطقانها ثم تجعلانه يكررها، وإن كان من الأيسر أن يقرؤها بنفسه من الورقة. بذل جهده في تعلّم الترانيم، لكنهما أستاذتان صارمتان، جعلتاه يعيد كل شطر أكثر من مرة. حدث أن اختلفت الصغيرتان حول نطق إحدى الكلمات، فمدّ حمزة يده بلا تفكير وأخذ الورقة من ليزه ليرى بعينيه. سحبت ليزه الورقة فورًا من يده وقالت: إنها لي. في تلك اللحظة بينما هو ينظر إلى البيت حامت في ذهنه ذكرى ضبابية للضابط

وهو يتكلم عن كتاب قبل أن يرحل. أي كتاب هذا؟ أكانت هلوسة من عقله المريض أم حلمًا؟

سأل باسكال: «هل ترك الأوبرلويتنانت كتابًا لي؟»

ردّ باسكال بسؤال: «أي كتاب؟ أتجيد القراءة؟».

بعض الكلمات. خطرت العبارة في ذهنه وهو يفكر في قائده. قال: «نعم، أجيد القراءة».

قال باسكال: «وأنا أقرأ أيضًا. لدينا بعض الكتيّبات في خزانة الكنيسة إن أردت القراءة. وربما إن أحببت نقرأ سويةً في المساء؟ أقرأ أحيانًا لوتنس وصبيري. إنهما مؤمنان متعبدان».

قال حمزة: «لا... أقصد نعم، يمكننا القراءة معًا إن أردت، ولكن هل ترك كتابًا لي؟».

رفع باسكال كتفيه وسأل ثانية: «لماذا يترك لك كتابًا؟ أهو أخوك؟».

قالت له السيدة مبتسمةً: «أخبرتني ليزه أنك أخذت ورقة الترانيم منها بينما كانت تعلّمك. غضبتْ الصغيرة بسبب جرأتك. كنت أتساءل إن كنت تودّ أن أعلّمك القراءة».

قال حمزة: «أستطيع القراءة».

رفعت حاجبيها قليلًا في عجب وقال: «لم أكن أعلم».

أضاف في تواضع: «أستطيع قراءة بعض الكلمات. ما زلت أحتاج إلى تمرّن. هل ترك الأوبرلويتنانت كتابًا لي؟».

أشاحت بصرها دون إجابة، ثم قالت: «سوف أسأل المبشر. لماذا تسأل؟».

رأى حمزة عينيها قبل أن تشيح وجهها عنه، ولمح فيهما بريق العارف، فأيقن أنه لم يكن يهلوس، أن الضابط ترك كتابًا له، وأنهم لا يريدون إعطاءه الكتاب. أومأ برأسه، كأنه غير واثق أو أن الأمر لا يغينه كثيرًا. لا يريد أن يثير لغطًا وقد تكون مخيلته المحمومة تخدعه. «ظننت أني تذكرت شيئًا من هذا لكني لست واثقًا. ذاكرتي مشوشة بعد المرض».

كلما أطال التفكير زاد يقينه وعادت إليه كلمات الضابط تامةً. تكلّم عن حريقٍ، وعن موت أخيه الصغير. ثم قال إن الكتاب لحمزة كي يتدرب على اللغة الألمانية، ثم قال شيئًا عن المجرمين الزنوج. لم يستطع حمزة أن يتذكر ما كان يقوله عنهم. مارس تمريناته وأبدى امتنانه للمبشر وباسكال لاعتنائهما به، وصرف أي رغبة شاردة في الحصول على الكتاب. أو حاول على الأقل. التأم الجرح تمامًا من الخارج ولكنه ما زال يحتاج إلى عكازة لحمل ثقله. مرّت الأسابيع، بعد عيد الميلاد وبداية العام الجديد، وزيارة من ضابط بريطاني أخفوا فيها حمزة عن عينيه. أخبر الضابط البريطاني المبشر أن جائحة إنفلونزا استشرت في البلاد وفي العالم بأسره، وأن الآلاف قضوا نحبهم على إثرها. الاضطراب يعم ألمانيا التي نفت القيصر وأعلنت نفسها جمهورية. وفي روسيا أيضًا اضطراب وحرب بعد الثورة التي قتلت القيصر وكامل أسرته. قال إن العالم يغلي في اهتياج عظيم. لديهم هنا طعام وإمدادات، ومن صالحهم البقاء هنا حتى تأتيهم أوامر واضحة.

المبشر هو من فتح موضوع الكتاب مرة أخرى، لكنه لم يفعل هذا مباشرةً. ففي نهاية إحدى جلسات الفحص المنتظمة اقترح المبشر أن يتنزّها ليمرّن حمزة ساقيه. كان الوقت قبيل المساء، سارا نحو بوابة مبنى الإرسالية ثم إلى بوابة المركز. توقف المبشر هنا، وجالت عيناه على السهل والمنحدر البعيد.

قال: «ألا ترى أن المغيب يسدل على المكان دعة؟ ومع هذا فإنه مكان

تعرف أن لا شيء ذا أهمية وقع فيه على الإطلاق. مكانٌ لا يحمل أثرًا ولا بصمة في تاريخ الإنجاز والسعي البشري. تستطيع تمزيق هذه الصفحة من تاريخ الإنسان ولن يحدث هذا فارقًا أبدًا. ولهذا السبب يعيش الناس بقناعة ورضا هنا، في هذا المكان، وإن اجتاحتهم عشرات الأمراض». نظر إلى حمزة ثم ابتسم باسترخاءٍ، مسترسلاً بوقع كلماته. «أو بالأحرى كانت الحياة هنا كما وصفتُ حتى جئنا وجلبنا معنا كلمات تعكّر الرضا، مثل التحضّر والإثم والخلاص. يتشارك الناس هنا في صفة واحدة، لا فكرة تظل في رؤوسهم طويلاً. قد يحسب الآخرون أن هذا خداعًا وتضليلاً لكن السبب هو البلادة، الاتكالية، انعدام القدرة على الإنجاز. لهذا كان من اللازم تكرار التعليمات والإشراف على الأعمال. تخيّل، لو أننا رحلنا غدًا سيعودون إلى عاداتهم القديمة».

اختلس نظرة ثانية إلى حمزة واستدار ليعود أدراجه. فكّر حمزة أنه رجل ممزق بين حاجته القهرية إلى الهيمنة والرغبة الداخلية في تقديم المعونة. تساءل إن كان هذا ما يشعر به جميع المبشرين الأوروبيين الذين يعملون مع البشر المتخلفين أمثالهم.

تابع المبشر حديثه وهما يتجهان إلى الإرسالية: «لا شك أن الضابط الذي ضربك بالسيف فقد عقله. حكى لي الأوبرلويتنانت عنه. قال إنه ضابط عظيم الكفاءة لكنه ذو نزعات سياسية، يضمر حقدًا شديدًا على النبلاء والطبقة الحاكمة في ألمانيا. وطننا بلدٌ فرّقته الانقسامات، والآن بعد هزيمة الجيش عزل المتبرّمون القيصر وسادت الفوضى. ما يحيّرني هو ما كان يفعل رجل مثل الفيلدفيبل في الجيش الإمبراطوري في شرق إفريقيا الألمانية. ربما اجتذبه العنف وكان يعلم أن شوتزتروبه متنفسه. أخبرني أيضًا الأوبرلويتنانت أن هذا الضابط دأب على مخالفة الأوامر، وأن بغضه لسكان

المنطقة لا يعادله بغض، ولطالما خالف القوانين حول ما يُسمح له أن يفعل بهم، حتى معاملته للعساكر. فما فعله بك يعد في قوانين الشوتزتروبه جريمةً. أخبرني الأوبرلويتنانت أنّ الرجل بضربه لك كأنما كان يودّ الاعتداء على القائد نفسه.

«أفهمت كل ما قلتُه؟ بالطبع فهمتَ. قال الأوبرلويتنانت إن ألمانيتك ممتازة، وقد سمعتك تتحدثها بأذنيّ. ربما لم يعجب الضباط الألمان الآخرين.. أنك ... كنت صاحبه، وأن حمايته لك كانت ... حميمية. هذا تخمين فقط مني، لا أعلم، بسبب أمر آخر قاله الأوبرلويتنانت. ربما رأوا أن سلوكه يهين المقام الألماني الرفيع. أتفهّم تفكيرهم إن كان هذا ما حسبوه. وأتفهم أيضًا أن الحرب توثّق روابط غير متوقعة بين البشر».

لم يزد المبشر حتى رجعا إلى العيادة، فوقف أمام النافذة، نظراته تجول بين خارجها وداخلها نحو حمزة، متفاديًا النظر مباشرة إلى عينيه. «نعم، ترك لك الأوبرلويتنانت كتابًا كما سألت السيدة. أخبرني أنك تجيد القراءة لكنني كتمت الأمر عنها. قال الأوبرلويتنانت إن مكانك ليس بين عساكر شوتزتروبه، والآن بعد أن رأيتك هنا أشهرًا أوافقه الرأي. رأيتك تستعيد صحتك بصبرٍ جمود لا يملكه إلا من تحلّى بالذكاء والإيمان. ولا أعني الإيمان الديني. لا أدري إن كنتَ مؤمنًا هذا الإيمان، وإن كنت أعلم أن باسكال يرجو دعوتك إلى الإيمان بالمخلّص. باسكال رجل حكيم فيّاض العاطفة».

«عندما أخذتُ الكتاب لم أكن أعرف عنك ما أعرفه الآن، ظننتُ أن الأوبرلويتنانت متهور، وأنه أطلق العنان لمشاعره في تلك اللحظة لأنه شعر بمسؤوليته عن إصابتك. هذا ما جعلني أظن أنه تجاوز الحدود، بما خصّك به من حماية ورعاية، وأن هذا ... الاهتمام المفرط هو ما استفزّ الفيلدفيبل ودفعه إلى العنف. قال الأوبرلويتنانت إنّك تذكّره بشخص عرفه في شبابه،

وقلت في نفسي إن من غير المقبول أن يبدي ضابط ألماني كل هذه المشاعر نحو جندي إفريقي. قرّرت أن الهدية التي تركها أثمن من أن تُترك بيد رجل من سكّان البلد. عندما أخبرتني زوجتي أنك سألت عن الكتاب، أعدت النظر بما فعلتُ. لم أنبئها أن الضابط أخبرني أنك تحسن القراءة. اتفقت معي عندما قررت أن الكتاب أثمن من أن يترك مرميًّا في الحجرة، وهي الحقيقة. لكن عندما أخبرتني أنك سألت عن الكتاب أخبرتني أيضًا أنك تستطيع القراءة. فقلت لها إني أعلم. فقالت يجب أن تعيد إليه الكتاب. لقد تركه الضابط لأجله. كنت أعلم أنها ستقول ذلك، وهذا هو سبب كتماني الأمر عنها. قلت لها إني أشكّ أنك تستطيع قراءة الكتاب وفهمه فهمًا صحيحًا، وما زال هذا هو رأيي. قالت إن هذا ليس من شأني وإن من الواجب علي إعادة الكتاب إلى مالكه الشرعي».

ابتسم المبشر وهو يتابع: «أفحمتني بحججها. أو بالأحرى، أقنعتني بأني مخطئ بأخذي الكتاب، فقررتُ أن أعيده إليك وأن أوضّح سبب أخذه منك. كنت مخطئًا. ربما سوف تستطيع مع الوقت قراءته بالمتعة العظيمة التي أراد الأوبرلويتنانت أن تشعر بها».

سلّمه كتابًا صغيرًا، مغلفًا بالجلد الأسود المذهب: تقويم ربّات الفصول للعام 1798م من تأليف شيلر.

ثلاثة

8

دار مركبهم حول حاجز الأمواج في غسق المساء، وأمر النوخذة بإنزال الشراع والحذر في دخولهم إلى المرفأ. قال إن المد انحسر ولا يريد المخاطرة في هذه القنوات، لا سيما بعد موسم الكاسكازي وقبل انقلاب الريح والتيار إلى الجنوب الشرقي. والتيارات القوية في ذلك الوقت من السنة تغيّر القنوات. ومركبه محمّل بشحنات ثقيلة ويخشى أن يعلق في ضفة رملية أو يرتطم بشيء في القاع. بعد مشاورة طاقمه قرّر أن الظلام دامس وسيحول بين وصولهم بأمان إلى الرصيف، فألقوا المرساة في مياهٍ ضحلة بانتظار الشروق. كانت الأضواءِ تلتمع من الشاطئ وقلة من الناس يمشون على رصيف المرسى، ظلالهم الطويلة تمتد من أمامهم ومن خلفهم مع خبو الضوء. وراء مستودعات الرصيف تفترش المدينة الأرض، والسماء اصطبغت بكهرمان الغروب. وفي أقصى اليمين طريق الساحل خافت الإضاءة، منتصبًا في رأس ساحلي ثم ينطلق داخل البر حتى يهرب في عتمة الريف. تذكّر حمزة هذا من المرة الماضية، تذكّر أن الطريق يمرّ بالبيت الذي كان يسكن فيه، وكيف يضيق الطريق حتى يكّون تجويفًا يفضي إلى الداخل.

أما في البحر فالسماء تزيّنت بالنجوم وبدأ قمر هائل بالارتفاع، منيرًا البحر المائج خلف الحاجز وقمم الشعب المرجانية البعيدة. كلما ارتفع القمر في قبة السماء غمر العالم بألقه السماوي، مجرّدًا المستودعات ورصيف المرسى والمراكب المربوطة بطوله من ماديّتها، حتى تكون ظلالاً واهية.

استوى النوخذة وبحّارته الثلاثة في حلقة ضيقة على جوالات الدخن والعدس من حمولتهم، وكانوا قد أكلوا النزر اليسير مما بقي من طعامهم، الأرز والسمك المملح، وضيّفوه منها. فاستلقى قريبًا منهم وأصغى السمع لحديثهم وسبابهم وأغاني الحنين إلى الوطن، والمركب في هذا تنوء بثقل الموج المتلاطم بها. استغرقوا في النوم جميعًا في وقت واحد، وتوافقت أنفاسهم، يشهقون بعمق مراتٍ ثم يسود الصمت. وبعد السكون المؤقت الذي حلّ مكان صخب أصواتهم، رجع المركب إلى صريره المتوجع والبحر باضطرابه يشدّه ويدفعه. اضطجع على جانبه السليم لكن الألم عاد يضايقه، فتراجع عن حلقة البحارة وابتعد عنهم. ثم تحرّك أبعد خشية أن يقلق سهاده منامهم. حشر نفسه في حيزٍ ضايقه بما يكفي لصرف تفكيره عن أوجاعه، وبطريقة ما وجد النوم سبيله إليه.

في الفجر جدّفوا المركب ناحية الرصيف، يعملون بصمت في نور الشروق البنفسجي. ارتفع الموج إلى أعلى مداه واستوى المركب أعلى الماء. أبى النوخذة أن يساعدهم في إنزال الحمولة. ابتسم ابتسامة واسعة، باحتقار مازح، كاشفًا بضحكةٍ عن أسنانه المصفرّة.

قال وهو يجيل نظره في جسد حمزة في هزء ودود: «أتظن أن هذا العمل يسير؟ تحتاج إلى مهارة لفعل هذا، وقوة الثور».

شكر حمزة النوخذة الذي قَبِل اصطحابه معهم بلا مقابل، وصافح البحارة. عبر بخطوات حذرة اللوح الخشبي إلى الرصيف، متشنّج الجسم تحت وطأة كتمان الألم الثائر في فخذه، وقد ساء حاله بعد الليلة التي قضاها منحشرًا بين أضلع المركب. لم يسأله أحدهم عن آلامه، وإن كانوا بلا ريب لاحظوا عرجه. أحسّ بامتنان لصمتهم، لأن التعاطف في هذه الحالات يعني إشراكهم بالعلم بما جرى بالمقابل. مشى على الرصيف شبه الخالي دون أن

ينظر إلى الوراء، لكنه تساءل إن كان النوخذة وطاقمه يراقبونه ويتكلّمون عنه.

عبر بوابة الميناء المشرّعة دون حراسة قاصدًا البلدة. مرّ بأناس يحثّون الخطى تجاه الميناء لبدء أعمالهم. لم يكن يعرف هذا الجزء من البلدة جيدًا. فقد كان يقطن في الضواحي ولم يزر مركز البلدة إلا نادرًا، لكنه لم يشأ أن يبدو للرائي مترددًا أو ضائعًا، فسار بعزمٍ وثقة، قدر ما يسمح به ألم فخذه، يفتش عن شارع أو مبنى مألوف. كان الشارع الذي يسيره فيه واسعًا في بدايته محفوفًا بأشجار النيم، لكن كلما تقدّم ضاق الشارع وتفرّعت منه الأزقة. وكلما تقدّم توغّل الذعر أكثر إلى أعماقه. كان الناس يخرجون من الأزقة، واثقين بخطاهم، وما زال هو لا يدري أين يمشي. شقّت عليه معرفة الاتجاهات مع تزاحم الناس، لكنه استمدّ من ذلك سكينة. إنه الآن في طريق مزدحم فلن يظهر تردده وشكّه جليًّا عليه. وسوف يتعرّف على مَعْلمٍ ما، عاجلاً أم آجلاً. لما عثر على مبنى البريد القديم جلس على العتبة خارجه في ارتياح، وانتظر حتى يزول الذعر من قلبه تمامًا. مرّ المشاة والدرّاجة أمامه، وسيارة أو اثنتان تمخران عباب أكوام البشر بكل صبر.

لازم الشوارع الهادئة بعد أن ترك مكتب البريد، يظن أنه يعرف موقعه لكنه غير واثق حقًّا. سار دون وجهة في ممرات باردة تحت ظلال الأشجار، مارًّا على أبواب مواربة ومجارٍ طافحة. قطع طرقات واسعة فيها المقاهي المكتظّة بزبائن الإفطار، ثم دخل مرة أخرى في أزقة ضيقة تنحني فيها البيوت على بعضها في ألفة حجرية مَهِيبة. لم يعتد حمزة هذه الشوارع التي تفوح منها عبق الطهي ونتانة البالوعات، وصدى أصوات النساء داخل الأفنية المغلقة. أحسّ بنفسه متلصّصًا. لكنه ظلّ سائرًا على أية حال، مستلذًّا بالغرابة المضنية التي تبعثها الأزقة في نفسه، مألوفة ومنفرة في آن واحد. أدرك بعد حين أنه

عاد إلى الشوارع ذاتها التي سار بها من قبل، وأن النظرات المتسائلة بدأت ترصده، فأجبر نفسه على قطع الحلقة التي دخل فيها واتجه إلى طريق مختلف.

في الظهر وصل إلى باحة شُرّعت بوابتها الخشبية. أمامها طريق ترابي، وفي مقابلها وعلى جانبيها بيوت سكنية جعلت الباحة تبدو أحد مكوّنات حياة الشارع العادية. أوقفه شيء ما عندها، ثم اقترب وهو يقول في نفسه قد أجد لي فيها عملاً أو أنال قسطًا من الراحة على الأقل. سمع عبر البوابة المفتوحة جلبة الأصوات وطرق المطارق، عمّال يؤدون أعمالهم بتفانٍ. رأى رجلين يبدّلان عجلة سيارة ڤان مرفوعة على كومة طوب، أحدهما يجلس على ركبتيه ممسكًا العجلة، والآخر يقف بجانبه بيديه المفكّ والمطرقة لمناولته عند الطلب. كان أكبرهما الجالس على ركبتيه يتكلم بصوت هادر. صوته وحده مصدر الجلبة كلها. وهو ملتفت إلى صاحبه الذي افترّت شفتاه عن بداية ضحكة. كان رأس صاحبه أكبر من جسده بما يستحيل ألا يلاحظه من يراه. ألقى حمزة عليهما نظرة، وسمع ما يكفي من التهكم والتبجّح والضحكات المغتصبة ليدرك أنها دعابات الشارع المألوفة والتي يُقصد بها أن يسمعها الجميع. لم يلتفت إليه الرجلان رغم وقوفه قريبًا منهما، أو ربما تظاهرا أنهما لم يرياه. خلف الڤان والرجلين، تحت شجرة جوز هند يافعة في زاوية الباحة، جلس صبي يطرق المسامير في صندوق تعبئة. بجواره ثلاثة صناديق قد فرغ من صنعها، وآخر مفتوح تملؤه نشارة الخشب. وصبيّان آخران، لم يتجاوزا الطفولة، يحملان قدرًا معدنية ساخنة بين عصيين، متجهان إلى داخل المبنى الذي يحتلّ جانبًا كاملًا من الباحة الواسعة. خمّن من الرائحة أن في القدر زيتًا أو ورنيشًا. كانت أبواب المبنى مفتوحة على مصراعيها وتناهى إلى سمعه أعمال نجارة الخشب، صوت المنشار والمسحاج والطرق المتقطّع، وبلغت أنفه رائحة نشارة الخشب العطرية اللاذعة. رأى بابًا صغيرًا في طرف مبنى الورشة، يجلس فيه رجل إلى مكتبه، منكبًّا على سجله، نظارته ذات الإطار

المعدني تستقر على أنفه. اتجه حمزة إليه بخطوات متئدة قصيرة جاهدًا في إخفاء عرجه.

كان الرجل الجالس إلى المكتب يرتدي قميصًا واسعًا طويل الكمّين من القطن الخفيف البارد، فبدا مرتاحًا. كان أصلعَ تتخلل لحيته القصيرة الخفيفة شعيرات رمادية. طاقيته المطرّزة موضوعة بجانب السجل على المكتب. في أوائل الثلاثينيات، قوي البنية متين العضل. استنتج من انكفائه على مكتبه وانشغاله بأعماله أنه صاحب الباحة. وقف حمزة عند الباب دون أن يتكلم، منتظرًا أن يرفع الرجل رأسه ويدعوه إلى دخول المكتب أو يطرده. الصباح بارد الأنسام، وقد اعتاد على الانتظار. استمر وقوفه على هذه الهيئة دقائق طويلة، وقد حذّر نفسه من أن يبدي تضجرًا أو تململاً. رفع الرجل رأسه بحدة، كأنه قد أحسّ بوقوفه طوال هذا الوقت لكن صبره نفد فجأة. رفع نظارته فوق رأسه وتفرّس في حمزة تفرّس المتأني الواثق من مكانته في هذا العالم. قطّب جبينه ولم يتكلم، منتظرًا أن يعرّف حمزة بنفسه ومقصده. ثم أمال الرجل ذقنه قليلاً ففسّر حمزة هذا على أنها دعوة تعنّتية لبدء الكلام.

قال: «أنا أبحث عن عمل».

وضع الرجل كفه وراء أذنه اليسرى لأن حمزة تحدّث بصوت منخفض.

«أنا أبحث عن عمل إذا سمحت». قالها حمزة بصوت عالٍ، وزاد الرجاء لأنه لا يدري إن كان الرجل يريد منه أن يستعطف، يريد منه أن يتذلل.

أسند الرجل ظهره إلى الكرسي وشابك أصابعه خلف رأسه، وقوّس كتفيه لينفض عن منكبيه أعباء عمله. سأل: «ما العمل الذي تبحث عنه؟».

قال حمزة: «أي عمل».

ابتسم الرجل. ابتسامة رجل مرهق يودّ أحدهم إضاعة وقته، ابتسامة مرّة

متعجبة. سأل: «ما العمل الذي تجيده؟ حمل البضائع؟».

رفع حمزة كتفه. «نعم وأستطيع أداء أعمال أخرى».

قال الرجل بنبرة صارمة طاردة: «لا أحتاج إلى حمالين»، ثم عاد إلى سجله.

قال حمزة بشيء من التحدي: «أستطيع القراءة والكتابة»، ثم أضاف متذكّرًا ظروفه: «يا بوانا».

نظر الرجل مباشرةً إليه وانتظر، يريد تفاصيل أكثر، معلومات أكثر. سأله: «إلى أي صف دراسي وصلت؟».

قال حمزة: «لم أدرس في مدرسة. علّمني شخص قليلاً ... ثم علّمت نفسي».

«كيف علّمت نفسك؟ أوه، لا عليك. أتعرف حفظ السجلات؟»، وأشار الرجل إلى سجله، لكن حمزة كان يعلم أنه ليس جادًّا. لن يسمح أي تاجر لغريب أن يطّلع على سجلات تجارته.

صمت حمزة قليلًا ثم قال: «يمكنني أن أتعلّم».

تنهد الرجل وأزاح النظارة عن رأسه. فرك الشعرات القصيرة في فروته بكفه الأيمن فأصدرت صوت احتكاك واهٍ. سأل: «أتجيد النجارة؟ أريد أن أوظّف عاملًا في الورشة».

كرّر حمزة: «يمكنني أن أتعلّم»، فابتسم الرجل ثانيةً ابتسامةً أقلّ مرارةً هذه المرة، ولربما شابها بعض العطف. تفتّق الأمل في قلب حمزة بمرأى هذه الابتسامة.

سأل: «إذًا أنت لا تجيد النجارة لكنك تعرف القراءة والكتابة. ما آخر وظيفة اشتغلتها؟».

لم يتوقع حمزة هذا السؤال وأدرك حينئذ أنه كان يجدر به توقع هذا السؤال. لم يحر إجابة عنه والتزم السكوت طويلاً، حتى إن الرجل وضع نظارته على أنفه ثانية وأمسك بسجله. وقف حمزة مكانه، لدى عتبة الباب، وانتظر حتى يفرغ الرجل من الكتابة. تساءل إن كان من الأفضل أن يغادر قبل أن ينزعج منه الرجل ويتطاول عليه، لكنه لم يقدر على الحركة كأنما أصابه شلل. بعد مرور عدة دقائق رفع الرجل رأسه وأطال النظر إليه متضجرًا، ثم أعاد إلى القلم غطاءه ولبس طاقيته وقال لحمزة: «تعال معي».

هكذا أصبح حمزة، دون تخطيط منه، يعمل لدى التاجر ناصر بياشارا. أخبره التاجر فيما بعد أنه قَبِل عمله لديه لأنه رأى فيه شيئًا أعجبه. كان حمزة في ذلك الحين في الرابعة والعشرين، مرهقًا متوجعًا، معدمًا مشرّدًا، في بلدة عاش فيها قبل أعوام لكنه لا يعرفها، فلا يدري ما الذي رآه التاجر فيه فيعجبه.

اصطحبه ناصر بياشارا إلى الباحة ونادى الصبي الجالس عند صناديق التعبئة. كان التاجر أقصر مما قدّر حمزة حين كان جالسًا إلى مكتبه لكنه يسير بخطوات عجلة ثابتة، فوصل إلى الصبي قبل أن يشرع الصبي في تلبية النداء.

قال التاجر: «خذ هذا الرجل إلى المستودع. ذكّرني باسمك ... قل لخليفة إني سأحضر بعد قليل». كان اسم الصبي سُنغُورا لكنه ليس اسمه الحقيقي. وسُنغورا تعني أرنب. وهو ليس صبيًّا بل رجل بالغ لكن حجمه حجم صبي نحيل في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، يكشف وجهه المتقلب الشاحب حكاية أخرى مختلفة عما يخاله المرء من النظرة الأولى. لمح في وجهه سمات مألوفة، هذا الوجه الحاد بارز العظام والخدان الناتئان والذقن المدبب والأنف النحيل والحاجبان المتغضنان؛ هذا وجهٌ من عشيرة الخويخوئيين. رأى حمزة وجوهًا كثيرة من الخويخوئيين في الأعوام الماضية. وجوه عابسة

وأجساد هزيلة، كجسد مراهق مريض. على الأرجح أنه ليس من وجوه الخويخوئيين، بل وجه لم يرَ شبيهه قط من قبل، من مدغشقر أو سقطرى أو جزيرة قصيّة ما سمع عنها. اكتظّ عالمهم بالوجوه الغريبة بعد الحرب الأخيرة، لا سيما في هذه البلدات المتوزعة بطول ساحل المحيط، التي لطالما استقطبت البشر عبر البر والبحر، بعضهم طائعون وآخرون مكرهون. وربما لم يكن الأمر كذلك، ربما يكون وجه رجل نشأ في عوز وشقاء، أو نزلت به إحدى مصائب الدنيا التي تحلّ على البشر.

انطلق سُنغورا وتبعه حمزة. عندما مرّا بالرجلين اللذين يصلحان السيارة أصدر الكبير الجالس على ركبتيه أصوات مص وتقبيل موجّهة إلى سُنغورا، وقلّب عينيه كالشَبِق المهتاج. كان مستدير الوجه خشن اللحية. أخذ الرجل الثاني الذي يلبس بنطالاً قصيرًا رثًّا من قماش البفتة يقهقه ويضحك برقاعة، فاتّضح أنه المهرّج المصفّق لذاك المتنمّر. لم يرد سُنغورا ولم تكشف ملامحه شيئًا لكن حمزة شعر بجسد الرجل ينكمش. أنبأته تصرفاته أنه اعتاد على هذه المعاملة، وأنه يُكلّف دائمًا بأحقر الأعمال. بعد أن خرجا إلى الشارع أبطأ سُنغورا واختلس نظرة نحو فخذ حمزة. معناها أنه رأى عرج حمزة وأنه يدعوه - من باب احترام المنبوذ للمعاق - إلى أن يحدد وتيرة السير كما يشاء.

مشيا ببطء في الشوارع المزدحمة المغبرة، المحلات تصطف على جانبيها وتفيض بالسلع: أقمشة، وقدور ومقالٍ، وسجاجيد للصلاة، وصنادل، وسلال، وعطور وبخور، ويمرّان بين حين وآخر على بائع فاكهة أو كشك قهوة. انجلت برودة الصباح لكن حرارة النهار لم تشتدّ بعد، فكانت أمزجة الحشود رائقة حتى في تدافعهم وتزاحمهم. تشق العربات لها طريقًا بين المشاة وتعلو صيحات السائقين محذرةً، وترن أجراس الدرّاجات وسائقوها يتسلّلون بين الأجساد المتراصّة. تهادت امرأتان مسنّتان غير عابئتين فكان

الجمع ينشّق من حولهما متعجلين، كأنهما جلمودان في وسط جدول.

ارتاحا عندما دخلا بعد السير عدة دقائق إلى طريق واسع مظلّل يفضي إلى ساحة خالية تحيط بها مجموعات من المستودعات. خمسة مستودعات، ثلاثة مجتمعة في مبنى واحد والآخران منفصلان لكنهما متجاوران. كان مستودع ناصر بياشارا منفصلاً يقع في زاوية الساحة بالقرب من الطريق. كان الباب الخشبي غير المطلي مواربًا، لكن الظلام الشديد في الداخل حال دون رؤية أي شيء. وقف سُنغورا عند الباب ونادى. مر بعض الوقت، خاله حمزة دقائق، فاضطر سُنغورا إلى النداء ثانية حتى ظهر رجل من ظلال المستودع. كان رجلاً طويلاً نحيلاً في الخمسين، حليق الذقن أشيب الشعر. يرتدي قميص مخططًا وبنطالاً خاكيًا، هندامه أرقى من أن يكون عاملاً بالمستودع. انتقلت نظراته الغاضبة بين الاثنين، ملامحه غير ودودة إطلاقًا، ثم خاطب سُنغورا: «ما كل هذا الإزعاج؟ ما خطبك أيها الأحمق؟». لهجته منزعجة موبّخة، كأن كل ما سيخرج من فمه شتيمة. أخرج منديلاً نظيفًا من جيبه ومسح يديه.

لم يصدر سُنغورا في رأي حمزة جلبة تستحق، لكن سُنغورا لم يعترض. قال: «بوانا ناصر أمرني أن أحضره. سوف يأتي بعد قليل. سأذهب الآن». ثم استدار للمغادرة.

قال عامل المستودع: «هيه، عم تتحدث؟»، لكن سُنغورا تابع مشيه دون رد أو نظرة للخلف، خطوته خجلة لكن عنيدة. أصدر الرجل صوتًا هازئًا في ظهر سُنغورا المبتعد وقال شيئًا لم يسمعه حمزة. رفع عامل المستودع ذراعه محييًا حمزة ودفع الباب المفتوح أكثر وأشار إلى مقعد طويل داخل المستودع. جلس عليه كما أُمر وشعر بعيني الرجل تحاولان سبر أغواره.

سأل: «ماذا يجري؟ أأنت زبون؟».

هزّ حمزة رأسه نافيًا.

«لماذا أرسلك؟».

قال حمزة: «أتيت للعمل».

«لم يقل لي أي شيء عن الموضوع».

انتظر هذا الرجل الذي يظن أن اسمه خليفة أن يخبره بالمزيد، ثم هزّ رأسه منزعجًا لما التزم حمزة الصمت. وقف ينتظر لحظة، يستجمع شتات تفكيره، ثم أومأ ببطء أكثر من مرة كأنه استسلم وإن لم يبرحه الغيظ. بعد أن ألقى عليه نظرة أخرى تبعتها تنهيدة عميقة عاد أدراجه إلى ظلال المستودع. كل هذه التصرفات استعراض غير ضروري على الإطلاق، لكن يبدو أنه رجل بغيض في كل ما يقوله ويفعله. لكن إن كان هذا هو الذي يريده التاجيري أن يعمل تحت إمرته فليكن. سوف يتعلم.

لم يبدُ المستودع من الخارج واسعًا، لا تتعدى مساحته ستين خطوة بالطول تقريبًا، أي بحجم ثكنة ذات ست حجرات. مبنيٌّ بالحجر المرجاني والملاط، تآكلت قشرته الخارجية وانكشفت الطبقة التي تحتها، ومسقوف بالصفيح. ولو فيه نوافذ فإنها مقفلة، فالنور الوحيد المتسرب إلى المستودع قادم من تحت الطنوف. لمّا تكيّفت عينا حمزة مع الظلام رأى صناديق وعلبًا مرصوصة في الجانب القريب منه وزكائب من الخيش منتفخة ومتراصّة فوق بعضها بالداخل. ظنّ أنه يشم رائحة خشب وجلد غير مدبوغ وربما زيت محرّكات، ورائحة نفاذة لألياف الجوت التي تقادم الزمن بها. استحضرت الروائح في ذهنه ذكريات حياته السابقة في هذه البلدة. أرسل بصره إلى الساحة. رأى رجلاً يقطع طرفها البعيد، ولا حركة فيها سوى هذا. والساحة رحبة، ولربما بدت له كذلك لأنها خالية. كانت أبواب جميع المستودعات الأخرى مقفلة.

مكانٌ صامت موحش مهجور ومهمل، وإن كانت كل الأبنية سليمة. منظرٌ يفتُّ في العزيمة.

هزّ رأسه صارفًا عن ذهنه هذه الأفكار، مقاومًا ميله إلى الاكتئاب. الحزن يضعف العزم، كما كان باسكال يردد. ابتسم عندما تذكّر باسكال. من حسن طالعه أن أتيحت له فرصة الحصول على عمل فور وصوله إلى البلدة، لكن الحذر واجب، لن يفرح بهذه النعمة وهو لا يدري إن كانت الوظيفة له بعد. انتهت شهور الترحال التي امتدّت أعوامًا، وها هو الآن يبدأ بداية أخرى جديدة بحضرة جماعة طيفية من المشككين. لم يتوقع عودته إلى البلدة. كان يظن عندما تركها أنها بداية حياة جديدة لكنها انتهت الآن بخيبة رجوعه حيث كان من قبل، أكبر سنًّا، مكسور الجسم، خاوي اليدين.

لا يعلم حمزة ما العمل الذي سيكلّفه به التاجر. فانتظر على المقعد خافضًا بصره من شدة الوهج، سعيدًا بالظل والراحة. بدأ ألم فخذه يخفّ، إنه واثق من هذا. يخف كلما تتابعت ساعات اليوم وكثر سيره، لكنه لا يستطيع السير وقتًا طويلاً دون الارتياح في كل حين. يجب أن يتعلم العيش مع الوجع، وإلا خضع للألم وحوّله إلى عاجز كما فعلت الحرب بالكثيرين. لا يمكن أن يحصل هذا. لقد شفي بعد معاناة طويلة. وبعد مغادرة الإرسالية أرغم جسده على تحمل الكثير وهو لمّا يستعد كل قوته، فلم يعرف ما بوسعه أن يفعل. يجب أن يتحكم بالألم. أدرك وهو جالس على المقعد أن الإنهاك والوجع يكادان ينالان منه، إنه على شفا الانهيار. يجب أن ينام. عوّد جسده على العيش بلقيمات قليلة لكنه لم يعتد بعد على العيش دون نوم.

ظنّ حمزة أنه سمع أصواتًا خافتة من أعماق المستودع المظلم وتساءل كيف لخليفة أن يرى في الحلكة، كيف يتحرك بصمت تامٍّ دون التعثر بالبضاعة. كان قد مضى على جلوسه على المقعد لحظات طويلة حين لمح بطرف عينه

حركة، وجفل حين رأى خليفة واقفًا على بعد بضعة أقدام منه داخل المستودع، عيناه تلمعان وهو يحدق به. أشاح حمزة بصره عنه لكنه ظلّ يشعر بعيني خليفة تنظران إلى جانب وجهه. فلما التفت ثانية لم يجد أحدًا. لم يخش منه شرًّا. فخليفة متهندم ومتعلم لا يتوقع منه أذى، وحمزة مرهق ومحتار قليلًا من تصرفاته العجيبة.

كان التاجر ناصر بياشارا مستعجلاً عندما وصل إلى المستودع مرتديًا سترة من الكتان الأبيض وطاقية، في طريقه إلى إنجاز أعمالٍ أخرى. هبّ حمزة واقفًا متأهبًا لتنفيذ الأوامر. نادى التاجر: «خليفة! أين ذهب؟ خليفة!».

ظهر خليفة بعد دقيقة وقال بسخرية واستهزاء: «نعم، بوانا كوبوا». نعم يا سيدنا الكبير.

قال ناصر بياشارا: «هذا موظفنا الجديد. أرسلته ليساعدك في المستودعات».

قال خليفة متواقحًا: «يساعدني في ماذا؟ ما نيتك هذه المرة؟».

لم يلتفت التاجر إلى جرأة خليفة وظلّ يخاطبه بلهجة رسمية حازمة: «هل أخليت مساحةً للشحنة الجديدة؟ يمكنه مساعدتك في ذلك. سوف تصل خلال أيام معدودة».

قال خليفة: «أخليتها وانتهيت»، ثم مسح يديه تأكيدًا.

قال ناصر بياشارا: «سوا. سوف تأتي الڤان لحمل الأخشاب فور تغيير العجلة. لكن قد تتأخر لأنهم سيأخذون العجلة الأخرى إلى الميكانيكي لإصلاحها. تكلفني هذه السيارة ثروة. على أية حال، أطلعه على الأعمال هنا. يمكن أن يساعد في التحميل. وسوف يكون الحارس الليلي من اليوم. اذهب به إلى الورشة بعد إقفال المستودع كي يدل الطريق. يجب أن أذهب إلى

المصرف الآن».

سأل خليفة بعد أن غادر التاجر: «ما اسمك؟».

أجاب: «حمزة».

«حمزة ماذا؟». تعجّب حمزة من فظاظة خليفة، فرفع كتفه دون إجابة. ليس ملزمًا بالإجابة عن هذه الأسئلة، خاصةً بهذه النبرة الغليظة. فعاد إلى الجلوس على المقعد. سأل خليفة: «من أهلك؟» ظنًّا منه أن حمزة لم يفهم السؤال.

«لا شأن لك».

ابتسم خليفة. «فهمت ... لديك سرٌّ تخفيه، هاه؟ لا عليك. ابدأ عملك بكنس القمامة»، وأشار إلى منطقة أمام بوابة المستودع تكاد تخلو من أي قمامة. «ستجد المكنسة خلف الباب ... ولا تثر غبار الأرض. هيا هيا، لم تأتِ هنا للراحة».

تحيّر حمزة في سبب هذه الفظاظة. كنس الساحة كما طلب منه، وجمع الغبار والقمامة في كومة صغيرة بجانب الباب، ثم عاد إلى المقعد. عندما جاءت الشاحنة لحمل الخشب فتح خليفة نافذة ذات قضبان فعمَّ نور الظهر أرجاء المستودع. تكاسل في ظل المستودع السليطُ من بين الرجلين اللذين رآهما حمزة في الباحة هذا الصباح، وكان اسمه إدريس، يدخن ويتواقح بهتافات تشجيع بذيئة، بينما حمزة يعين رفيقه الأشعث في حمل الخشب. وكانت ألواحًا خشنة القطع في طريقها إلى الورشة. لونها وردي فاتح لم يقدر حمزة أن يمنع نفسه من الانحناء لاستنشاق رائحتها. وقف خليفة بجانب باب المستودع يراقبهم بعينيه دون تقديم أية مساعدة. لم يستغرق تحميل الخشب سوى دقائق معدودة، جلس بعدها خليفة على المقعد وجلس حمزة على صندوق

قربه. يبدو أن لا مهام أخرى تنتظر من يتمّها. أراد أن يسأل خليفة عن اسم هذا النوع من الخشب، لكن اختلاج الاستهجان على وجهه منعه.

«حارسنا الليلي». كرّر خليفة كلمة التاجر والاحتقار يقطر من ابتسامته، نظر إلى حمزة ثم نظر إلى الساحة. «ما السبب الحقيقي الذي دفعه إلى إحضارك إلى هنا؟ ماذا ينوي أن يفعل؟ هل وعدك بأن تكون أمين المستودع؟ حارسنا الليلي! بمجرد أن ينظر اللصوص إلى شكلك سوف يفرّون من الرعب لا يريدون إلا النجاة بأرواحهم، هاه؟ وظّف التاجيري حارسًا ليليًّا! لماذا الآن؟ لطالما احتفظنا بالبضائع الثمينة هنا منذ سنوات ولم يفكر مرةً أن يعيّن حارسًا ليليًّا. سيعطيك قطعة قماش ميريكاني تتدثر بها وعصا صغيرة، ويجعلك تجلس هنا طوال الليل مع الشياطين والأشباح التي تسكن المكان. أحيانًا يقلق على أمواله. أعتقد أن السبب هو الأجهزة الجديدة التي يشتريها. لا تبدو لي أنك حارس. الحرّاس لهم أفخاذ ثقيلة وبشرة لامعة، وخصيات كبيرة. لا أدرى كيف اختار شخصًا هزيلاً مثلك لتكون الحارس».

ابتسم حمزة أمام هذا الهجوم الذي لا مبرّر له، وعجز عن إيجاد قول مناسب يحتجّ به. حتى هو لن يختار نفسه ليكون حارسًا ليليًا.

قال خليفة: «تبدو مريضًا. لا شك أنك أثرت عاطفته وجعلته يتذكر أيام عسره. تخطر له أحيانًا أفكارٌ غبية. أسمعته وهو يتظاهر بأنه رجل أعمال مشغول؟ سوف أذهب إلى المصرف الآن. المسكين مشغول!».

تنهد خليفة بعمق واتكأ على باب المستودع مغمضًا عينيه. كان وجهه نحيلاً يعطي انطباعًا بالتقشف، كأنه وجه ناسك ربما، أو وجه رجل ذاق المرارة والفشل. تنهد حمزة بصمتٍ عندما أدرك أنه سيعمل لدى هذا العبوس المتبرم.

حرّك خليفة فكّيه كأنه ينوي بصق شيء خارج فمه، وقال بعد صمت طويل: «لن يبقى شيء هنا قريبًا. ليتك رأيت المكان كما كان: يعج بالتجار والناس، يختلطون ويساومون .. بائع القهوة له كشك هناك، والعربات المحمّلة بالسلع من الميناء، بائع الفاكهة على عربة القاري، وبائع المثلجات يدفع عربته، والحركة والهرج في كل مكان. ذاك المكان المقفل بالألواح الآن كان مقهى، والناس يبيعون العصير والكسافا في المنتصف هناك. في الجانب هنا كانت تقف مضخة ماء عمودية تجري فيها مياه نظيفة صالحة للشرب. انظر إلى حال المكان الآن. لا أحد يأتي إلى هنا. لا يوجد إلا القحط والعدم. تلك المستودعات هناك ...» وأشار إلى مبنى المستودعات الثلاثة «اشتراها مقاول من التاجيري البهري علي الدين. ما أعظمه من رجل! أسمعت عن البهري علي الدين؟ تلك كانت مستودعاته، وله متاجر ومستودعات في كل البلاد في هذه الناحية من العالم، وصولاً إلى البحيرات العظمى. كان يتاجر مع الهند وفارس وإنجلترا وألمانيا. والآن يحفظون فيها الإسمنت والمراحيض والأنابيب، بعد أن كانت ممتلئة في الماضي بالحبوب والسكر والأرز. سوف ترى، يرسل المقاول كل يومين شاحنة إلى هنا ويحمّلونها بالأغراض ويأخذونها لتأثيث قصور الأثرياء. كان الناس يجيئون ويروحون في هذه الساحة كل يوم، يبيعون ويشترون، المكان يضج بالحياة والتجارة، لكنه الآن مجرد مكان يستودع فيها الأغنياء ما لا يمكن لنا شراؤه».

سكت خليفة مرة ثانية لحظات، منساقًا وراء سخطه، يرمي بالنظرة تلو النظرة نحو حمزة سئمًا من عدم إجابته. سأل أخيرًا: «ما بالك؟ ألا تتكلم؟» وزمّ شفتيه وحرّك فكّيه كأنه يمضغ شيئًا لاذع الحموضة. ما نبس حمزة بكلمة. مرّت الدقائق وانتظرا ساكتين، وأحسّ بغضب خليفة يسكن وتنفسه يهدأ. ولمّا عاد إلى الحديث لاحظ أن الحقد زال من كلامه، كأنه استسلم للحياة ومنغصاتها.

أشار إلى المستودع المنفصل الآخر، وقال: «المستودع الآخر ملكٌ للصيني. يحفظ فيه زعانف القرش وخيار البحر وقرون وحيد القرن، وأشياء مشابهة يحبونها في الصين. يجمعها هنا بين حين وآخر على مدى أشهر، فإن اكتملت الشحنة حمّلها في سفينة وأرسلها إلى هونغ كونغ. أعتقد أن هذا مخالف للقوانين ولكنه يعرف كيف يتجنب المشاكل ويسعد الجمارك. إنهم يحبون تلك الأشياء في الصين لأنها تجعل أعضاءهم تنتصب. ولا يرتاح هذا الصيني، ولا يسمح لأحد من أسرته أن يرتاح. أرأيت منزله؟ في الفناء الخلفي صوانٍ منثورة فيها شعيرية صينية كي تجف، وفي الفناء الأمامي أسراب من البط تتمرغ في الطين، وبقالته مفتوحة من الفجر حتى آخر الليل... وطوال الوقت يرتدي بنطالاً قصيرًا وقميصًا طويلاً كأنه عامل، يعمل في كل ساعات النهار والليل. أسمعته يتحدث؟ يتكلم مثلي ومثلك... ليس فونغ فونغ فونغ الذي تتوقعه من صيني. وكل أولاده كذلك. إذا سمعتهم يتحدثون وقد أغمضت عينيك فلن تحسب أبدًا أنك تسمع صينيين. أسمعتهم يتحدثون؟».

قال حمزة: «لا، لم أسمعهم».

أطال إليه خليفة النظر ثم قال: «ألا تعرف الصيني؟ لا أتذكر أني رأيتك من قبل. هل أنت غريب عن البلدة؟».

تريّث حمزة قليلاً قبل الإجابة: «إلى حد ما».

قال خليفة مبتسمًا بملل: «كيف تكون غريبًا إلى حد ما؟ ما زلت تختبئ. لماذا لا تكذب؟ الكذب أسهل وتجنب نفسك العناء. اكذب فقط وانتهى الأمر. غموضك هذا يوحي أنك تخفي أمرًا».

قال حمزة: «أنا لست غريبًا عن البلدة. عشت فيها قبل بضعة أعوام ثم رحلت».

كرّر خليفة السؤال: «من أهلك؟».

أجاب حمزة كاذبًا كما أمره خليفة: «إنهم يعيشون على مبعدة من هنا».

قال خليفة بشيء من الازدراء: «أرحلت إلى أماكن بعيدة؟ أعتقد أنك فعلت. أخبرني، أكنت جنديًا بالحرب؟ هذا ما خطر في ذهني عندما رأيتك. تبدو متشرّدًا».

رفع حمزة كتفه دون إجابة ولم يلحح خليفة. أوصد باب المستودع بعد أذان الظهر وعادا إلى الباحة الرئيسة. كان الجو حارًّا وإن لم يبلغ القيظ، والمشي ممتع، حتى بلغا الطريق المزدحم بالمتاجر، ما بين البضائع المتناثرة واكتظاظ الطريق والرصيف. أجبرتهما الفوضى واللغط وشتائم حشود الظهر على التدافع والانحشار بين الناس المنطلقين إلى بيوتهم أو إلى السوق أو المسجد بأسرع ما يمكن. لم يعد ناصر بياشارا من المصرف بعد، فجلس خليفة خارج مكتب التاجر ينتظره، أما حمزة فتوجّه إلى الورشة الصامتة الآن تشدّه رائحة الخشب والراتنج. وجد شيخًا يجلس في الزاوية يطرّز طاقية. رفع بصره من فوق النظارة ثم عاد إلى التطريز. فكّر حمزة بأن الرجل هو النجار وأنه في استراحة غداء. ألقى السلام ثم همّ بالمغادرة.

رأى في أرجاء الورشة قطعًا متنوعة من الخشب: كرسي هزاز، ومناضد، ومقعد طويل منقوش، وطاولة جانبية عليها قطع أصغر حجمًا مثل الصحون والخزانات، بعضها بخشب لونه برونزي وبعضها بلون خشبي باهت، وجميعها غير مكتملة الصنع. كأن النجّار يعمل على صنع أكثر من قطعة في وقت واحد، أو أن في الورشة أكثر من نجار.

انتشرت رائحة الخشب هنا، وتساءل حمزة ما أنواعه. كان اشتغاله بإصلاح الأثاث في الإرسالية عمل مبتدئ غرٌّ، يصلح ما انكسر أو انفصل. لا علم له بالخشب إطلاقًا لكنه أحبّ رائحته الثرية الطبيعية. اغترف بيده

من نشارة الأرض واستنشق رائحتها. رفع الشيخ بصره عن تطريزه وقال: «ساج»، فاستودع حمزة الاسم ممتنًّا في ذاكرته. اتجه إلى كومة أخرى من النشارة تفوح منها الرائحة اللاذعة، وقبل حتى أن يبلغها قال الشيخ: «صنوبرية»، ثم تبسّم مستمتعًا باللعبة. قال: «الساج يعمّر إلى الأبد، أصلب من المعدن. أتعتزم الشراء؟».

أجاب حمزة: «لا، أتيت للعمل لدى التاجر». نعر الرجل وعاد إلى تطريز طاقيته.

لما خرج حمزة إلى الباحة وجد أن خليفة غادر. جلس في الفيء ينتظر أوامر التاجر، وظلّ مكانه حتى بدأ الرجال يعودون إلى أعمالهم على هوادة بعد العصر. قطع رجل لم يره من قبل الباحة متجهًا إلى الورشة. شعره لامع حالك السواد يرفعه برباط كذيل حصان. سار متمهلاً متأنّيًا وهو يجرز سنغورا بالشتائم. هيه، أيها السافل الصغير، قل لأمك أن تدهن نفسها جيدًا، سآتيها آخر الليل. ضحك سنغورا كطفل مغلوب على أمره، كاشفًا عن أسنان متداخلة.

مكث حمزة في الانتظار العصر كله. رأى إدريس ورفيقه يرتاحان في السيارة ساعة أو اثنتين قبل أن يختفيا. وظل جالسًا حتى بعد أن أغلق الشيخ ومعاونه ذو الشعر الناعم الورشة وغادرا. شعر طبعًا بالبلاهة وهو قابع هنا ينتظر طوال هذه الساعات لكن لا مكان يذهب إليه، وقد اشتد تعبه، ولا يدري حتى إن كان التاجر تذكر وجوده. رجع التاجر إلى الباحة بعد ساعات مع ارتفاع صوت المؤذن لصلاة العصر. لم يكن في المكان معه إلا سنغورا الذي ينتظر إقفال الباحة. تفاجأ ناصر بياشارا حين رأى حمزة ينتظره.

قال: «ماذا تفعل هنا؟ أكنت تنتظر طوال هذا الوقت؟ ما خطبك؟ اذهب إلى بيتك الآن. يمكنك أن تبدأ العمل في المستودع غدًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

9

بات حمزة تلك الليلة عند بوابة المستودع لأنه لا يملك مكانًا آخر يأويه. جال في الطرقات قليلًا يفتش عن أماكن يعرفها، لكنه لم يعرف إلا القليل وغالبًا ما تاه في تجواله. انقاد وراء حركة الجموع حتى وجد نفسه دون أن يدري في طريق الساحل. سار في الطريق فرحًا بالتعرف على هذا المكان، وأخذ يبحث عن البيت الذي عاش فيه صغيرًا، لكنه لم يستطع العثور عليه. إنه يعتقد أنه يبحث في المنطقة الصحيحة، لكن ربما هُدم المنزل وأقيم في موضعه مبنى آخر. كانت البلدة في ذلك الحين ضمن منطقة شرق إفريقيا الألمانية وهي الآن مستعمرة بريطانية، لكن هذا لا يفسّر اختفاء منزل بحديقة مسيّجة ومحل في مقدمته. كأن البلدة نمت خارج حدودها واختفت بعض أحيائها. لم يغب سوى سبعة أعوام، لا يمكن أن تتبدل البلدة كثيرًا في هذه المدة. أو ربما أخطأ الحي. كان نادرًا ما يخرج من البيت الذي كان يسكنه، يعيش حياة خوف في حجرة خلف محل، وربما يكون قد نسي الشوارع القليلة التي عرفها. ربما فقد جزءًا من ذاكرته خلال السنين جراء الأهوال التي عاشها. وربما أن الإنهاك الذي يحسه غلّب عليه الشعور بأن كل ما يراه غريب عليه. بعضهم يحيّونه كأنهم يعرفونه، بابتسامة، بتلويحة ودودة، أو حتى مصافحة، لكنه متأكد أنهم لا يعرفونه. لا بد أنهم يحسبونه شخصًا آخر. هو واثق أنه لا يعرفهم.

عاد إلى المستودع عندما بدأ الظلام يشتد. كان مصباح الشارع يطل على الساحة من الطرف القصي، يرمي نوره الخافت على الأرض فتتعدد الظلال،

لكنها جلت ولو قليلاً الفراغ المقلق. تذكّر أن في نهاية ذاك الشارع مسجدًا لأنه سمع منه أذان الظهر. توجه إليه للغسل والصلاة. تفسّح الناس لينضم إلى صفوفهم، وبقي برهة بعد الصلاة مبتغيًا رفقتهم. وعندما أقفل المسجد بابه ليلاً عاد إلى المستودع وتمدّد عند الباب في المكان الذي كنسه أول النهار، وتوسّد الصرّة التي تحوي كل ما يملكه. لم ينم إلا لمامًا رغم إنهاكه. الألم في جانبه مبرح والبعوض لا يكف عن القرص. جاست القطط في مكان قريب، بلغه مواؤها وأحس بتحديقها تحت أستار الظلام. وحين غفت عيناه تكدّر نومه بالأحلام: سقوط في خواء سرمدي، زحف فوق أشلاء بشرية، تعنيف من وجه شوّهت الكراهية الخالصة معالمه. صرخات وضربات، وتلال بعيدة تتدفق من قممها أحشاء حمراء.

ما بارحته الكوابيس إلا نادرًا. ولشدّ ما ارتاح أن نادى المؤذن لصلاة الفجر وذهب إلى المسجد للاغتسال.

عندما وصل خليفة فوجئ برؤية حمزة يجلس مغتمًّا على الأرض ويسند ظهره إلى باب المستودع. توقف بغته وحملق مبالغًا في اندهاشه، ثم قال: «ماذا تفعل هنا في هذه الساعة المبكرة؟ لم تحن السابعة بعد. أتسكن قريبًا من هنا؟».

منع الإرهاق حمزة من التظاهر فقال مشيرًا إلى الأرض: «نمت هنا».

قال خليفة: «لم يطلب منك ذلك. ما أنت؟ صعلوك مشرد ينام في الشوارع؟».

لم يرد حمزة. وقف على قدميه في حرص وأشاح وجهه عن نظرة خليفة الغاضبة.

قال خليفة متأنيًا في كل كلمة كأنه يوضّح أمرًا لأبله: «يريدك أن تحرس البضائع بعد وصولها. سوف يبدأ في بيع معدات الصيد ويخشى أن يقتحم

أحد الصيادين المكان ويسرقها. أذهب الحشيش عقولهم، أولئك الصيادون، لكني أستبعد أن يفعلوا ذلك. لم يكن هناك حاجة لمبيتك هنا. هل طلب منك ذلك؟».

قال حمزة: «لم أجد مكانًا آخر أنام فيه».

حدّق خليفة فيه، ينتظر أن يتملق أو يتشكّى، ولما لم يزد حمزة تقدّم خليفة نحو الباب وفتح القفل فتنحّى حمزة عن طريقه. ما إن فتح خليفة إحدى درفتي الباب ودخل إلى المستودع حتى خرج مسرعًا. «ماذا تعني بقولك إنك لم تجد مكانًا آخر تنام فيه؟ ألا تعرف أحدًا هنا؟ ظننت أنك قلت إنك كنت تعيش هنا».

قال حمزة: «قبل سنوات طويلة، خارج البلدة. لا أدري إن كان أولئك الناس ما زالوا أحياء. وإن كانوا فلا أحسبهم يريدون أن يروني مرة أخرى».

وقف خليفة لحظات صامتًا مترددًا مقطّبًا، وقد تجمّعت الاستفهامات في عينيه. حتى قال في غضب: «فقررتَ أن تنام في الشوارع كالمشرد؟ من أهلك؟ لا يمكن أن تنام في الشوارع، سوف تصاب بالأذى. ألا تعرف أحدًا تلجأ إليه؟ ألا تملك مالاً؟».

قال حمزة: «لم يمض على وصولي سوى يوم»، كأن في هذا مسوّغًا مقنعًا.

قال خليفة في عجب: «لماذا لم تطلب منه مالاً؟ ناصر .. لماذا لم تطلب من التاجر مقدّمًا لأتعابك؟». لم يحر حمزة ردًّا. «متى كانت آخر مرة أكلت فيها؟ ما أنت؟ أحمق أم وليّ؟». ثم قبض على معصم حمزة الأيمن ووضع عملة نقدية في كفّه. «اذهب وابحث عن مقهى واشتر لنفسك قدح شاي وفطيرة. اذهب، ابتعد فورًا ولا تعد إلا بعد أن تأكل».

منع الحياء حمزة من أن يطلب أي شيء، كان يخشى أن يرفض التاجر أو

يسحب عرضه الوظيفي. بل إنه لم يسأل كم أجره. لم يخبر خليفة بذلك، فذهب كما أُمر للبحث عن مقهى، وطلب فطيرة وقدحًا كبيرًا من الشاي. قابله خليفة بالتجاهل عندما عاد، فكّر حمزة أنه الآن يعدّه مثيرًا للشفقة وأقل شأنًا من أن يُعنى به. ظهرت شاحنة المقاول في آخر ساعات الصباح، وحمل ثلاثة من رجاله أكياس الإسمنت وقضبانًا معدنية، ثم انطلقت الشاحنة وسائقها يضغط بقوته على بوقها، كأنه يشق مسارًا له في طريق مزدحم. وكذلك جاء الصيني، يرتدي بنطالاً وقميصًا، ووقف يحادث خليفة الذي ظل يرسل نظراته إلى حمزة وهما يتحدثان كأنه يقول: استمع إليه ... كأنه واحد منّا، لا تسمع فونغ فونغ فونغ من هذا الصيني.

جاءت الڤان من باحة التاجر أيضًا لإيصال صناديق من صحون وخزانات صغيرة اشتغل سنغورا أمس بتعبئتها، ولحمل المزيد من الخشب أيضًا. علّم خليفة حمزة كيف يصفّ الصناديق، وما أنواع البضائع التي تُحفظ في المستودع وطريقة توزيعها وتنظيمها. هنا الأخشاب، وهناك النعوش المنقوشة، وفي الطرف البعيد جوالات الدخن، وهنا على الأرفف علب اللبان المغطاة بالقش. أراه السجل الذي تُسجّل فيها كل البضائع الداخلة والخارجة. سأله إن كان يعرف القراءة. أومأ حمزة بالإيجاب فنال نظرة قاسية من خليفة. سأله إن كان يعرف الكتابة. أومأ حمزة ثانية فابتسم خليفة ابتسامة مريرة، وقد تحقّقت الآن شكوكه حول دافع التاجر لتوظيف حمزة. إنه يهيّئوك لتحل محلي، هاه؟ كان حمزة في صباح يومه الثاني أكثر انشغالاً، وقد تحوّلت الساحة إلى مكان عمل بعد أن كانت يبابًا موحشًا. لم يهدأ النشاط إلا في آخر ساعات النهار، عندها فقط استطاع حمزة إراحة ساقيه المتعبتين.

سأله خليفة: «ماذا جرى لك؟»، وأشار إلى فخذه. جالت عيناه على ساقي حمزة ثم عادتا إلى وجهه. «أهو مرض أم جرح؟».

أجاب حمزة: «جرح».

كرّر خليفة وهو يميل ذقنه بنفاد صبرٍ، وقد بدأ تكتّم حمزة يغيظه: «ماذا جرى؟ أكنت في الحرب؟».

قال حمزة: «حادثة»، وأدار وجهه بعيدًا، عازمًا على النهوض والمغادرة إن ألحّ خليفة. لا يود أبدًا أن يخضع لاستجوابه.

لكن خليفة ضحك وقال: «أنت رجل كتوم تخفي سرًّا ما، أنا واثق. لكنك تعجبني. ولي بالناس نظرة. اسمعني، هذا المكان غير آمن للنوم هنا في العراء. أنت لا تدري ماذا يجول في هذه الأماكن الموحشة في الليل، أو ماذا يفعل الناس هنا في الظلام. لا يأتي أحد هنا في الظلام إلا بنية قذرة. ولو حدث لك شيء فلن تجد من ينجدك. يجب أن تنام داخل المستودع وتقفل الأبواب على نفسك، لكن ناصر لن يعطيك المفاتيح حتى يأمنك».

سكت خليفة منتظرًا أن يتكلم حمزة، لكنه لم يقل شيئًا. تنهد خليفة في استسلام وأردف: «أتفهم ما أقوله؟ النوم في الشوارع ليس آمنًا. لديّ في بيتي مخزن خارجي يمكنك المكوث فيه بضعة أيام. كان يستأجره مني حلاق، وبقي فيه سنتين أو نحوها ثم غادر فجأة. ما زال كرسي الحلاق ومرآته فيه. المسكين، لا أدري ماذا حصل له. ربما يأتي ليأخذهما يومًا عندما يكون مستعدًا لمعاودة العمل.

«يمكنك أن تستعمل الحجرة بضعة أيام إن أردت ... بضعة أيام لا أكثر. أعرف أنك معدم فلا جدوى من طلب أجرة منك، الآن على الأقل. يمكنك أن تمكث فيها أسبوعًا أو ربما اثنين، لحين تدبير أمورك. لا تحسب أنك ستبقى فيها إلى الأبد، ولا أسمح لك بإحضار نساء أو عرابدة فيها. إنه مكان لتنام بأمان فقط. واحرص على إبقاء الحجرة نظيفة، مفهوم؟».

تغيّرت نظرة حمزة إلى خليفة بعد هذا العرض السخي، والعملة التي أفطر بثمنها، ولطفه معه وإن أبدى الفظاظة والحنق. قال إنه أعجبه. وكذلك قال ناصر بياشارا المثل. كان الأمر وارد الحدوث لحمزة، أن يكسب منظره عاطفة الناس بطرق لم يتوقعها. ألم يقل الضابط الألماني القول نفسه أكثر من مرة؟

***

كان بيت خليفة من طابق واحد، نيومبا يا تشيني، دون طابق علوي. يقع على جانبه بيت أكثر ارتفاعًا، وزقاق في الجانب الآخر. كيباندا تشيتو، كما سمّاه، كوخنا، ولكنه لم يكن كوخًا. في مقدمة البيت شرفة واسعة مظللة والباب بجانبها. ويرفع سقف الشرفة عمودان عريضان من المانغروف المصقول. أما المخزن الذي سيكون حجرة حمزة فكان في الطرف الآخر من الشرفة ينفتح بابه إلى الشارع مباشرةً. كانت حجرة صغيرة فيها كرسي حلاقة ومرآة مثبتة على خزانة كما قال خليفة، ومقعد خشبي طويل ملتصق بالحائط، للزبون الذي ينتظر دوره. شرّع خليفة نافذة الحجرة ذات الدرفتين الخشبيتين الثقيلتين، فامتلأت بالضوء. من اليسير أن يتخيّل حمزة ماضي الحجرة حين كانت محلّ حلاقة، وزبون أو زبونان يجلسان ويدردشان وهما ينتظران، أو أحد أصدقاء الحلاق يزوره ليزجي ساعات اليوم الفارغة بالحديث. ظنّ أنه رأى شعيرات تختلط بكتل التراب على الأرض، ولكن ربما خياله ناشط ليس إلا. وقف خليفة إلى جانب النافذة يراقبه، إحدى يديه على قضبان النافذة، عائبًا هذا التفحص بغضون في جبينه، لكن ابتسامة رضا تحاول شد طرفي فمه. سأله: «هل أعجب المكان سمّوكم الكريم؟».

أعطى خليفة حمزة المفتاح وأحضر له مكنسة. فكنس بيوت العناكب والغبار، وأدار وجه المرآة إلى الجدار، ورتّب الأثاث ليفسح موضعًا لنومه.

جلس بعد ذلك على الكرسي وأسند رأسه إلى مسند الحلاقة، الحبور يعتريه لحسن حظه. كان الشارع الذي يفضي إليه الباب مستظلًّا بفيء البيوت المجاورة. والعابرون يقطعون هذا الطريق غير المعبد، تحين منهم نظراتهم جانبية من الباب المفتوح على حمزة الجالس. أقفل الباب وجلس مدة طويلة، ساعات، دون أن يتحرك، مستلذًّا بالأمان الذي يستشعره في زنزانته المظلمة.

تعالت أصوات المؤذنين لصلاة المغرب، نداءات تترادف دون اتساق. عدّها فوجد أنهم أربعة مؤذنين. هذا مما يتذكّره عن هذه البلدة منذ سنين، كثرة المساجد. فكّر أن يبحث عن أحدها للاغتسال والصلاة مع الجماعة. افتقد حضور الصلوات في المساجد خلال أعوام ترحاله، لأن معظم الأماكن التي زارها لم تكن فيها مساجد، لم يفتقد أداء الصلاة بل افتقد انتماء الواحد إلى الكل الذي يجده دائمًا في المسجد. عجّل بالنهوض قبل أن يغيّر رأيه وذهب يبحث عن أحا ها. لم يضطر إلى الحديث مع أحد عندما دخل المسجد، فاختار موضعه وجلس خافضًا عينيه حتى حان وقت تسوية الصفوف مع بقية المصلين. وبعد أن فرغوا من الصلاة صافح يد الرجل الذي عن يمينه والآخر عن شماله ثم انصرف.

مرّ على محلات وأكشاك ومقاهٍ اكتظت في الشوارع المنارة، والناس في نزهة يسيرون أو يجلسون في حلقات صغيرة، يتحادثون أو يكتفون بالفرجة على المارّين. رأى في وجوههم السكينة والرضا، فتساءل إن كان السبب وجوده في منطقة مختلفة أكثر ازدهارًا، أم أنه يسير في وقت مختلف من اليوم يصبح فيه الناس على هذه الحالة، أم أن سبب خمولهم أنهم ضجرون. وجد عندما عاد إلى البيت خليفة جالسًا على سجادة في الشرفة المضاءة. أشار إلى حمزة أن ينضم إليه وسكب له قهوة في قدح صغير من إبريق.

سأله: «هل أكلت؟».

دخل خليفة إلى البيت فجاء بصحن من الموز الأخضر المطبوخ وقنينة ماء، فأخذهما حمزة شاكرًا. ولما وصل أصحاب خليفة حيّاهم حمزة وجلس معهم بضع دقائق تأدّبًا قبل أن ينسحب إلى حجرته. بقي مستلقيًا على الأرض الجرداء ساعاتٍ دون أن يغمض جفنيه، يأخذه التفكير إلى أيامه الأولى في هذه البلدة وإلى الناس الذين فقدهم منذ ذلك الحين والمهانة التي عاشها. لم يجد بدًّا من أن يقبل بنصيبه منها. إن أفدح الأخطاء التي ارتكبها في حياته السابقة في هذه البلدة كانت بسبب خوفه من الهوان، فكانت النتيجة أن فقد صديقًا كان يعدّه أخًا له، والمرأة التي بدأ يحبها. لكن الحرب سحقت كلَّ تلطّف ولين في نفسه، وأذاقته صنوف العذاب والشراسة حتى تعلّم الخضوع. ملأته هذه الأفكار بالحزن، وقد عرف أن الحزن هو مصير الإنسان المحتوم.

***

لاحظ حمزة أن خليفة أصبح في الأيام التالية أقل حدة وأكثر ودًّا مما كان عليه، مسديًا النصائح إليه، وهو يتلقاها دون نقاش كثير. أصرّ خليفة في أحد الأيام أن يطلب حمزة من التاجر مقدّمًا لأجرته. فعرّجا على الباحة في الطريق إلى البيت، ودخل حمزة إلى مكتب التاجر ليطلب منه مالاً مقتطعًا من أجرته، بينما خليفة واقف خارج الباب، يريانه ولكنه بعيد عن مرمى السمع. لم يخفَ على حمزة استياء التاجر، وإن لم يكن يعلم أيهما أزعجه أكثر: وجود خليفة أم طلب المال.

لم يلن ناصر بياشارا مباشرةً: «لم يمض على وجودك هنا ثلاثة أيام وتأتي الآن تطلب أجرك. سوف تأخذ أجرك بعد أن تكمل عملك وليس قبل ذلك». مرّت خمسة أيام لا ثلاثة، لكن حمزة وقف صامتًا أمامه، لم يزد على طلبه توسلًا ولا رجاءً، حتى منحه ناصر بياشارا في النهاية خمسة شلنات ثم

صرف انتباهه إلى سجله. قال ورأسه منحنٍ على حساباته: «لا تعتد الأمر».

قهقه خليفة وهما عائدان إلى البيت. «بخيلي ملعون! هذا البخيل التعس، يظن أنه يستطيع أن يعامل الناس كأنهم قاذورات. أتدري أنه مدين بالمال للعجوز التي تصنع خبز الدخن؟ يجعلها تحضر له رغيف موفا كل يوم ولا يدفع لها مالها. لا تتخيل الجهد الذي تبذله هذه العجوز كي تخبز رغيفًا واحدًا. تنقع الحبوب ليلة كاملة، ثم تطحنها بالهاون، ثم تخلط المقادير وتعجن العجين، ثم تخبز الأرغفة في فرن طيني في فناء بيتها الخلفي. وبعد كل هذا لا تطلب إلا عشرين سنتًا للرغيف الواحد، وهذا التاجيري الحقير ينتظر حتى تتوسل إليه العجوز أن يدفع لها مالها».

كان خليفة مسرورًا معتدل المزاج عندما وصلا إلى البيت بعد أن تسبّب حمزة، كما يرى خليفة، بإحراج التاجر. فقال وقد فاض به الكرم: «ادخل وتناول معي الطعام». نادى وهو يفتح الباب: «هودي.. مرحبًا، معي ضيف».

كانت تلك المرة الأولى التي يدخل فيها حمزة البيت، وتساءل إن كان خليفة قد استعجل في إبداء هذه الضيافة المفرطة. فلم يكن من المعتاد دعوة غريب، وهو غريب مهما كان، إلى داخل المنزل على هذا النحو. لكنه يعرف أن تصرفات خليفة غير متوقعة وأن انطباعه الأول عنه مضلل. فنوبات غضبه لا تستمر، وسخاؤه مفاجئ وعظيم. لم يعش حمزة في كنف أسرة إلا مدة وجيزة حين كان طفلاً. بعدها عاش في حجرة خلف محل، ثم بدأ سنوات من حياة التنقل والهرب، فلم يعرف على وجه اليقين ما الواجب عمله وما الواجب تجنبه في هذه المواقف، ما خلا ما احتبس في ثنيات ذاكرته من أيام طفولته المبكرة.

في البيت حجرتان على جانبي الباب الأمامي، يفصل بينهما ممر طويل

يمتد حتى آخر البيت، ويفضي إلى فناء داخلي يحيط به جدار. قد رأى الجدار من الخارج عندما عبر الطريق المحاذي للبيت. أدخله خليفة إلى الحجرة الواقعة على اليسار، وكانت أرضها مفروشة بحصيرة مجدولة وعليها حشيات ومساند. هذه بلا شك غرفة استقبال الضيوف. ترك حمزة لحظة، ثم عاد وطلب منه الدخول للسلام على أهل البيت. تبعه حمزة إلى مدخل الفناء الخارجي، وانتظر حتى ناداه كي يقترب. وجد امرأة مكتنزة في الأربعين تجلس على مقعد خفيض تحت المظلة تعدّ الطعام. على يسارها موقد فوقه قدر، وفي الجانب الآخر عند قدميها قدر أخرى فخارية، مغطاة بغطاء من قش. غطّت رأسها بكانغا مربوط في إحكام شديد فوق حاجبيها وحول خديها حتى انتفخ وجهها من قوة الضغط. كان من الواضح أنها أسرعت في ارتدائه لما أعلن خليفة أن برفقته ضيف. وقد فرّت شعيرات رمادية من حبسها الضيق. نظرت إلى حمزة دون كلام أو ابتسام، وتمعّنت به بحدة مشوبة بنفور. قدّمها خليفة إليه قائلاً إنها زوجته بي عائشة، فقال حمزة: شيكامو. مرحبًا. لم يبد عليها أي ترحيب واكتفت بإصدار صوت خافت ردًّا عليه.

«أهذا من ذكرته لي؟ الذي أعطيته حجرة لا تملكها؟ جلبت لنا المشاكل». كانت نبرة صوتها حازمًة نكدة. كانت تنظر إلى خليفة عندما تحدثت، ثم أعادت النظرة القاسية إلى حمزة. «من أين جاء؟ أنعرف من أين جاء؟ إنه غريب عنا لا نعرفه وأنت تعطيه حجرة في هذا البيت كأنك تملكه».

قال خليفة بنفاد صبر: «لا تتكلمي بهذه الطريقة».

رفعت صوتها أكثر بغضب واضح: «انظر إليه! بلاء... لن يجلب سوى المتاعب. تحضره إلينا ليبيت ويأكل كأننا مبرّة وأنت لا تملك باسمك شيئًا. عطاءاتك لا تنتهي. والآن تحضره إلى داخل البيت ليتفحصنا كما يشاء ويقرر ما يود أن يفعله بنا. أنت لا تعرف من هم أهله ولا أين كان ولا المصائب

التي فعلها، لكن هذه الأمور آخر ما يخطر في بالك. تدخله علينا داخل البيت ليفعل بنا ما يريد. رأسك فارغة ليس فيها إلا الهراء والقمامة!».

قال خليفة: «كفي عن هذا الكلام. لا تتطاولي على غريب لا تعرفينه».

تابعت ووجهها متلوٍّ حنقًا: «أخبرتك... انظر إليه! هانا مانا، لا نفع منه. إنه بلاء. لن نجد منه إلا المصائب».

قال خليفة: «قدّمي لنا طعامنا فحسب»، ودفع حمزة برفق تجاه حجرة الضيوف. «ادخل هناك وسوف ألحق بك».

اتجه حمزة إلى حجرة الضيوف وجلس ينتظر. ارتعد على إثر هذا السخط الأعمى - هانا مانا - لكنه لم يشأ التفكير مليًّا بهذا الشعور. سوف يفكر به لاحقًا. كل ما يريده الآن أن يرجع خليفة ليطلب منه المغادرة. ربما كانت بي عائشة مريضة، وأن مرضها هو سبب ذلك الهجوم الشرس، لكن التفسير المرجّح هو أنها امرأة مختلّة لئيمة. رأى ذلك في عينيها، مس من الخبل. لما دخل خليفة حاملاً طبقين من الأرز والسمك كان مزاجه متعكرًا، كأنه تجادل للتو مع زوجته. تناولا الطعام بسرعة وفي صمت. بعدها خرج خليفة ليغسل يديه ثم نادى حمزة. لم تكن بي عائشة في الفناء، فغسل يديه في المغسلة كما أشار إليه خليفة. لاحظ حمزة عندما دخل الفناء أول مرة فتاةً أو امرأة متقرفصة في الطرف الآخر من المظلة، في زاوية قريبة من باب مخزن أو حجرة. وحسب أنها الخادمة. والآن وهو يغسل يديه رأى الفتاة نفسها تفرك القدور تحت أنبوب الماء في الزاوية. لم ترفع رأسها المغطى فلم يستطع رؤية وجهها. سلّم عليها وردّت السلام دون أن تنظر إليه.

***

أصبح الجدال من عادة خليفة وبي عائشة أكثر من قبل. لطالما كانت تبالغ بحدة كلامها معه حتى يظن المرء أنها أشدّ سخطًا مما هي عليه في الواقع، وهذا ما يسمح لها بأن تتفوه بالكلام المخزي الذي تقوله. لا يعني هذا أنها لا تقصد ما تقوله أو أنها لا تصر دومًا على أن تكون لها الكلمة الأخيرة. لقد اعتادت أن تنفرد بآرائها وقراراتها في معظم شؤون المنزل. وسايرها خليفة بتأدية دور الزوج المتسامح الخنوع الذي يجاريها في كل شيء، ولكنه قادر على إيقافها متى ما كان هذا ضروريًا. كانت خلافاتهما أحيانًا تنتهي بابتسامات خاطفة غير ملحوظة، كأن القصد هو أنهما يعرفان أنهما يمثّلان. لكن في الآونة الأخيرة أصبحت نبرتها معه حادة ومرتابة، وكان كثير الاحتجاج على ما تقوله إلى درجة التذمر، أو أن يكون فظًّا ويتجاهلها تمامًا.

لم تفهم عافية لماذا أدخل بابا الرجل إلى آخر البيت، إلى الفناء الخارجي. لم يفعل ذلك من قبل قط حسب ما تعرفه منذ بدأت تعيش معهما. عندما كان إلياس يزور البيت لم يتجاوز عتبة حجرة الضيوف قط، وكانت بي عائشة هي التي تدخل الحجرة لتسلّم عليه. لا شك أن بابا يعلم أن بي مكوبوا لن ترضى بدخول رجل غريب إلى قعر البيت هكذا. حتى بائع السمك وبائع الفحم اللذان اعتادا المجيء إلى البيت لا يتجاوزان عتبة باب الفناء. الاستثناء الوحيد الذي تتذكره هو صانع الحشيّات، وهو رجل كبير في السن يعرف بي عائشة منذ أن كانت طفلة ويصلح حشيّات البيت منذ سنوات طويلة.

وكيف غاب عن ذهن بابا أن بي عائشة نفرت من الرجل فور أن سمعت عنه.، بسبب القصص التي حكاها لها عن الشاب: أن حمزة يبدو مريضًا، أنه لا يريد أن يتكلم عن أهله أو عن حياته.

قالت بي عائشة حينها بلا اكتراث: «يبدو أنه متشرد».

ردّ بابا: «أظن أنه قاتل في الحرب».

فقالت تكاد تبصق بكل كلمة كي تستفزه: «إذًا فهو خطير أيضًا.. قاتل».

قال بابا: «لا، لا. لا بد أنه مرّ بظروف قاسية. وقد يمرّ بها إلياس».

قالت بي عائشة: «لا تقل لي لا! لإلياس أهلٌ، وأنت تقول إن هذا ليس له أهل. كيف يمكن لشخص محترم ألا يكون له أهل؟ إنه غريب».

ربما لم يغب عن ذهن بابا نفورها من الغرباء. ربما أدخله إلى البيت ليذكرهما أن إلياس قد ينجو أيضًا، وأنه قد يعود إليهم قريبًا. مرّت ثلاثة أعوام على نهاية الحرب ولم تصلهم أنباء عنه. لم يعترف لسان عافية بهذا لأحدٍ قط ولكنها تشعر بداخلها أن أخاها رحل. وإن كان بابا قد أدخل هذا الرجل ليذكرهم بإلياس فقد أخطأ، لأنه استفز بي عائشة فانطلقت بتكهناتها المستقبلية بوقوع المصائب. بلاء! أصبحت غريبة التصرفات شرسة الطباع مع بابا، وكانت عافية تعلم أنها أحد أسباب استياء بي عائشة واهتياجها لأنها بلغت التاسعة عشرة ولم تتزوج، وإن كانت لا تفهم لماذا يعنيها هذا الأمر إلى هذه الدرجة. تعتقد عافية أن بي عائشة أسرّت إلى بعض معارفها أن الفتاة مستعدة للزواج. ولذا فقد خطبها رجلان ورفضتهما.

الأول رجل في الأربعين يعمل موظفًا في مكاتب وزارة الزراعة الجديدة التي أنشأتها الحكومة البريطانية. لم تره عافية ولم تسمع عنه قط، ولكنه رآها تمشي في الشارع واستفسر عنها ثم تقدّم لخطبتها. رفض بابا، قال إنه رجل ذو سمعة، وما الداعي إلى العجلة؟ كانت عافية موجودة عندما قال ذلك.

ردّت بي عائشة مستعدةً للشجار: «أي سمعة؟ لديه وظيفة حكومية محترمة. ولقد تقدّم بالخطبة من خلال أناس محترمين، وعرض مهرًا جيدًا. أعطني سببًا واحدًا وجيهًا يجعلني أرفض خطبته».

أجاب بابا بغضب: «السبب الواحد الوجيه هو أنه خطب عافية ولم

يخطبك أنت. هي التي تقرر إن أرادت أن تقبل أم لا».

«دعنا من هرائك هذا. الأمر ليس بيدها طبعًا. إنها تحتاج إلى توجيه لاتخاذ القرار الصحيح. ما السمعة التي تتكلم عنها؟».

قال بابا: «سأخبرك لاحقًا». وفهمت عافية أنه أمر لا يريد أن يتكلم به أمامها.

ضحكت بي عائشة في سخرية وقالت: «اعترف أنك تريدها لنفسك. أتظن أنني عمياء؟ سوف ترفض كل خطيب لأنك تنتظر أن يشتد عودها كي تأخذها زوجة ثانية لك».

ارتجّت الكلمات في صدر عافية. نظرت إلى بابا الذي فغر فمه مصدومًا. مرّت لحظات ثم قال بصوت ملجوم: «سُمعَته هي أنه مهووس بالنساء الخليعات... بالنساء اللاتي يأخذن منه مالاً كي... بالعاهرات. بهذا يقضي وقته. اكفي عن ابنتنا الهم وارفضيه».

أما الخطبة الثانية فكانت قبل بضعة أسابيع، والخطيب رجل آخر كبير في السن، مدير مقهى. كانت عافية تعرفه لأنه معروف عند الكثيرين. يقع المقهى في الشارع الرئيس وقد مرّت أمامه كثيرًا. وهذا الرجل مزواج على عكس الخاطب الأول الذي لم يسبق له الزواج. وإن قبلت عافية الزواج به فستكون الزوجة رقم ستة، ولم يكن يُبقي في عصمته غير زوجة واحدة في كل مرة. كان زوجًا مخلصًا لأي امرأة يتزوجها. ويفضل خطبة اليتيمات الصغيرات أو بنات الأسر الفقيرة لأنهن يطمعن بالمهر الذي يقدّمه. يتزوجها وتظل معه سنوات قليلة حتى تزيغ عيناه إلى أخرى صغيرة، فيطلّق هذه ويتزوج تلك. ولأن المقهى ناجح فهو قادر على تحمّل تكاليف هذه الهواية. لم يكن من العسير إقناع بي عائشة أن ترفض هذه الخطبة.

قالت: «هذا الوحش، هذا الرجل القذر! لم نيأس حتى نقبل مهرًا من هذا القبيح».

ظلّ اتهامها لبابا جاثمًا عليهم، ومنه أدركت عافية أحد أسباب عدوانية بي عائشة. أشفقت على هذه المرأة التي تخشى خيانة عظيمة كهذه منها ومن زوجها. لكنها تعلم أن لا داع أبدًا لهذا الخوف. بعد أن قالت ما قالته، نهض بابا وغادر المنزل، فظلت بي عائشة وعافية جالستين في صمت عدة دقائق حتى قامت بي عائشة والتجأت بغرفتها. لم تكرر الاتهام قط، لكنها أيضًا لم توقف حملتها الشعواء لتزويجها. تساءلت عافية إن كان هذا سبب آخر جعل بابا يُدخل الغريب إلى البيت. عندما ألقى السلام عليها قاومت رغبتها في أن ترفع رأسها وتنظر إليه، لكنها قد لمحته لمحةً سريعة عندما دخل الفناء أول مرة. كانت تعلم من أحاديث بابا عنه أنه شاب في مقتبل العمر، فلربما أراد أن يريها شخصًا أقرب إلى سنها، بدلاً من الخطّاب العجائز الفاجرين الذين يبدو أنها تجتذبهم إليها.

لا تدري كيف انتشرت أخبار الخطبتين، لكن جميلة وسعدة أخذتا تمازحانها وتشاكسانها. ربما أفصحت الخاطبة عن الأمر لتثير الشائعات. تزوجت جميلة وهي الآن تحمل طفلها الأول. وضحكت صديقات خالدة من موضوع الخطّاب، وقلن لعافية إنها تستحق رجلاً أفضل، وإن عليها أن تنتظر الشاب الثري الوسيم الذي سيطرق بابهم لا محالة ليتزوجها. من تلك التي تريد أن تكون زوجة ثانية؟ قالت خالدة ذلك وانتفض قلب عافية متساءلةً إن كان الناس أيضًا يعلمون عن اتهام بي عائشة لبابا. لم يتبع السؤال نظرات ذات مغزى ولا صمت محمّل بالتلميح، فرجّحت أنه مجرد نفور عام من الفكرة ولا تقصد من الكلمات تعريضًا بأحد محدد.

10

في عصر ذلك اليوم، اليوم الذي تناول فيه الغداء التعيس في بيت خليفة، قصد حمزة السوق ليصرف الشلنات الخمسة التي أخذها مقدّمًا لأتعابه. اشترى شمعة لحجرته، وحصيرة من القش السميك، وملاءة قطنية. تمدّد فوق الحصيرة وزمجر لما سرى في جسمه الألم الحاد المألوف. ترك الدقائق تمرّ حتى هدأ الألم ووجد جسمه بعض الراحة. مسح بكفه على الندبة القبيحة في فخذه ودلّك العضلة. سوف تتحسن. بل تحسنت. فعلت كل ما يمكن فعله. هذه البلدة التي لا يكاد يعرفها هي أقرب وطن يعرفه. سوف يخف الألم.

يخرج حمزة كل صباح مبكرًا للاغتسال في المسجد وأداء الصلاة، ثم يشتري إبريق شاي محلّى من المقهى. بعدها يذهب إلى المستودع لانتظار خليفة. وكل يوم تقريبًا تُنقل أشياء ما بين الباحة والمستودع، وأحيانًا ما بين المستودع والميناء، لتوزيع السلع تدريجيًّا إلى وجهاتها النهائية، حتى يفرغ المستودع. كل يوم تقريبًا يقود إدريس ورفيقه في الڤان العتيقة لإيصال البضائع أو أخذها. وفي كل مرة يفتح فيها إدريس فمه ينطق بالبذاءة، ويرتجّ رفيقه دوبو بالضحك في انصياع.

من مهام حمزة كنس المساحة أمام بوابة المستودع، ورش الماء عليها في الأيام شديدة الريح لمنع إثارة الغبار. كان في بعض الأحيان يرافقهم في الڤان إلى الباحة أو مواقع أخرى لمساعدة إدريس ودوبو في حمل البضائع. ومع هذا فإنه يجد هو وخليفة ساعات طويلة من النهار يجلسان فيها في ظل المستودع، يحدقان في الساحة الخالية ويتحادثان. كان خليفة يحب الكلام، أما حمزة

فمستمع مثالي صبور. تساءل إن كان خليفة يظن أنه مدين له بهذا الاحترام. لم يتكلم خليفة قط عما جرى لحمزة مع بي عائشة.

قال خليفة: «هذا الإدريس رجل قبيح. يقشعرّ جلدي كلما جاء إلى هنا. بهيمة قذرة لا يتكلم إلا بالفواحش كأنه حيوان شبق مسعور. ويعامل هذا الدوبو كأنه عبده. أتعرف لماذا سُمي دوبو؟ لأن الناس كانوا يظنون أنه غبي عندما كان طفلاً. لأن رأسه كبير كما ترى، كأنه مشوه. تبدو شبه طبيعية الآن ولكن عندما كان طفلاً... أحيانًا لا تنتهي السخرية أبدًا. صحيح أن إدريس لم يطلق عليه هذا الاسم لكنه لا ينفك يعامله أسوأ معاملة. يظل يسخر منه ويفعل به ما لا يعلم به إلا الله في أوقات فراغهما. هذا الدوبو رجل غبي ضعيف.

«أتعرف أيضًا ما يفعله سنغورا في وقت فراغه؟ هذا الأرينب قوّاد، ألم تعلم هذا؟ ألم تشكّ به؟ كيف لم تلاحظ أنه مقزز؟ طبعًا ليس من القوادين العنيفين، لكن نظرة واحدة إليه تجعلك تفكر: لا بد أنه متورط في أعمال مشينة. يعمل لدى امرأتين، كل الناس يعلمون هذا. إن أراد رجل أن يكون مع إحداهما فكل ما عليه هو أن يخطر سنغورا فيتولى كل الترتيبات. لهذا سموه سنغورا؛ صغير وجبان كالأرنب، لكنه خبيث. لا يجرؤ أحد على لمسه لأن المرأتين تحميانه كأنه طفلهما. إنه حتى يسميهما أمي. وهما خليعتان سليطتان تسلخان جلد الشخص بسوط لسانيهما. ابتعد عنه فهو لا يأتي بخير».

عاش حمزة في حجرته، يدخل إليها ويخرج منها دون صوت. لم يدعُه خليفة إلى داخل البيت مرة ثانية، لكنه يستطيع سماع صوت بي عائشة بعد أن عرفه كلما صاحت بغضب أو نادت باستعجال. كان خليفة أحيانًا يأتي للبحث عنه في المساء ويدعوه إلى الجلوس في الشرفة معه ومع من يعرّج عليه

للدردشة. أكثر من يتردد عليه للزيارة في البرازا هما المعلم عبدالله وتوباسي الغسّال الذي يقطن بالجوار، وكان الثلاثة أصدقاء طفولة. كانت أرضية الشرفة مغطاة بحصيرة من القش الثقيل المجدول وينيرها قنديلي، أي قنديل زيت معلّق بخطاف في دعامة السقف. انبثق منه وهج ذهبي خافت حوّل الشرفة المفتوحة إلى مكان داخلي. فكان المشاة يهمسون بالسلام عليهم كأن رفع الصوت به تطفل على خصوصيتهم. وكان الرجال الثلاثة يعشقون الغيبة والشائعات.

كان المعلم عبدالله عادةً آخر المتحدثين. بعد أن يستعرض توباسي آخر الشائعات يتكلم المعلم بحكمته كلمات رصينة. وسمّوه توباسي، أي جامع القمامة، لحبّه للشائعات. فبعد أن يطلعهم توباسي على آخر الحكايات ينفلت خليفة في غضب متحسرًا على أحوال الدنيا، ثم يحين دور المعلم عبدالله لإضفاء شيء من الحصافة على الحديث.

درس المعلم عبدالله في مدرسة في زنجبار ثم انتقل إلى المدرسة الألمانية المتقدمة في البلدة للتدرب في مهنة التدريس. كان يعرف شخصًا يعمل مراسلاً في مكتب ضابط المقاطعة، وهو مقر السلطة الاستعمارية البريطانية في البلدة، فكان يجلب له صحفًا قديمة بعد أرشفتها كي يقرؤها، مثل الصحيفة الحكومية (Tanganyika Territory Gazette) وصحيفة المستوطنين في كينيا (East African Standard). كانت معرفة المعلم عبدالله بالإنجليزية بسيطة، لكنه يبالغ في تأثيرها في عمله وفي جلسات البرازا. وقراءاته المتقطّعة لما يسميه المنشورات الدولية تضفي على آرائه وأحكامه ثقلاً لا يستهان به، في نظره على الأقل. كانت نقاشاتهم غالبًا تتنازعها اختلافات الرأي والميلودراما، مع كثير من الضحك والتهويل. ولم يفرضوا على حمزة المشاركة فيها، ولكنهم يعترفون بوجوده كلما قطع أحدهم كلامه كي يوضّح له أمرًا

أو يفسر له دعابة. من هنا عرف كيف حاز توباسى على هذا اللقب. وأحيانًا يكون حمزة نفسه نكتتهم الدارجة بسبب تحفظه، لكنه مع هذا يجلس معهم رغبةً في الاختلاط بالناس، ولا يضرّه أن ينشغلوا به.

بعد أذان العشاء الذي لم يجبه أيٌّ من الأصحاب الثلاثة انفتح باب البيت قليلاً، وقام خليفة ليأخذ من الفرجة صينية عليها إبريق قهوة وأقداح. لم ير حمزة من مدّت الصينية لأن من العيب النظر إلى أهل البيت، لكنه خمّن أنها الخادمة التي رآها عندما دخل تلك المرة. لم يتصور قط أن تفعل بي عائشة، سيدة البيت الغضوب، هذه الأعمال الوضيعة، مثل تقديم صينية القهوة للثرثارين الرابضين في الشرفة. رأى أن في الصينية ثلاثة أقداح فقط فاستغلّ الأمر للاستئذان بالمغادرة.

قال خليفة: «هذا ولي من أولياء الله. ستذهب إلى المسجد صحيح؟ لن تصل إلا بعد انتهاء الصلاة».

قال المعلم عبدالله: «لا بد أنه متعب من الاستماع إلى تفاهاتك. اذهب أيها الشاب واكسب الأجر».

بعد أيام، وكان جالسًا في البزارا، فُتح الباب قليلاً بعد أذان العشاء كما حصل من قبل. رمى خليفة نظرة إلى حمزة، فنهض الشاب لإحضار الصينية. هبَّ سريعًا ناسيًا جرح فخذه، فأفلتت منه رغمًا عنه شهقة ألم خافتة. امتدت يده إلى عمود المانغروف كيلا يقع، وأسرع بالتوجه نحو الباب قبل أن يتحرك أحد من الرجال أو يتكلم. أخذ الصينية ونظر إلى المرأة الواقفة في ظل الباب، رأى في عينيها فزعًا وقلقًا. فابتسم يطمئنها وغمغم كلمة شكرًا، وإن لم يكن واثقًا إن كانت الكلمات خرجت بوضوح من فمه. لما استدار ومعه الصينية رأى أربعة أقداح عليها. وضعها على الأرض أمام خليفة لكنه لم يعاود الجلوس.

قال خليفة: «اجلس واشرب القهوة مع من هم أكبر منك. لديك متسع من الوقت للصلاة لاحقًا».

قال توباسي: «هيه يا كافر.. لا تثبط الرجل عن أداء صلواته. آثامك زادت أضعافًا مضاعفة. كيف ستنجو وفي سجلك كل هذه الآثام؟».

أضاف المعلم عبدالله حازمًا: «لا تتدخل بين المرء وربه».

ابتسم حمزة ولم يجب، لم يقل لهم إنه لا يذهب إلى المسجد للصلاة والأجر فحسب. إنه يجد راحة عظيمة في الابتعاد عن لغوهم، الابتعاد عن كل الناس. لست ملزمًا بالكلام في مسجدٍ محتشد. فكر في الطريق بالقلق في عيني تلك المرأة واستغرب من وقع المفاجأة والاضطراب في نفسه. رأى في تلك اللمحة الخاطفة للمرأة النحيلة إنسانةً يظهر الصدق والطهر في وجهها وعينيها. لا يدري كيف يصف ما رأى، كل ما يعرفه أن هذا هو ما رآه. ولا يدري لماذا شعر بالأسى على نفسه، لماذا جعلته يحزن على سنينه المجرّدة من الحب، على ومضات اللطف التي لم تدم. كان يظنها خادمة فتاة لديهم، وربما تكون حقًّا كذلك لكنها ليست فتاة، بل امرأة في العشرين أو نحوها. تساءل إن كانت زوجة خليفة. من الشائع بين الرجال الذين في عمره أن يتزوجوا امرأة ثانية، وأن تكون هذه المرأة أصغر منه سنًّا. تجوّل حمزة في الشوارع ساعة أو أكثر، قضاها في تأنيب نفسه على سذاجة مشاعره وحنينه. ومنبعها كلها وحدته وشفقته على نفسه، كأنه لم ير في حياته القصيرة ما يكفي كي يدرك أن صفو ذهنه وسلامة جسمه تتطلّب الفطنة والحذر.

مرت بضعة أيام حتى استدعاه التاجر وأمره بمرافقة إدريس ودوبو إلى الميناء لاستلام شحنة معدات كان ينتظر وصولها. كانت هذه المرة الأولى التي يذهب فيها حمزة إلى الميناء منذ ذلك الصباح الذي وصل فيه إلى البلدة. مرّ الوقت سريعًا حتى أنه أحسّ من كثرة ما جرى أنه رجع إلى البلدة منذ أشهر.

كان إدريس يقود الڤان، مختالًا كاختيال أرستقراطي على عربته المذهّبة بين حاشيته وخدمه المطيعين، إحدى ذراعيه مستقرة على حافة النافذة المفتوحة، والأخرى ممسكة بالمقود، والسيارة تقفز بين مطبات الطريق الترابي وهو يلوّح لمن عرف من المارّين. كل هذا ولم يسكت عن ثرثرته المتهاهلة التي لا تخرج بعيدًا عن الكلام القذر. ودوبو الجالس في منتصف المقعد بجانب السائق يضحك طائعًا، بينما حمزة يشيح بوجهه محدقًا من النافذة. خفّ بطبيعة الحال تقزّزه العظيم منهما، الذي انتابه في اللقاء الأول، ولكن ما زال يحاول جهده أن يفصل ذهنه عن ثرثرة إدريس البذيئة.

وجدوا أن المعدات التي طلبها التاجر هي في الواقع مروحة دافعة كبيرة. أوقف إدريس السيارة عند أبواب أحد مستودعات الرصيف البحري وكان ناصر بياشارا في انتظارهم، واقفًا بجوار المروحة اللامعة المثبتة فوق أكياس الخيش مبتسمًا. قال إن أوراق الشحنات مكتملة، لننقلها الآلة إلى المستودع. رفعوا المروحة إلى الڤان وركبوا السيارة. إدريس يقود والتاجر بجواره. بلغ من سعادة ناصر بياشارا بهذه الآلة الجديدة أن أشرف على نقلها شخصيًّا وعلى تخزينها في المساحة التي طلب من خليفة أن يخليها لأجلها في قلب المستودع، محميّةً ومخفيّة وراء بضائع أقلّ أهمية. بعد أن اطمأن على المروحة في مخزنها صرف السيارة، وأشار إلى حمزة أن يتبعه خارج المستودع. انزعج خليفة واختفى في ظلام الداخل.

وقفا في الخارج عند باب المستودع، والتفت التاجر في كل ناحية يتأكد من أنّ أحدًا لا يسمعهما. أدخل يده في جيب سترته وأخرج أوراقًا نقدية مطوية. قال بحزمٍ كأنه يتوقع أن يعارضه حمزة بعناد: «هذا أجرك عن الأسابيع الثلاثة الماضية، وسوف أدفع أجرًا بعد ثلاثة أسابيع من الآن. لقد سخوت في أجرك لأنك اجتهدت في عملك. كنت واثقًا أنك ستحسن الشغل. أريدك

أن تكون منذ الليلة الحارس الليلي للمستودع. أريدك أن تبيت كل ليلة هنا وتحرس البضائع الثمينة الموجودة بالداخل. هذا ما ستفعله حاليًّا ثم سوف نرى ما الأعمال الأخرى التي يمكن أن تقوم بها. وسوف تعمل هنا بالنهار كما اعتدت، وحين يأتي الليل تغلق على نفسك أبواب المستودع طوال الليل. مفهوم؟».

أعطاه النقود فقبلها حمزة دون كلمة، ودسّها في جيبه دون عدّ. ابتسم التاجر وهز رأسه، ففكر حمزة أنه يضحك ولا بد في سرّه على هذا الفقير المتمسك بكرامته. أزاح ناصر بياشارا طاقيته، وفرك رأسه بطريقة أصبحت لازمة له، ثم ابتعد. توقّع حمزة أن يظهر خليفة فورًا ويشرع في شكواه من إقصائه من الحديث، فلما لم يظهر ظن حمزة أن جرح كرامته أعمق مما ظهر عليه. جلس حمزة على المقعد بجوار الباب ينتظره، وبعد مرور بضع دقائق قرّر أن يناديه. جاء خليفة أخيرًا فأراه حمزة النقود. مدّ خليفة يده ليأخذها لكن حمزة أعادها فورًا إلى جيبه. قال: «سأكون الحارس الليلي منذ الليلة إلى جانب عملي نهارًا في المستودع».

قال خليفة: «يا له من رجل أحمق! كم دفع لك؟».

أجاب حمزة: «لا أدري. لم أعد المال».

قال خليفة: «وأنت أحمق كذلك، لكني أشفق عليك لأن حماقتك نابعة من فكرة مغلوطة في عقلك أن ما تفعله هو من حسن الأدب أو عزة النفس. صدقني، أعرف شاكلتك. لكن ذاك الرجل مجرد شخص تافه ما زال يتصرف كالأطفال. لم كل هذا الحماس لشراء مروحة مركب؟ يظن أن كل صياد وكل صاحب سفينة يتربص به لسرقتها منه. هذا هو مشروعه الجديد. لقد صرف الآلاف قبل بضعة أعوام على مركب. وكان ينوي أن يكسب المال منه بنقل البضائع في المنطقة. لم يكسب منه شيئًا، والآن يصرف الآلاف

في شراء مروحة دافعة لأنه سيجني منها مالاً، وقد يجني منها حقًا، لكنه في الوقت نفسه يتصرف بغباء ويضعك أنت في خطر. يجب أن تقفل على نفسك باب المستودع في الليل ولا تفتح الباب لأحد. السكارى والحشاشون ينامون في هذه الأماكن القديمة المهجورة. ألا تعرف هذا؟ مهما سمعت من أصوات في الخارج لا تفتح الباب لأحد. دعهم يفعلون ببعضهم ما يشاءون وابقَ أنت في الداخل».

كان القلق واضحًا على خليفة حتى إن حمزة منع نفسه من أن يرد بأنه قد رأى في حياته من هم أسوأ من السكارى والحشاشين، لكنه اكتفى بهز رأسه ووعده بأنه سيأخذ حذره. جمع عصر ذاك اليوم حاجياته من الحجرة التي يسكنها في بيت خليفة، ومرّ على مقهى واشترى رغيف خبز وقطعة سمك، ثم رجع إلى المستودع. وفي تلك الليلة سمع قططًا تركض على السقف وتموء في الأزقة، وقبل أن يستسلم للنوم سمع سكرانًا يغني ثم ينشج باكيًا، هاتفًا باسم ما في حنين وشجن. استيقظ في الظلام وانشغل بالتفكير منتظرًا بزوغ الفجر.

كلما دنا المساء، وقبل أن تغيب الشمس، يعدّ لنفسه فراشًا فوق أكداس الخيش، وفوقها يمدّ بساط القش. وكانت لدونة الأخياش ومتانتها تمتص بعضًا من آلام جانبه، إلا إذا تقلّب في نومه. ثم يقصد المقهى ليشتري طعامه، كاري بلحم الماعز أو بالسمك، أو أحيانًا يكتفي برغيف خبز مدهون بالسمن. بعدها يذهب إلى المسجد للوضوء والصلاة ثم يرجع إلى المستودع، حينها يكون الظلام اشتد في الخارج. يشعل السراج الزيتي الذي طلبه من التاجر، ويقفل الباب على نفسه ويستلقي تأهبًا للنوم. فإن جافاه النوم أخرج أحد كتبه من الحقيبة وتصفّحه. لكن نور السراج الخافت يحول بينه وقراءة أحرف الطباعة القديمة في مجلد شيلر قراءةً مريحة، فكان يكتفي بالفقرات

التي يعرفها من قراءة سابقة. أخرج الكتاب لسببين متعادلين في الأهمية عنده؛ متعة لمسه وتقليبه، وقدرته على قراءته.

كان يضطجع تحت هالة السراج الذهبية، يحاول تجاهل ركض الفئران الصغيرة القادم من بين الزكائب والصناديق. يشعر في بعض الأيام كأنه رجل من عصور الإنسان البدائية، حين كان غياب نور السماء يعني اللجوء إلى جحرٍ في الأرض، أو رجل من رجال الكهف يحتمي من شرور الليل. كان يترك السراج منيرًا طوال الليل ليردع هذه الشرور، لكن أيُّ شيء يدفع عنه تلك الهمسات التي تباغته بزحفها في ليالي السهاد. ينام في بعض الليالي دون عناء، وأخريات يرى فيها أشلاء مقطّعة وأجساد مشوّهة في المنام، تلاحقه أصوات صاخبة كارهة، وتراقبه أعين شفافة هلامية. طالت ليالي الحراسة إلى أسابيع، وطالت معها ساعات نومه، حتى إنه أحيانًا لا يستيقظ إلا بعد شروق الشمس. وكل صباح يستيقظ متعجّبًا أنه نام كل هذا، ويعدّ ساعات النوم الهانئ، كما يعد التاجر البخيل قروشه المدّخرة في خزنته. كان شاكرًا لنعمة الراحة.

***

لم يتفرّغ الميكانيكي المختص بتركيب المراوح الدافعة لتثبيت المروحة على سفينة الداو التي يملكها ناصر بياشارا إلا بعد شهر. والمعتزم أن يكون العمل عليها في الرأس البحري في طرف الخليج الصغير خلف الميناء، حيث تكون إصلاحات المراكب عادةً. كان تيار الخليج ينحسر بعيدًا عن البر، ثم يتدافع في آخر النهار عائدًا إلى الرمال. ولا ترتطم أمواجه على حدود الرأس البحري إلا عند ظهور البدر. كان الميكانيكي ينبئهم بقدومه ثم يؤجل الموعد، وقد تكرر الأمر أربع مرات. وقبل تشريفه ببضعة أيام سحب المد المركب حتى

استقرّ فوق الرأس البحري. وضع الطاقم جذوع مانغروف على الأرض مصفوفةً فوق رمل الشاطئ، وانتظر الرجال ارتفاع المد، فلما ارتفع هرع كل العمال الموجودين، عمال التاجر وأي عابر يودّ المساعدة، لسحب المركب على الجذوع، ورفعوه في أعلى موضع ممكن في الرأس الرملي. أحكموا ربط المركب إلى أعمدة متينة كيلا ينجرف إلى البحر ثانية، وظلّ مستقرًا هكذا والميكانيكي يرجئ الموعد يومًا بعد يوم. لم يكن لخليفة أي دور في هذه الجهود إلا طرح أسئلة ساخرة عن الميكانيكي المتملّص. حتى التاجر لم يبدُ أنه مهتم لما يحدث لمشروعه، بل إنه لم ينزعج من وعود الميكانيكي التي تنتهي بالتأجيل، كأن كل هذا لا يعنيه في شيء إطلاقًا. تعجّب حمزة من تصرف التاجر كثيرًا، حتى خطر في ذهنه خاطر. قد يكون تصرف التاجر نابعًا من رغبته في الترفع وحفظ الكبرياء، ورفضه أن يلحّ على الميكانيكي فيظن هذا أن لا غنى للتاجر عنه. بقي المركب على حاله أيامًا، كخنفساء مقلوبة على ظهرها. وفي اليوم الموعود، حين تسنّى للميكانيكي الحضور، أتت سيارة الڤان لأخذ المروحة ومعها حمزة الذي أُمر بمرافقتهم ومساعدتهم. حتى خليفة لم يستطع مقاومة دراما حضور الميكانيكي أخيرًا لتثبيت المروحة، فرافقهم كذلك كي يشهد المراسم الأخيرة.

لكن نوخذة المركب - على خلاف التاجر - لم تشغله الكرامة، ففي اليوم الذي حضر فيه الميكانيكي أمضى الاثنان الساعة الأولى في التوبيخ وتبادل القذف والشتائم وهدر كل كرامة، فانتظر دوبو وحمزة جالسين تحت الفيء الهزيل من هيكل المركب، ولم ينزل إدريس ولا خليفة من السيارة. قال النوخذة، وهو خمسيني قصير داكن السمرة أشهب صلب البشرة من الشمس والبحر، إن الميكانيكي أحمق جاهل عديم الأدب والاحترام لتضييعه أوقات الجميع. قال الميكانيكي، وكان ثلاثينيًا أو نحو ذلك يعلم قيمة وجوده، له لحية مشذّبة وطاقية مدببة، وقد وصل ممتطيًا دراجة نارية، محذّرًا النوخذة

من أن يتطاول عليه بالكلام، فهو ليس أحد الصبيان الحلوين الذين يحب أن يلعب معهم. ما أتى إلا ليتم العمل المطلوب منه، وإن لم يرضَ النوخذة ليبحث عن ميكانيكي آخر. وكان لهذا التهديد قوة جليّة، فلا أحد يضمن أن ميكانيكيًّا آخر سيأتي في موعد أسرع من هذه اللحظة. تلاشت الكدرة وانحسرت المرارة تدريجيًّا وانشغلوا بتركيب المروحة الدافعة مع تطاير بعض الشتائم من حين إلى آخر. عندما اقترب المد رفعوا المركب إلى الماء وأكمل الميكانيكي آخر مراحل التركيب. قاد إدريس القان إلى الباحة ليقلّ التاجر كي يحضر لحظة تشغيل المروحة، وقد شغّلها الميكانيكي بين هتافاتهم وتصفيرهم. وقد أخذ النوخذة والميكانيكي يضحكان ويتمازحان مهنئين نفسيهما على الإنجاز، كأنهما يعرفان بعضهما منذ الصغر، والأرجح أو المؤكد أنهما يعرفان بعضهما.

كانت ابتسامات التاجر وهم يحتفلون بتركيب المروحة الدافعة الثمينة متوترة قلقة، ربما خوفًا من مستقبل مشروعه الجديد. نادى حمزة بعد ذلك وقد كان واقفًا على الرأس البحري قرب الخليج، فأخبره أن لا حاجة لحراسة المستودع ليلاً وقد ثُبّتت المروحة في المركب، وأن عليه نقل حاجياته والعودة إلى بيته. أمره أن يسلّم صباح الغد مفاتيح المستودع للتاجر كي يدفع له أجره، بعدها ربما يجد له شغلاً آخر لديه، لكنه لم يعده بشيء.

لم يتوقع حمزة صرفه من العمل بهذه السرعة، وحزن أن مهامه في المستودع قد انتهت. كانت الأسابيع التي قضاها فيه هادئة مستقرّة وإن خالطتها تقلّبات مزاجه بين الاطمئنان والوحدة البائسة. العمل نهارًا في المستودع، الحديث مع خليفة - أو بالأحرى الإنصات إلى خليفة متى ما أراد الحديث - ثم السبات الهانئ ليلاً في غمرة ضوء السراج الذهبي، وبين أحضان البضائع، واحتمال حرارة المكان ورطوبته ... كسب من هذه المعيشة راحةً،

لتأمل الحياة وإدخال الهدوء إلى ذهنه. جعلته يسترجع لحظات الندم والألم، لكنها ما برحته قط على أية حال، ولن يقدر أبدًا في اعتقاده على تخطّيها.

أبلغ خليفة في الصباح التالي أنه لن يحرس المستودع: «طلب مني إعادة المفاتيح إليه هذا الصباح. أعتقد أنه كان يلمح إلى أنه سوف يستغني عني، لكني لست واثقًا».

ردّ خليفة فرحًا أن التاجر اللئيم لم يغيّر طباعه: «إنه أفعى سامّة، انتهازي مخادع كذّاب. هل ظننتَ أنه سيلبسك زيًّا ويجعلك حارسًا أمنيًّا حقيقيًّا؟ أن يبني لك ملحقًا فيه حمام لتتوضأ وتصلي في المستودع؟ من حماقتك أنك تثق بهذا الرجل». ثم قال بهدوء بعد أن سكن غضبه: «لا عليك. ارجع إلى حجرتك عندي. ربما تتيسّر لك وظيفة أخرى».

وجد حمزة ناصر بياشارا في ورشة الأثاث. وكان يكلّم الرجل الذي رآه حمزة يطرّز طاقيته قبل أسابيع في ورشة الأخشاب. كان يحرص على دخول الورشة كلما أُرسل إلى الباحة، لينظر فقط ماذا يجري داخلها ويستمتع برائحة الخشب. فعرف أن اسم الرجل المسن هو سليماني، وأنه كبير النجارين في الورشة. والكل يناديه إمزاي سليماني، أي الشيخ سليماني، وإن لم يتجاوز الخمسين. يعمل معه شاب أصغر سنًّا، ذلك الذي يرفع شعره الأسود اللامع باختيال عظيم، ويمسده في كل لحظة، لكنه لم يكن في الورشة ذاك الصباح. اسمه مهدي، وغالبًا ما يشمّ منه رائحة الخمر الفاسد، كأنه أفاق بعد ليلة سُكر وجاء إلى العمل دون حتى أن يغسل فمه. اعتاد أن يراه يضغط بأصابعه صدغيه ليخفّف صداعه، فيفكر حمزة أن العمل في النجارة بعد الإفراط في الشرب لا شك فظيع، والأمر لا يخلو من طرقٍ وضرب ونشر وتكسير. تذكّر أوجاع الضابط وشكواه بعد كل جلسة سمر تكثر فيها الكؤوس مع بقية الألمان. وثالثهم في الورشة مراهق اسمه سيفو توكل إليه الصنفرة

وطلاء الورنيش وتنظيف الورشة في نهاية اليوم. وكان أخوه الصغير يساعده أحيانًا، إما ليشغل نفسه أو ربما لإثبات كفاءته فيما لو سنحت فرصة العمل في المستقبل. سيفو وأخوه هما الصبيّان اللذان رآهما حمزة في يومه الأول في الباحة يحملان قدر الورنيش. وناصر بياشارا كذلك يعمل بيديه في الورشة أحيانًا. كان يصمم كل قطع الأثاث في مكتبه لكنه غالبًا ما يضفي عليها في الورشة لمساته الأخيرة من زخرفةٍ ونقش.

عندما دخل حمزة عليهما الورشة رأى تغضّن جبين إمزاي سليماني وهو يستمع إلى كلام التاجر، وقد كان دائمًا صافي الوجه جامد القسمات. فرغ التاجر من حديثه معه فالتفت إلى حمزة ومدّ يده يريد المفاتيح. قال له: تعال معي، ثم خرج دون أن ينتظره. نظر حمزة إلى النجّار لكن محياه لم يكشف شيئًا عن الأمر.

لحق حمزة بناصر بياشارا الذي دخل مكتبه الصغير المجاور للورشة، فقال التاجر كأن الفكرة خطرت للتو في ذهنه وحمزة يعلم أنه كان ينتظر منذ مدة أن يطرح الأمر: «أنت تحب الاشتغال بالخشب، صحيح؟ لاحظت أنك تدخل الورشة من حين إلى آخر. أعرف بفراستي الأشخاص الذين يحبون الخشب. رأيتك تشمّ رائحة الخشب، وهذا ما يكشف السرّ دائمًا. لقد انتهى عملك في المستودع على أية حال. أردت أن أساعدك لأنك تبدو طيبًا ولأنك كنت في حاجة إلى العمل، لكنك أثبتَّ جدارتك. لا أدري كيف تأقلمت على العمل مع ذاك المتذمر خليفة، لكن يبدو أنه أحَبّك وهو الذي لا يستلطف أحدًا. ما رأيك بالعمل الآن في الورشة؟ تساعد إمزاي سليماني ويعلّمك الصنعة. إنه نجّار محترف. لا يحب كثرة الكلام لكنه من أهل الثقة، وسوف تتعلم الكثير منه، وقد تصبح حتى نجارًا. ما قولك؟».

بلغ من تفاجئ حمزة بالعرض أنه ظل مبتسمًا دون رد. تبسّم التاجر وأومأ

برأسه. قال: «لم أكن أعلم أنك تعرف الابتسام. إذًا فالفكرة تعجبك. لن يعود مهدي إلى العمل حاليًّا. لقد ضيّع نفسه... يعاقر الخمر، ويتسكع في الشوارع ويتشاجر مع الناس، ثم يرجع إلى بيته ليبرح زوجته وأخته ضربًا. لم أكن لأبقيه قدر ما بقي عندي لولا أن أباه كان صديق أبي، فاضطررت إلى إبقائه إكرامًا لأسرته. دخل هذه المرة في شجار مع أشخاص أقوى منه وهدّده أحدهم بأن يجز عنقه. ناشدته أمه بالذهاب إلى أقربائهم في دار السلام، كأن هذا الحل سينقذه من نفسه. لا عليك، لا أدري لماذا ما زلت تقف هنا. اذهب إلى الورشة وابدأ العمل!».

كان إمزاي سليماني يكلّف حمزة بأعمال يسيرة في البداية، كأن يطلب منه أن ينقل قطع الأثاث من مكان إلى آخر داخل الورشة، أو يمسك طرف اللوح بينما النجار يقشط أو يثقب، وعينا النجار لا تنفكان تراقبان حمزة وتقوّم أعماله. وكان حمزة طائعًا لكل أمر، معتذرًا عن كل زلة مهما صغرت. علّمه النجار أسماء أنواع الخشب الأخرى: كنغازي، ماهوغني، فينجي، السرو، زيتوني، الزيتون. جعله يشمّ الخشب ويتحسس العروق كي يحفظها في ذاكرته. كان حمزة يكثر الأسئلة ويبدي حماسه للتعلّم، وأدرك في غضون أيام قليلة أن شكوك المسنّ فيه منذ الأيام الأولى قد تلاشت. في نهاية اليوم يرتّب إمزاي سليماني جميع الأدوات في الخزانة بنفسه، ثم يحكم وضع السلسلة ويقفلها بمفتاح يحفظه في جيبه. ويغلق كل النوافذ ويوضّح لحمزة الحالة التي يريد ترك الورشة عليها. عندما يناديه وهو يقفل المكان في نهاية اليوم ويقول: حمزة، غدًا إن شاء الله، يشعر حمزة بأن هذا ترحيب حار: سوف أراك غدًا. كانوا يكفوّن عن العمل ساعة الغداء ليعمل إمزاي سليماني على التطريز دون أن يتناول طعامًا. فاضت السعادة في نفس حمزة منذ بدأ مهنته الجديدة النجارة على نحو لم يحققه أي عمل آخر اشتغل به في حياته.

حكى لخليفة عن وظيفته الجديدة باستمتاع عظيم، حتى إنه ضحك منه وأعاد الحكاية على رفاق البرازا الذين مازحوا الشاب ودعوه فوندي سيرمالا، النجار المحترف. رجع حمزة إلى حجرته في بيت خليفة ورجع إلى روتينه السابق: الاغتسال في المسجد، وتناول العشاء في المقهى، والجلوس في بعض الأمسيات مع خليفة وأصحابه في الشرفة وهم يتأملون أحوال الدنيا. ثم حصل أمر غيّر تفاصيل يومه. نادته ذات صباح بي عائشة من عند باب البيت لترسله لإحضار حاجة من المقهى. لم يأتِ الصبي الذي يجلب لهم عادةً الأرغفة والفطائر كل صباح، فطلبت من حمزة أن يذهب بدلاً عنه. تلك المرة الأولى التي تخاطبه فيها منذ تهجّمها عليه في فناء بيتها، لكنها تصرفت كأن شيئًا لم يحدث بينهما على الإطلاق. خذ هذا المال وأحضر لنا خبزًا وفطائر من المقهى - هيا، أسرع. وأصبحت هذه مهمته كل صباح. يطرق الباب فتسلّمه الشابة المال وسلةً لحمل الخبز والفطائر. ثم يرجع من المقهى فيطرق الباب ثانية ويسلّمها السلة. وفي المقابل كانوا يعطونه رغيف خبز وفنجان شاي للإفطار. تناديه المرأة فيقابلها لدى الباب لأخذ الصينية. لم يعد يسمّيها في ذهنه الخادمة بعد أن قالت له إن اسمها عافية.

أرسلوه لإتمام مهام أخرى، كأن يوصل حزمة أو سلة طعام أو رسالة إلى الجيران أو الأقارب. وأحيانًا تناديه بي عائشة لأنها تود أن تعيره لجارٍ يحتاج إلى مساعدة. وكانت دائمًا ساخطة على هؤلاء الجيران من ورائهم، تعدّد إهاناتهم التي لا تنتهي بحقها وآثامهم الكثيرة. يبدو أنها محاطة بالكفرة، وكانت تحرص على قراءة الورد كلما أرسلت حمزة إليهم كي يحفظه الله كما تقول. أصبحت عادتها أن تبعث بحمزة أينما شاءت بنبرتها القاسية الحازمة، كأن لها كل الحق في أن تأمره بما تشاء. لكن خليفة لا يقبل أخذ أجرة الحجرة منه ما يجعل حمزة مكفولاً من أهل البيت ولزامًا عليه خدمتهم. وقد أحس

بعدها بالطمأنينة، كأنه ينتمي إليهم، فلم يمانع استدعاءه ذهابًا وإيابًا. بل إنه اعتاد على حدة لسان بي عائشة التي لم ير منها لينًا قط. والأهون في رأيه أن يكون ملزمًا بهم، معينًا لهم في حوائجهم، على أن يقال عنه: بلاء. هانا مانا.

***

قال ناصر بياشارا: «إمزاي سليماني راضٍ عن عملك. نظرتي لا تخيب. كنت واثقًا أنك سوف تبرع في هذا. يقول إن أدبك عالٍ، وهذه شهادة ليست بخسة منه. الأدب عنده ليس في السلوك فحسب، هو شيء أسمى من ذلك».

سكت ناصر بياشارا وانتظر. شعر حمزة أنه يختبره لكنه لا يدري ما يرمي إليه. انتظر أن يفسّر التاجر كلامه. قال ناصر بياشارا: «لم يتكلم معي طبعًا في الأمر لكن هذا هو رأيي. أنا أعرفه منذ سنوات طويلة. لا يحب اللغة القوية. لا أقصد اللغة البذيئة والسبّ، إنه لا يذكر اسم الله لغوًا كما نفعل جميعًا، والله والكلمات التي بمعناها، عندما نريد التأكيد على أمر ما. لو قلتَ واللهِ بوجودَه سوف يسكتك، لأنك ترخص اسم الله. أسوأ ما سمعته يقول عن شخص هي كلمة: لا أصدّقه. وللصدق عنده اعتبار عظيم الشأن. ربما تتصور من كلامي أن الرجل متعالٍ، لكني لا أقصد ذلك. ليس الصدق بحد ذاته، ربما الأصح هي الصراحة أو الوضوح أو من هذا القبيل، دون تظاهر أو زيف... وأنت تشبهه في هذا. مع دماثة أخلاقك. وهذا أمر يعجبه. هذا ما قصده عندما قال إن أدبك عالٍ. ولن يقول هذا لك أنت فاسمعها مني».

لم يحر حمزة جوابًا. سرّه أن يكون هذا رأي النجار به، وأن يتلطف التاجر بإبلاغه. أحس أن مشاعره تتدفق من عينيه. وغالبًا ما حيّره بغض خليفة للتاجر، مع أن حمزة لم يرَ منه أذى.

تناول ناصر بياشارا بعض سجلاته، وقال بنبرة أكثر عملية وأقل استحسانًا: «قال لي إنك تعيش في بيت خليفة. لم تخبرني بذلك. جيد أنك استقررت. وإن كنت لا أفهم لماذا اخترت السكن مع ذاك المهذار العجوز».

قال حمزة: «أنا لا أعيش داخل بيته. سمحوا لي أن أستعمل حجرة خارج البيت كانت محل حلاقة».

«أنا أعرف كل جزء في ذلك البيت، وهو ليس بيته. ولا بيتها. ما رأيك بها؟ بي عائشة. سليطة قليلاً، صحيح؟ لا أدري من أثّر في الآخر حتى أصبحا يتشاركان التجهم والفظاظة، لكني أظن أن اللوم يقع عليها. لا تنتهي شكاوى هذه المرأة. لن ترجع إلى البيت وتنقل ما أقوله لهما، صحيح؟ نحن أقارب كما تعلم. أو بالأصح بيني وبين أهل البيت قرابة». ثم لوّح التاجر بيده أن الحديث بينهما انتهى، وجلس يقرأ الأوراق التي أمامه.

قال حمزة لخليفة لاحقًا: «سمعت أنك قريب ناصر بياشارا. أو بالأخرى أن له قرابة مع أهل البيت».

فكّر خليفة ثم سأل: «أهذا ما قاله؟ أن له بأهل البيت قرابة؟».

سأل حمزة: «لماذا قال أهل البيت؟ هل يقصد بي عائشة؟».

أومأ خليفة أي نعم وقال: «إنه أفعى. قلت لك من قبل إنه أفعى. رجل مراوغ منافق يتفاصح في كلامه. الناس أمثاله يرون أن من سوء الأدب الحديث عن نساء البيت».

أحسّ حمزة بتردد خليفة في أن يزيد، فسكب له فنجانًا آخر من القهوة، وكانا يجلسان وحدهما في الشرفة ذلك المساء، ثم سأل: «ما صلة القرابة بينكما؟».

طال صمت خليفة وارتشف من فنجانه وهو يستجمع أفكاره، فانتظر

حمزة موقنًا أنه حاصل لا محالة على القصة: «أخبرتك أني كنت أعمل عند والده عامر بياشارا، التاجر القرصان. عملت عنده سنوات كثيرة. ثم تزوجت بي عائشة. بوانا عامر قريبها، وهو... هو من رتّب... امم، هو من جمعنا بالزواج».

طال الصمت بعدها، تعجّب حمزة من تكتّم خليفة على خلاف عادته، وهو الذي لا يحتاج إلى من يشجّعه على الكلام. سأل حمزة: «كيف بدأت العمل عنده؟».

قال خليفة: «ما اهتمامك بهذه الحكايات القديمة؟ أنت لا تخبرني عن أي شيء يخصك، ثم تسألني ولا أستطيع مقاومة الكلام. هذه لعنة كبر السن. لا أستطيع إغلاق فمي».

ابتسم حمزة ابتسامة واسعة لأنه يعلم أن خليفة لن يستطيع مقاومة إخباره. قال: «أود حقًّا أن أعرف حكاية القرصان العجوز».

***

حين وصل حمزة إلى البلدة في ذلك المساء المظلم كان موسم الأمطار الصيفية «كوسي» في بدايته. وكان التجار الذين يفدون إلى البلدة عبر المحيط قد عادوا إلى ديارهم في الصومال وجنوب الجزيرة العربية وغرب الهند. لا يذكر كيف كان مناخ هذه المنطقة حين عاش فيها قبل سنوات، أما الأعوام الشاقة التي تلت رحيله فقد قضاها متنقلاً في المناطق الداخلية بعيدًا عن رياح الساحل. كان الناس يرددون أن أشهر منتصف السنة هي أجملها لكنه لم يفهم ما المقصود بذلك ولما يمض على عودته إلا القليل. الأرض خضراء ما زالت من الأمطار المتوالية، والرياح خفيفة. وفي الشهور الأخيرة من السنة، أي

في الثلث الأخير تقريبًا، يصبح الجو حارًّا وجافًّا، ثم تأتي الأمطار الموسمية الشتوية «كاسكازي» فيضطرم البحر وتشتدّ الريح، ثم تليها الأمطار المتقطّعة، وأخيرًا مع بداية العام تهبّ الرياح المعتدلة من الشمال الشرقي.

كانت هذه الرياح تجلب معها سفن التجار من الجانب الآخر من المحيط. وجهتها الحقيقية مومباسا أو زنجبار، وهي المدن المزدهرة التي يطمع التجار الأثرياء في المتاجرة فيها، لكن بعضهم يقرر التخلف في بلدات ساحلية أخرى مثل بلدتهم هذه. كان الناس يستعدون لاستقبال السفن قبل أسابيع من مواعيد وصولها، فيستذكرون ويتداولون أساطير شعبية عن ربابنة وبحارة معروفين؛ عن الفوضى التي يشيعونها في أي مكان فسيح يحيلونه إلى معسكر، عن السلع العجيبة التي يروّجونها في الشوارع، جلّها حلي رخيصة، لكن منها ما يجهل بائعوه علو قيمته، والسجاد الثخين والعطور النادرة، وشحنات التمور والكنعد المملح والقروش المجففة التي تُباع بالجملة على تجار البلدة، وكذلك اشتهاء أهل البحر العظيم للفاكهة، خاصةً المانغو، والعنف الجامح الذي أشعلت شراراته في الماضي معارك حامية في الشوارع حتى أغلق الناس على أنفسهم الأبواب من الخوف. كانت المساجد تفيض بالبحارة، والهواء يعبق بروائح ملح البحر وعرق الجلد الملتصقة بالثياب، والطاقيات المسوّدة من السخام. وأكثر المناطق تحمّلاً لوطأة صولاتهم وتجاوزاتهم هي المنطقة المحيطة بالميناء. ولأن ورشة الخشب وبيت خليفة أقرب إلى قلب المدينة من الميناء فلم يصل إليها من المسافرين إلا بائعو الشوارع، حاملين سلالهم المليئة باللبان، والتوابل، والعطور، والسلاسل، والتحف النحاسية، والأنسجة الثقيلة المصبوغة والمطرّزة بألوان زاهية. أحيانًا يمرّ بخطوات عتيدة في الحي بعض التجار من سوري، الباحثين عن المتع وقد تاهوا عن الطريق، يلوحون بعصيّهم عاليًا كأنهم يعبرون أراضي العدو. وكان الأطفال يتجمهرون

ورائهم، يهتفون بكلمات ساخرة لا يفهمها الأجانب، ويطلقون من أفواههم أصواتًا تشبه الضراط، وقد شاع عن أهل سوري أن هذا الصوت من أقبح الأصوات لديهم.

وإن كانت ورشة الخشب وبيت خليفة بعيدين عن طريق التجار والبحارة فإن الأرض الشاسعة المقابلة للمستودعات قريبة ومواتية. كانوا يجتمعون فيها كل يوم، بعضهم يبيت فيها ليلاً. ويتبعهم بائعو الفاكهة والذرة والكسافا المشوية والقهوة، فيحيلون المنطقة إلى سوق عامرةٍ ضاجّة بالأصوات والألوان والروائح، تشبه ما وصف خليفة لحمزة في توقٍ منذ شهور عديدة. أُفرغ المستودع من البضاعة التي احتواها خلال الأسابيع والأشهر الماضية، فأصبح الآن جاهزًا لاستقبال مؤونة جديدة. وانتقل ناصر بياشارا في الصباح من مكتبه في تلك الحجيرة في ورشة الخشب إلى مكتب صغير داخل المستودع ملاصقًا للباب من الداخل. وفي العصر يعود إلى الباحة لترتيب المعاملات، تاركًا لخليفة مسؤولية تسلّم البضائع وتخزينها. وقد انشغل خليفة في تلك المدة حتى إنه كان يتأخر في العمل غالب الأيام، ويدور من مكان إلى مكان نافخًا صدره حاملاً قوائم الجرد. عرف حمزة أن هذا دوره الطبيعي، كاتب التاجر القرصان، يوجّه إدريس ودوبو ما بين المستودع والميناء، ويشرف على الحمّالين المستأجرين لترتيب البضائع.

غيّر كل هذا نظام عمله اليومي. عادةً ما يقفل خليفة المستودع بداية العصر ويترك المفاتيح في باحة الخشب ثم يذهب إلى البيت. وإن كان عمل حمزة في ذلك اليوم خفيفًا رافقه لتناول الغداء، إما في حجرته أو في الشرفة. أما إمزاي سليماني فكان لا يخرج من الورشة ولا يتناول الغداء. يرجع حمزة بعد الغداء إلى أن يؤذن المؤذن للعصر فينظفون الورشة ويقفلون الأبواب. وإن لم يرجع لتناول الغداء في البيت فإن حصته من الوجبة محفوظة كي يتناولها

متى عاد إلى حجرته. فأضحى بهذه الطريقة فردًا من أفراد العائلة مع بقائه خارجًا في حجرته. لم يدخل البيت ثانية بعد ما حدث في المرة الأولى، وعندما تستدعيه بي عائشة من الفناء الداخلي كي ترسله لقضاء حاجة ما كعادتها فإن صوتها يصل إليه ويتخطّاه، لكنه ينتظرها عند الباب الخارجي. فإن انزعجت وزجرته آمرةً أن يدخل فإنه يقف عند الباب وينتظر حتى تأتي هي إليه، لأنه يحاول ألا يتجاوز الحدود ما بين الخادم، وهو لا يريد أن يكون خادمًا، وابن الدار الذي تقع على عاتقه بعض المسؤوليات دون جراءة ولا تمادٍ.

في أحد الأيام التي طال فيها انشغال خليفة بأعمال المستودع رجع حمزة إلى البيت وطرق الباب طلبًا لغدائه كعادته، ففتحت عافية الباب. مدّت إليه كأس ماء وطبق أرز بالسبانخ. لم تغلق الباب من فورها كما كانت تفعل قبل ذلك، فجلس في الشرفة قريبًا من الباب وشرع يأكل. شعر بوجودها في كنف الظلال داخل الباب. مضت أشهر على مكوثه في حجرة المخزن الخارجية لم يتبادلا فيها إلا كلمات قليلة ضرورية، وإن كان يكثر التفكير فيها. تناول بضع لقمات ولم تزل واقفة عند الباب، فقال بصوت خافت كيلا تسمع بي عائشة داخل البيت: «من سمّالك بهذا الاسم؟ أبوك أم أمك؟».

قالت: «عافية؟ معناه الصحة الجيدة. أمي سمّتني به».

توقّع أن تغلق الباب لكنها لم تفعل. ظلّت مكانها لأنها تريد أن تكلّمه أيضًا. لقد طال تفكيره فيها حتى لا تكاد تبرح ذهنه، خاصةً عندما يكون وحيدًا في حجرته. كانت أحيانًا عندما تمرّ بالحجرة في خروجها وترى نافذته مفتوحة تلقي تحيةً دون أن تطل، فيهرع لينظر إليها نظرة خاطفة وهي تسير مبتعدةً في الزقاق. وأحيانًا تمر دون أن تسلّم ويلمحها فيهتز من هذه اللمحة. كان يحرص على ألا ينطق إلا بما هو مباح له دون إهانتها، متى ما نادته إلى الباب أو رآها تمرّ، فقط كي يسمع صوتها الأجش اللطيف الذي يشغله.

قال ليستحثّها على الكلام عندما لم تزد: «سمّتك بهذا الاسم لتتمنى لك الصحة الجيدة».

قالت عافية: «نعم، ولنفسها أيضًا. هذا ما قالوه لي. توفيت عندما كنت طفلة، في الثانية تقريبًا، لا أدري. لا أتذكرها».

سأل حمزة وهو لا يدري إن كان من المستحسن ألا يكمل: «ووالدك، أهو بخير؟».

«توفي قبل سنوات طويلة. لم أعرفه».

تمتم بعبارات عزاء وعاد إلى طبق الأرز. أراد أن يخبرها أنه فقد والديه كذلك، أنه أُبعد قهرًا عنهما ولا يدري ما حلّ بهما ولا يعلمان ما جرى له. أراد أن يسأل ماذا حدث للأب الذي لم تعرفه. هل تُوفي وهي رضيعة كما توفيت أمها أم أنه تركها لمصيرها بعد موت أمها؟ لم يسأل لأن هدفه من الأسئلة ليس إلا إرضاء فضوله، وكان يخشى من الأشجان التي قد تثيرها أسئلته.

قالت: «هل تؤلمك ساقك؟ رأيتك تجفل من الألم مرةً والآن لاحظت ذلك ثانيةً عندما جلست».

قال: «تؤلمني ولكنها تتحسن مع مرور الأيام».

سألت: «ماذا حدث لك؟».

خرجت من فمه ضحكة جوفاء، وقال محاولاً الاستخفاف بالأمر: «سأخبرك يومًا ما».

سمعها بعد ثوانٍ تتبعد عن الباب وأسف على أنه لم يكشف لها شيئًا من حياته كما كشفت له. عادت بعدها لتأخذ الطبق الفارغ وتقدّم له برتقالة مقطّعة شرائحَ في طبق أصغر. قالت: «إن أردت يمكنك أن تدخل لتغسل يديك متى انتهيت».

عندما انتهى ناداها ودخل البيت. انتظر حتى ظهرت عند باب الفناء الخلفي، فأعطاها الصحن الفارغ وتبعها. أشارت إلى حوض مثبت على جدار الفناء الأيسر فاتجه إليه لغسل يديه. لم يكن حينها أي أثر لبي عائشة. وقد استنتج من رغبة عافية في الوقوف للحديث معه ودعوته إلى الداخل أنها ليست موجودة. غسل يديه في الحوض وأجال النظر حوله في فضول فاضح، حيث لم يقدر في تلك المرة إلا أن يستعجل في الغسل للابتعاد قدر الإمكان عن ترحيب بي عائشة الخانق. في جانب الحوض صنبور في الزاوية التي كانت عافية تنظّف فيها الأطباق تلك المرة. رأى الآن أن الحمام في آخر الفناء وبجانبه مظلة، وأن الجانب الأيمن تحتلّه حجرتان إحداهما مخزن، ينتصب أمامه موقدان، أحدهما معبأ بالفحم جاهز للإشعال. أما الحجرة الأخرى فأكبر مما كان يتذكر، ولاحظ أن على نافذتها المفتوحة ستارة وشبك من الشاش الثقيل. وبابها مغلق. إن كانت هذه هي حجرتها فهي أفضل مما يُعطى الخدم، الذين ليس لهم عادةً إلا حصيرة وركنًا من الممر. ربما لم تكن الخادمة، بل زوجة خليفة الثانية كما افترض أول مرة.

تبعت عافية اتجاه نظره وأومأت إيماءة خفيفة. تراجع الكانغا إلى مؤخرة رأسها وتعلّق بدبوس أو مشبك شعر، فرأى منها أكثر مما رأى في أي مرة سابقة، وبهذا القرب. شعرها مفروق من المنتصف ومجموع بضفيرتين تلتقيان في الخلف. ومع انكشاف الكانغا رأى جزءًا من جذعها حتى الخصر، حتى عدّلت موضع الوشاح على رأسها وشدّته على جسدها. وهذه حركة معروفة تدل على الاحتشام، لكنه تساءل إن كانت لم تحكم ربط الكانغا عمدًا لأجله. ابتسما وشكرها، ثم غادر وهو شبه موقن بأنها تعلم ما يشعر به تجاهها. انتشى بهذه الفكرة. إن كانت تعلم بحقيقة مشاعره وابتسمت له بهذه الطريقة فلا يمكن أن تكون زوجة خليفة. جلوسها معها ثم دعوته لغسل يديه في غياب

بي عائشة تعني أنها فعلت أمرًا في الخفاء. وحسب فهمه غير المتعمق في هذه الشؤون فإن الموقف بأكمله يحمل أمارات التودد. رجع حمزة إلى الورشة في انشراح وجذل.

لكن سرعان ما تبدد فرحه بمرارة واقعه. ما بيده ليقدمه لها؟ وظيفة ليست مضمونة، وبيت هو حجرة ممنوحة في اكتناف قد يزول إن أهانتهم نيته بالقرب، وسرير هو بساط على الأرض. وجسد عليل خرب. لا فخر سابق ولا أمل قادم، بل قصة حزن ومهانة تضاف إلى قصتها، وهي التي تود رجلاً يخفف عنها ما عاشته. ولربما كانت زوجة أحد آخر، وهو على وشك التورط في أمور خطيرة على فحشها. لكن مهما قال لنفسه فلا شيء أثّر في سعادته، حتى وإن كان يخشى ألا يستطيع تحقيق أمله. وقد يكون قد أخطأ تمامًا في فهم ما دار بينهما. وغالبًا ما يشلّه إحساس بالفشل يمنعه من المحاولة لكثرة الصدمات التي تعرّض لها. يحاول كل يوم أن يقاوم هذا الإحساس، وكان لعمله في الورشة وبين الأخشاب ورفقة النجار الطيبة أثر في تبديد هذا الإحساس ولو قليلاً.

كذلك كان إمزاي سليماني منبسط المزاج ذلك العصر، يترنم بأناشيده المفضلة وهو يعمل. ربما بلغته أنباء سرّته، أو أنه أتمّ تطريز آخر طاقياته. زاد انشراح حمزة برؤية النجار بهذه الحالة ولم يستطع الكف عن التبسّم، حتى إن النجار لاحظ تغيّر حاله ونظر إليه متسائلاً دون أن يقول كلمة. لاحظ أن حمزة أسقط المثقب لأنه كان سرحانًا، ثم أخذ يبحث عن المسطرة لا يدري أين مكانها، فكان يفتش في كل ناحية عنها منزعجًا، وهي أمام ناظريه مباشرةً. لم يكن من عادته ارتكاب هذه الأخطاء. اقتنص إمزاي سليماني لحظة كان حمزة يبتسم فيها لنفسه، فلما التقت أعينهما رفع النجار حاجبيه كأنما يسأل ما سر سعادته. ضحك حمزة من انشغال فكره. وكما هي عادته لم يقل النجار شيئًا

لكن حمزة رأى أنه هو أيضًا يحاول إخفاء ابتسامته. هل عرف الشيخ سرّه؟ هل تظهر هذه الأمور على وجه صاحبها؟

وجد حمزة علبة أعواد «Leuchtturm Sicherheitszündhölzer» الثقاب في أحد الأدراج في الورشة، فقرأ اسم العلامة التجارية عاليًا. توقف إمزاي سليماني عن الصنفرة ونظر إليه قائلاً: «ماذا قلت؟».

كرّر حمزة الكلمات: Leuchtturm Sicherheitszündhölzer. ثقاب الفنار الآمن. اقترب النجار العجوز من حمزة وأخذ العلبة من يده. نظر إليها لحظات ثم أعادها إليه. اتجه إلى أحد الأرفف وأخذ علبة معدنية يحفظون فيها المسامير التي تحتاج إلى تقويم. أعطاها لحمزة فقرأ المكتوب: «Wagener-Weber Kindermehl».

قال النجار: «يمكنك القراءة».

قال حمزة: «نعم، والكتابة أيضًا». لم يستطع إخفاء نبرة الفخر في صوته.

قال النجار: «بالألمانية». ثم أشار إلى العلبة وسأل: «ما معنى هذا؟».

«حليب فاغنر-فيبر للأطفال».

«أتستطيع أيضًا التحدث بالألمانية؟».

«نعم».

قال إمزاي سليماني: «ما شاء الله».

11

أصبح التفكير به يستحوذ على عقلها في كل وقت. إذا طرق الباب في الصباح لأخذ مبلغ الخبز تمنع نفسها من الحديث معه خشية أن تسمعها بي عائشة. ففي تعريفها للإثم الحديث مع رجل يساوي الاختلاء به سرًّا. يقول حمزة: هباري زا سوبوهي، صباح الخير، وتقول: نزوري، صباح النور، ثم تعطيه السلة والنقود وهي تودّ لو تلمسه أو تحتضنه. إن مرّت بحجرته ورأت النافذة مفتوحة تحاول جهدها ألا تميل إليها لتكلّمه لحظات أو تمدّ يدها ليحتويها بيده. تلقي أحيانًا السلام وهي عابرة دون أن تجرؤ على التوقف عنده. كلما طرق الباب شعرت بفرح يفور بداخلها، وبدايات ابتسامة تتراقص على شفتيها، فتكتمها قسرًا كيلا تظهر مشاعرها على وجهها عندما تفتح الباب. كانت تتوق لهذه اللحظات المختلسة كي تراه. لم تعد تناديه ليأخذ رغيفه وفنجان الشاي. أصبحت تطرق هي بابه لتمدّ له الإفطار في صينية. وكان دائمًا مستعدًا لأخذها، منتظرًا بابتسامة. في أحد الأيام، بينما تهم بإعطائه نقود الخبز والفطائر لمست يده، كأن الأمر عارض غير مقصود لكن بالطبع كانت تقصد، ولكي تقطع شكه بيقينها لم تبعد يدها فورًا. لن يفوت معناها على أحد، ولا حتى أحمق الحمقى.

قالت: «أظن أن ساقك تحسّنت. أرى هذا من حركتك».

قال: «إنها تتحسن حقًّا. شكرًا».

سوف تحين اللحظة التي يُقال فيها ما يجب قوله، لكنها لا تدري إن كان

ينبغي عليها أن تدفعه إلى ذلك دفعًا أم تنتظر إلى أن يبادر بنفسه. لم تكن تريد أن يظن أنها عليمة بهذه الأمور، أن يحسب أنها قد فعلت هذه التصرفات من قبل. كانت تتمنى أن تسرّ بالأمر لجميلة وسعدة، وقد كادت الكلمات تفلت من لسانها في أكثر من مرة، لكن شيئًا ما دائمًا يلجمها. تساءلت إن كان السبب خوفها من استهزائهما به، أن تنصحاها بالتعقل وعدم استرخاص نفسها بهذه الطريقة مع رجل لا تعرف من هم أهله. ربما لا يرونه إلا رحّالاً معدمًا، ولكن من يقول إنها أفضل منه؟ ستقولان إنها امرأة، وليس للمرأة في النهاية إلا شرفها، وهل هي واثقة أنه يستحق هذه المخاطرة؟ لم تجرؤ بذكر الأمر عند خالدة كذلك، لأنها سوف تسارع إلى إخبار صديقاتها، سيضحكن ويشجّعن عافية على إتيان فواحش لا تريد أن تفعلها على الإطلاق. ولِمَ الاستعجال على أية حال؟ لم ينفد صبرها بعد، خاصة وأنها تتطلع إلى هذا الترقب المحموم في كل لحظة.

في أحيان كثيرة كان الخوف من فقدانه يكبّلها، خوفها من أن يختفي فجأة كما ظهر فجأة، أن يرحل إلى مكان لا تعرف عنه إلا أنه بعيد عنها. كانت تعرف هذه الصفة فيه، من النظر والاستماع إليه، أنه رجل لا يربطه وثاق ولا قرابة، قد ينطلق في أية لحظة. هذا ما تظنه مما رأته، أن خجله يمنعه من المبادرة، حتى إنها سوف تنتظره يومًا ليأتي إلى الباب لأخذ نقود الخبز، لكنه لن يأتي وسيختفي من حياتها إلى الأبد. يملؤها هذا الخوف بالأسى، فتقرر في تلك اللحظات أن تمنحه إشارةً. لكن الخوف يتلاشى وتعود إليها شكوكها وحذرها.

بلغ من كثرة تفكيرها به أن شرودها عن الناس حولها زاد. لاحظت جميلة وسألتها ضاحكةً بمن تفكر. أتقدّم أحد لطلب يدها؟ ضحكت عافية وغيّرت الموضوع، ولم تخبرها بما حدث في البيت. ففي اليوم السابق، قبل

أن توقظها جميلة من أحلام يقظتها، رجعت بي عائشة إلى البيت من إحدى زيارات العصر، وقالت لها وهي تبتسم كمن يخفي مفاجأة: «أعتقد أننا سنسمع أخبارًا سارة لك قريبًا».

لا معنى لهذا إلا خطبة مرتقبة. وهذا أمر آخر تخشاه. مرّت أشهر عديدة منذ رفضت الخاطبين، وبدأت بي عائشة الآن تدمدم بأنهم استعجلوا في الرفض وقد يظن الناس الآن أنهم يترفعون عن كل خاطب. ملأت ابتسامة بي عائشة السعيدة المرتاحة عافية بالقلق. لم تسأل عن هوية الخاطب أو من تحدّث معها باسمه. حدّقت بي عائشة بها، بنظرة تقيّم الفتاة وتدرس تعابيرها، لكن عافية لم تقلق من انكشاف أفكارها لأن الابتسامة لم تبارح وجه بي عائشة. عندما سألتها جميلة ذاك السؤال كان عقلها مشغولاً بالتفكير في الطريقة المناسبة لتبلغ حمزة عن حقيقة شعورها. أتكتب له رسالة؟ هل تطل عليه من نافذة حجرته وتقول: أنا لا أكف عن التفكير بك؟ ماذا لو لم يكن يبادلها الشعور؟ كانت تصارع طوفان الأسئلة، وليس لديها طوال اليوم ما يشغلها إلا التفكير، وليس لديها أحد تحادثه بشأنه.

***

ولحمزة نصيبه كذلك من الهموم. كان يقضي وقت فراغه في التجوال في طريق الساحل تجاه البيت الذي عاش فيه يومًا أعوامًا طويلة، منذ أن كان طفلاً أُخذ من بيته الأول حتى هروبه والتحاقه بالشوتزتروبه. قضى معظم هذه الأعوام حبيسًا في محلّ التاجر الذي يستعبده، ما خلا بضعة أشهر رافقه في رحلة طويلة مضنية إلى المناطق الداخلية من البلاد، يسير على قدميه مع الحمالين والحراس أسابيع لا عد لها، قاطعين بلادًا أبهرته وأرعبته. كان هذا التاجر من تجار القوافل، وعلم حمزة في وقت لاحق أن الألمان كانوا يسعون

إلى إنهاء هذه التجارة لأنهم يريدون التحكّم بكل شيء في البلد، من الساحل إلى الجبال. وقد ضاق الألمان ذرعًا من مقاومة تجار الساحل وقوافلهم، وقد أذاقوهم الأمرين في حروب بوشيري، حين رأوا ضرورة إرسال رسالة إلى ملّاك العبيد آكلي الأرز أصحاب اللحى، أن وقت هيمنتهم قد انقضى، وأن عهد النظام الألماني ساحقهم بالتأكيد. لم يفهم حمزة في ذلك الحين أيًا من هذا، وإن كان مسافرًا معهم عارفًا باقتراب السيطرة الألمانية. ما فهمه هو أسره وعجزه، والحقيقة حتى هذا لم يفهمه بالكلية، بل شعر بأنها تزهق روحه وتحيله شبحًا.

لم يزر البلدة إلا نادرًا خلال السنوات التي عاشها في محل التاجر. كان وصبي آخر يعمل معه يقفان في المحل لخدمة الزبائن منذ شروق الشمس حتى آخر ساعات المساء. وفي الليل يقفلان الأبواب وينامان في الخلف. أقلقه وحيّره أنه لم يعثر على ذاك البيت حتى الآن. كان المحل مواجهًا للطريق، وفي جانب البيت حديقة مسوّرة ومضخة عمودية يتوضؤون منها. لا أثر للبيت الآن، وقد رأى في المكان الذي يظنه موقعه بيتًا فاخرًا مطليًا بالأبيض. له طابق علوي وشرفة أمامية مسيجة وحائط منخفض يحيط بفناء أمامي يغطي أرضه الحصى. دار حول هذا البيت مرات كثيرة دون أن تمكّنه شجاعته من طرق بابه والسؤال عما حدث للبيت السابق. سيقول لمن يفتح الباب: هنا، قبل أعوام، رأيت جبني وخنوعي مكشوفين نتنين، كبقعة قيء على الأرض. هنا رأيت تواضعي وحيائي يتحولان إلى إذلال وهوان. لم يطرق الباب ولم يقل هذا الكلام، بل دار ثانية حول المكان ثم عاد أدراجه إلى البلدة.

ثمة أجزاء من البلدة لم يعد غريبًا فيها، وفي نهاية العصر أو بداية المساء يجول في هذه المناطق المألوفة. يجلس أحيانًا في مقهى ويتناول وجبة خفيفة، أو ينصت لأطراف حديث الغرباء أو يتابع لعبة ورق. والناس يحيونه أو

يبتسمون له أو حتى يتبادلون معه بضع كلمات دون أن يضايقوه بالأسئلة أو يتحدثون عن أنفسهم. من هذه المحادثات التي يسترق السمع لها عرف أسماء بعض هؤلاء، وعرف بعض المعلومات عنهم، وإن لم يستبعد أن تشوبها المبالغات الواجبة في جو المقهى.

رأى جماعة من الناس في ركن قصي في أحد الشوارع يجلسون على مقاعد أمام باب بيت مشرع، وبالداخل فرقة موسيقية تتدرب وامرأة تغني. وقف معهم لحظات في الشارع تحت شعاع وهسيس السُّرج التي تنير غرفة التدريب والواقفين والجالسين في الخارج. كانت أغنية المرأة عن حنينها إلى حبيبها، تعدّد فيها مثالاً تلو المثال عن إخلاصها له. أشبعه الصوت والكلمات بالشوق، وبالحزن والطرب أيضًا. سأل خلال استراحة العازفين شابًّا يقف بجواره عما يجري هنا.

«هل يتدربون لإقامة حفلة؟».

اندهش المراهق ثم رفع كتفه غير واثق. قال: «لا أدري. يعزفون هنا ونأتي للاستماع. ربما يقيمون حفلات أيضًا».

«هل يعزفون هنا كثيرًا؟».

قال الشاب: «كل ليلة تقريبًا».

علم حمزة عندئذ أنه سيعود.

***

تضاعفت مودّة إمزاي سليماني له بعد أن علم أن حمزة يجيد القراءة، وبالألمانية أيضًا. كان يفرح بتقديم جملة لحمزة ويسأل عن ترجمتها الألمانية. وسرّ حمزة بالمشاركة بألغاز إمزاي سليماني، كرد جميل تعليمه مهارات النجارة.

يسأل النجار المسن ونظرة ترقب سعيد تعلو وجهه: «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. كيف تقول هذا بالألمانية؟».

حاول حمزة ما استطاع لكن أحيانًا يعلن استسلامه لا سيما في ترجمة الجمل الدينية أو المبهمة. قال إمزاي سليماني حكمة وانتظر مبتسمًا يراقب حمزة وهو يستجمع الكلمات. وكان النجار يسرّ السرور ذاته سواءً إن نجح أو فشل ويصفق له على أية حال. «لم أتعلم في المدرسة سوى قراءة القرآن سنة واحدة فحسب. بعدها بدأت العمل كما طلب والدي وسيّده».

سأل حمزة وإن كان يعرف ما الإجابة: «سيّده؟».

أجاب إمزاي سليماني في وقار: «سيّدنا. كنت وأبي مملوكين له. أوصى سيّدنا بعتق رقبتينا قبل وفاته رحمه الله. رغب أبي في أن أتعلم النجارة وسمح لنا السيد. فاضطررت إلى ترك المدرسة وبدء العمل. حفظت بعض السور غيبًا. الحمد لله. بهذه السور، على قلّتها، أكون من حفظة القرآن».

أطلع إمزاي سليماني التاجر على مهارات حمزة، واختار هذا أن يتجاهل المعلومات مدةً، ثم إذا به يسأل يومًا: «ما هذا الذي سمعته عن قراءتك وحديثك بالألمانية؟ أين تعلمت هذا؟ ألم تقل لي إنك لم تدرس بالمدرسة؟».

أجاب حمزة: «لم أدرس في أي مدرسة. تعلمتها من هنا وهناك».

«من أين تحديدًا؟ أخبرني إمزاي سليماني أنه يعطيك آيات من القرآن فتترجمها إلى الألمانية. لا أحد يتعلم الألمانية بهذه الجودة من هنا وهناك».

قال حمزة: «مجرد ترجمات ضعيفة. أحاول جهدي فيها».

كان خليفة حاضرًا هذا الحديث، وجّه ابتسامته الساخرة إلى التاجر وعلّق: «لديه أسراره، ويحق لكل رجل أن يحتفظ بأسراره لنفسه».

سأل التاجر: «أي أسرار؟ ما الحكاية؟».

قال خليفة: «الأمر لا يعني أحدًا سواه». ثم جرّ حمزة خارجًا معه، وهو يضحك وقد نجح في إغاظة التاجر.

أخبر خليفة ذاك المساء رفاقه في البرازا عن ملكة حمزة اللغوية وتساؤلات التاجر وصدّ خليفة لفضوله. وحيث إن المعلم عبدالله بحكم طبيعة عمله قارئ جيّد للصحف الإنجليزية والألمانية، وخليفة كاتب سابق لدى المصرفيين الغوجاراتيين ثم لدى التاجر القرصان، فلم يبقَ إلا توباسي الذي لم يكن متعلمًا ولم يدرس في المدارس كي يعبّر عن سعادته وإعجابه بمهارات حمزة، لا سيما أنه اكتسبها دون أي تعليم مدرسي. «لطالما قلت لكم إن المدرسة مضيعة للوقت. أستميحك عذرًا أيها المعلم، إلا مدرستك طبعًا، لكن معظم المدارس. تستطيع أن تتعلم ما تشاء دون الالتحاق بمدرسة».

ردّ المعلم عبدالله دون تردّد: «كلام فارغ». لم يجرؤ أحد على معارضته، ولا حتى توباسي، وقد قاطعتهم على أية حال في تلك اللحظة صينية القهوة التي قام حمزة ليأخذها من عافية. فهم من ابتسامتها في الظلال أنها كانت تسترق السمع إلى حديثهم. وضع الصينية على الأرض ليشرب الأصدقاء الثلاثة وذهب هو لصلاة العشاء في المسجد. أصبح الآخرون يتركونه يذهب دون احتجاج ولا أسئلة. وبعد الصلاة تجوّل في الشوارع كعادته قبل أن يرجع إلى البيت. وجد خليفة جالسًا وحده وقد تركه الرفيقان لتناول العشاء في بيتيهما.

قال خليفة: «تركت لك بعض القهوة». ثم أضاف: «هي كذلك تحسن القراءة والكتابة»، وأشار إلى باب البيت، قطعًا يقصد بهذا عافية وإن لم ينطق اسمها. كانت هذه المرة الأولى التي يشير إليها بأي حديث. وقد فكّر حمزة من قبل أنها تتحرك في أنحاء البيت بصمت وحياء، وأن خليفة يتصرف كأنها مخلوق خفي. وقد يتصرف الرجل على هذا النحو تأدّبًا تجاه امرأة عزباء

تسكن في بيته، بأن يحيط بها حجابًا فلا يذكر اسمها ولا يسترعي الانتباه إليها. أو أن هذا تأدّب الرجل تجاه زوجته حين الحديث عنها مع رجل ليس من أفراد أسرته. لم يجرؤ حمزة على السؤال خوفًا من إهانته. فهو ليس قريبهم، وشؤون نساء البيت لا تخصه. قال في نفسه إنه سيجد طريقة للسؤال عاجلاً أم آجلاً، لكن ليس الآن. جلسا يحتسيان القهوة في صمت، ثم نهضا معًا في آن واحد، دخل خليفة البيت ومعه الصينية، ولفّ حمزة البساط ثم دفعه داخل الباب.

***

خطرت لها الفكرة في الليل. سمعتهم يذكرون إجادته للألمانية، فقررت أن تطلب منه قصيدة بالألمانية. حتى الأحمق سيفهم المعنى، إنها تطلب منه أن يترجم قصيدة حب لها، وهذا يعادل طلبها أن يكتب رسالة حب لها.

قالت له صباحًا وهي تمدّ مبلغ الخبز: «إذًا فأنت تقرأ وتكتب بالألمانية. هل يمكنك أن تبحث لي عن قصيدة جميلة وتترجمها؟ أنا لا أقرأ الألمانية».

«نعم، بالطبع. لا أعرف قصائد كثيرة ولكني سأجد شيئًا».

في عصر اليوم الذي طلبت منه القصيدة، وبعد فراغه من عمله، سار مرة أخرى في طريق الساحل حتى وجد مكانًا مظلّلاً على الشاطئ فجلس فيه. كان الشاطئ في هذه البقعة يرتطم بصخور حادة، فكان الصيادون والسباحون يتجنبونه. أحبّ مشاهدة الأمواج من هنا، ومتابعة تقدّمها وتراجعها، متتبعًا خط الموج بعينيه وهو يتقدّم بهدير صامت ثم يتقهقر بهسيس ضجر. انسلّ خفية قبل أن يترك الورشة إلى مكتب التاجر وهو مشغول بمحادثة إمزاي سليماني، فأخذ ورقة فارغة من مكتبه. كان اسم التاجر وعنوانه مطبوعين في رأس الورقة لكن من اليسير قطع هذا الجزء. رسائل الحب تُسلّم خفيةً،

وكلما صغر حجمها سهل إخفاؤها.

لم يعرف من القصائد الألمانية سوى ما كُتب في الكتاب الذي أعطاه إياه الضابط، تقويم ربّات الفصول للعام 1798م. أخذ الأبيات الأربعة الأولى من قصيدة «السر» لشيلر، وترجمها لها:

Sie konnte mir kein Wörtchen sagen,

Zu viele Lauscher waren wach,

Den Blick nur durft ich schüchtern fragen,

Und wohl verstand ich, was er sprach.

كتب الكلمات على الورقة التي سرقها من مكتب ناصر بياشارا، وقصّ أطرافها حتى احتوت البيتين فقط، ثم طواها حتى أصبح حجمها لا يزيد على إصبعين. كان يعلم ما سيحل به إن وقعت هذه الورقة بيد أحدهم. فإن كانت عافية زوجة خليفة كما يخشى فإن حمزة على أقل تقدير سوف يطرده شرّ طردة من حجرته، وتهال عليه الشتائم، وربما نالته ضربات هو مستحقها قطعًا. لكن لا مجال للتراجع أو التردد الآن. في الصباح التالي عندما لاقى عافية عند الباب دس الورقة في كفها. وفيها قد كتب:

آليجَريبو كوليسيما نينو موجا، لكيني هاكويزا،

كونا واسيكيليزي وينغي كاريبو،

لكيني جيتشو لانغو لا هوفو ليميونا بلا تفاوتي

لوجا غاني جيشو لكي لنسيما

عاد مسرعًا من المقهى فوجدها ما زالت تنتظره عند الباب، وعندما أخذت سلة الأرغفة والفطائر منه لم تترك يده. أرادت أن تتأكد أنه فهمها.

قالت: «وأنا أستطيع كذلك أن أقرأ ما في عينيك»، في إشارةٍ إلى البيتين الأخيرين من الترجمة:

لم تستطع أن تقول لي كلمة

الكثير من حولنا ينصتون

فتساءلت بخجل عن نظرة عينيها

وفهمت ما تعنيه

ثمّ قبلت أناملها وطبعت القبلة على خده الأيسر. وعندما أحضرت صينية إفطاره إلى حجرته بعد بضع دقائق انسلّت داخل الحجرة وإلى حضنه.

قالت: «حبيبي».

قال دون تفكير وهي في ذراعيه، متشبثين ببعضهما: «هل أنت زوجته؟». تفاجأت بالسؤال. أخيرًا حانت اللحظة التي تتمناها، أصبحت تلمس جسده بيديها، ويسألها إن كانت زوجة! ابتعدت عنه لكنها شعرت بذراعيه تنقبضان حولها. همس: «أنا آسف».

سألته والذعر في عينيها أيضًا: «زوجة من؟».

رفع إبهامه تجاه البيت وراءه. عندما فهمت ما يقصده انقلب الذعر في عينيها إلى مكر لعوب، وابتسمت وهي تعود إلى احتضانه. قالت قبل أن تحرر نفسها من عناقه لتغادر: «أنا لست زوجة أحد... بعد».

***

كان يوم جمعة حين انسلّت عافية إلى حجرته وعانقته، ثم تركته معقود اللسان من السعادة. وهم يعملون نصف يوم فقط في الباحة في أيام الجمعة.

وكل مكان آخر يغلق أبوابه عند الظهر كي يؤدي الناس صلاة الجمعة في الجامع الكبير بالبلدة. لكن طبعًا لا ينصرف الجميع إلى الصلاة وإن انصرفوا من العمل باكرًا، ما عدا المطيعين للواجبات المفروضة عليهم من الله والمرغمين، أي الأطفال والشباب. لكن خليفة وناصر بياشارا لا يصليان في المسجد. أما حمزة - هذا الوليّ الصالح - فيصلي لأنه يحب أن يكون من جملة الجالسين في الجو الروحاني، يستمع دون إنصات إلى الكلمات التقية التي انتقاها إمام الجامع بحرص ليلقي بها خطبته. لم يكن مأمورًا بالذهاب حين كان طفلاً، فأصبح ارتياد المسجد الآن له لذة لأنه اختياره الشخصي. عندها كان يعلم، علمًا أكيدًا لا شك فيه، أن عافية ستجد طريقة تتسلل بها إلى حجرته في العصر. فأقفل حمزة نافذته وترك الباب مواربًا، وفي رمضاء الظهر الحارقة، حين يختار العقلاء البقاء في بيوتهم أو القيلولة، أتته مرتدية البيبوي كأنها في طريقها إلى مكان ما. امتلأت الحجرة بعطرها وهو يغلق الباب. أخذا يقبّلان ويداعبان بعضهما ويهمسان بكلمات العشق دقائق غالية، لكن حين سحب برفق طرف البيبوي لأن قماشه المنسدل يمنعه من أن يمسّ جسدها كما يريد، هزّت رأسها وأبعدت نفسها عنه. قالت عافية إن عليها الذهاب وإلا فإن بي عائشة سوف تفتقدها وتسبب المتاعب لها. كان عذرها في الخروج شراء بيض من بقالة مقدّم شيخ لإعداد الحلوى.

قال: «لم الاستعجال؟».

«إنها تعلم أن الذهاب إلى بقالة مقدّم لا يستغرق سوى بضع دقائق».

سألها وهو لا يريد أن يتركها تذهب: «هل أنت مضطرة إلى خدمتها؟».

تفاجأت عافية بما قال. قالت: «أنا لا أخدمها. أنا أسكن هنا».

قال: «لا تذهبي».

قالت: «يجب أن أذهب الآن. سأخبرك لاحقًا».

انشغلت أفكاره بقية اليوم بذكريات أحضانها، وعاتب نفسه على سخافته وقلة صبره. كانت تلك الجمعة الأخيرة قبل رمضان، فكان المساء حافلاً بترقب ظهور هلال الشهر. كلّفته بي عائشة بإشاعة الخبر في الحي كله، كي يعلم الجميع أن شهر الصيام قد حلَّ، فلا يكون لهؤلاء الآثمين عذر بالأكل والشرب في نهار اليوم التالي جهلاً. لكنه قرّر أن يجول في البلدة ويبتعد عن طريقها، آخر ما يريده هو أن يحسبه الناس ورعًا متطفلًا فيسخرون منه.

أمور كثير تغيّرت في رمضان. فالعمل يبدأ في ساعة متأخرة، ومعظم المحلات والأماكن لا تفتح إلا بعد الظهر، لأن الناس ينامون الصباح ويسهرون الليل لتقليل ساعات الصيام. كان التاجر يرى أن هذه الممارسات كسولة وقد عفى عليها الزمن، فطالب موظفيه بالحضور في ساعات العمل المعتادة في غير شهر رمضان، لكنه لم يفلح في إجبارهم جميعًا على ذلك. خليفة مثلاً لم يبالِ بالتاجر وأوامره، فكان يغلق المستودع عند الظهر ويرجع إلى البيت لينام. أما إدريس ودوبو وسنغورا فيناهم التعب كما يقولون من الجوع والعطش أول العصر، ويتساقطون نيامًا في أي مكان مظلل في الباحة أو ينسلّون خفية. أما إمزاي سليماني فما زال يصرّ على اقتطاع الوقت في النهار في ساعة الغداء، لكنه كان يصلي في هذه الساعة ويتلو ما يحفظه من سور القرآن، ويشتغل بتطريز طاقيته. ذكر مرةً لحمزة أنه يتحسر على أنه لا يستطيع قراءة القرآن كاملاً، فهذا ما يتوجب على المرء فعله في رمضان: قراءة جزء من القرآن كل يوم حتى يختم القرآن كاملاً بنهاية الشهر.

وعادات الأكل كذلك تغيّرت، ليس فقط الجوع والعطش في النهار ولكن أيضًا الحرص على التكافل بين الناس. فكل ما في رمضان يُقصد به الترابط والتراحم بين الناس، ومن إتيان المعروف أن اجتماعهم في إفطار

مشترك عند غروب الشمس، ولهذا فقد دُعي حمزة إلى داخل البيت لتناول طعام أهله بدلاً من أن يهرع إلى أي مقهى للإفطار. ووجبات رمضان دائمًا متميزة لأن من يطهوها يبلغ جهدًا أعظم، مع ما يتسنى له من وقتٍ وتخطيط. والأطباق اللذيذة كذلك مكافأة على صبر النهار. فكان حمزة يفطر مع خليفة في الشرفة كما هي العادة بأكل بضع حبات رطب وقدح قهوة، ثم يدعيان إلى الدخول لتناول الوليمة الصغيرة التي أعدّتها بي عائشة وعافية، وكانتا تجلسان للأكل مع الرجلين. ليست الوليمة بكمية الطعام بل بتنوّع الأكلات، فكانوا يتحدثون عن طيب الطعام ويمتدحون حسن تحضيره وهم يأكلون. حتى بي عائشة كانت ألين جانبًا مما كانت عليه في السابق، فكانت تمازح حمزة حول مهاراته في النجارة وشهرته بسبب إجادته للألمانية. قالت: لن أستغرب إن سمعتُ أنك ستنظم الشعر. قاوم حمزة بصعوبة بالغة في تلك اللحظة النظر إلى عافية، لكن نظرة أو اثنتين أفلتتا منه جعلت بي عائشة تنظر إلى مقصد نظراته، ثم تعيد النظر إلى حمزة الذي غضّ بصره وأشغل نفسه بتناول السمك في طبقه.

بعد انتهائهم من الطعام يجلس حمزة وخليفة في الشرفة، ثم ينضمّ إليهما المعلم عبدالله وتوباسي، وأحيانًا بعض الجيران الذين يجلسون معهم للدردشة. تحفل أمسيات رمضان بالأحاديث والزائرين. وفي شرفات البيوت الأخرى أو على مقاعد المقاهي تقام دوريّات تنافسية، بلعب الورق أو الضومنة أو الكيرم، لكن هذه المسلّيات لا تحدث في شرفة خليفة. فهناك يدور الحديث حول الدسائس السياسية والزلّات الإنسانية والفضائح المنسية. اعتاد حمزة على التجوال في الطرقات المزدحمة بالناس، والتوقف ما بين الحين والآخر لمشاهدة لعبة بين اثنين، أو الاستماع إلى مهازلات أهل الشارع. توقف العازفون عن العزف مع دخول رمضان، وكان يأمل ألا يزيد

ذلك عن الأيام الأولى فقط. ففي كل ليلة في الأسابيع الماضية كانت الفرقة التي صادفها تقيم حفلة قصيرة لجمهورها المخلص الذي أصبح حمزة واحدًا منهم. كانوا يعزفون لأجل الطرب لا غير، فهم لم يسألوا قط مالاً ولم يعرض أحد عليهم مالاً. وكانت المرأة تغني في بعض الليالي، فسمع حمزة الكثير من أغاني الحب، وحرّكه الشوق الناضح منها. تمنّى لو يحضر عافية لتسمع هذه الموسيقى، لكن كيف يفعل هذا أو متى حتى يخبرها عن الفرقة التي يحضر أمسياتها. والآن وقد دخل رمضان ولا إفطار في الصباح في أيامه، فلا حاجة له بأن يقابلها ليأخذ مبلغ الخبز والفطائر. كان حريصًا على ألا ينظر إليها عندما يدخل البيت لتناول طعام العشاء، لكنه يعلم أن بي عائشة التقطت بعض النظرات العابرة بينهما، وهي الآن تراقبه بعين الريبة.

ثم جاءت أول جمعة في رمضان، وفي الوقت نفسه كما حدث في الأسبوع الماضي، تسللت عافية إلى حجرته وقد ترك الباب مواربًا. تعانقا وخلعا ملابسهما ومارسا الجنس بتضوّر آثم، كلاهما يسكت الآخر كيلا يسمع أحد صوتهما.

همست: «هذه المرة الأولى لي».

صمت لحظة ثم همس: «وأنا أيضًا».

قالت: «هل تتوقع أن أصدّق هذا؟».

همس ضاحكًا: «ربما لا فرق بالتجربة»، وقد سرّ أنه لم يخذلها وأنها تحسب أن له خبرة أطول.

قالت فيما بعد وهما مستلقيان على بساطه عاريان: «يجب ألا نفعل هذا في وقت الصيام. الوسيلة الوحيدة كي يكون الأمر صحيحًا أن تعدني أن تكون لي وأعدك بأن أكون لك. أنا أعدك».

قال: «وأنا أعدك كذلك». وضحكا من نشوة الحب وحديثه العابثة.

مدت يدها اليمنى فوق جسده ووضعتها فوق الندبة على فخذه الأيسر. وسارت أصابعها فوقها ثوانٍ، ترسمها وتتحسسها كأنها تود أن تملّس نتوءها القاسية. وحين همّت بالكلام وضع كفّه الأيسر على فمها.

قال: «ليس الآن».

أزاحت بلطف يده. قالت: «لا بأس. فالسر سرّك». لمحت الدموع في عينيه. «ما بالك؟ ماذا جرى لك؟».

قال متوسلاً: «ليس سرًّا. ولكن أرجوك، ليس الآن، ليس في هذه اللحظة. ليس بعد الحب».

هدّأت بالقبلات روعه، وبعد أن سكنت أنفاسه رفعت يدها اليسرى قريبًا من وجهه، ثم حرّكت أصابعها كأنها تحاول أن تقبض الكف دون أن تفلح. قالت: «إنها مكسورة. لا أستطيع إمساك شيء بهذه اليد».

سألها: «ماذا حدث؟».

ابتسمت ولمست وجهه بيدها المعطوبة. قالت: «هذا ما سألتك فاختنقتَ بالدموع. عمي كسرها. لم يكن عمي حقًّا لكني كنت أسكن في بيته في طفولتي. كسرها لأنه يقول لا يجوز لي أن أتعلم الكتابة. قال: ماذا ستكتبين؟ ستكتبين القذارة، ستكتبين لقوّادك».

استلقيا في صمت حتى قطعه حمزة قائلاً: «يؤسفني جدًا أن جرى لك هذا. أخبريني بالمزيد».

قالت: «ضربني بالعصا. اشتد غضبه حين عرف أني تعلّمت الكتابة. علّمني أخي، لكنه اضطر إلى الرحيل فرجعت إلى بيت عمي. وعندما رأى أني أقرأ وأكتب فقد عقله وهشّم عظام يدي، ضرب اليد اليسرى فما زلت

أستطيع الكتابة. لكن هذا يجعل أعمالاً أخرى كتقطيع الخضروات مثلاً عملاً صعبًا».

قال: «أخبريني قصتك منذ البداية».

نهضت وشرعت تلبس ملابسها، فتبعها بالمثل. جلست على كرسي الحلاق وظل هو جالسًا على الأرض مسندًا ظهره إلى الحائط. «سأقول. ولكن بعد أن أخبرك ثم أسألك ماذا جرى لك لن تصدني؟».

قال: «أنت حبيبتي. أعدك».

«سوف أوجز، فيجب أن أساعد بي مكوبوا بالطبخ. قلت لها إني ذاهبة لزيارة إحدى الجارات، وإن تأخرت فسوف ترسل أحدًا إلى هناك ليستدعيني».

أخبرته أن أخاها جاء يبحث عنها عندما كانت في العاشرة وهي لم تعلم أن لها أخًا، وأنها عاشت معه عامًا واحدًا، وعلّمها القراءة والكتابة، ثم قرر الانضمام إلى الجيش. قالت: «أخي إلياس».

سأل حمزة: «وأين هو الآن؟».

«لا أعلم. لم أره ولم يبلغني منه خبر منذ مغادرته إلى المعسكر».

«أليس من الممكن البحث عنه الآن؟».

نظرت إليه مطوّلاً. قالت: «لا أدري. لقد حاولنا». ثم نظرت إلى ندبته وأتبعت: «هل أصبت بهذه في الحرب؟».

قال: «أجل. في الحرب».

***

تلك الليلة بعد الإفطار جلس خليفة في الشرفة كالعادة، ولكن لسبب غير معلوم تأخر صاحباه في الحضور. جلس معه حمزة لتسليته وإن كان يود الانطلاق في جولته، فربما يعود العازفون إلى إقامة حفلهم. تبادلا أطراف الحديث وذكر حمزة عرضًا الفرقة الموسيقية. تبيّن أن خليفة كالمعتاد يعرف عنهم وعن تاريخهم دون أن يتحرك من شرفته. قال باسمًا: «هذه قوة الشائعات والنميمة. الفرقة تتوقف عن العزف في رمضان، يكتفون بالعزف فقط داخل البيت. فالأتقياء هنا لا يقبلون بأي تسلية في الشهر المبارك. يريدوننا جميعًا أن نعاني ونتضور ونفرك جباهنا بسجاد المسجد». بعد صمت طويل، ودون أن ينظر إلى حمزة، قال خليفة: «لقد أعجبتك».

عندما التفت خليفة لينظر إلى حمزة وجده يومئ برأسه مصادقًا.

أشاح خليفة بصره وتحدّث بصوت خافت، حريص على ألا يفهم من كلامه بغضًا. قال: «إنها شابة طيبة. عاشت معنا سنينًا ورعيتها وبي عائشة كأنها ابنتنا. أريد أن أعرف مقاصدك فأنا أتحمل مسؤوليتها».

قال حمزة: «لم أعلم أن بينكما قرابة».

قال خليفة: «لقد قطعت عهدًا لأخيها».

قال حمزة: «إلياس؟».

«أنت تعرف عنه إذًا؟ أجل، إلياس. حطّ رحاله في هذه البلدة مع أخته الصغيرة. حصل على وظيفة في مصنع السيزال لأنه يتحدث الألمانية بطلاقة. وقد أعجبهم ذلك. وتوثقت بيننا صداقة. كان هذا بعد زواجي ببي عائشة وسكننا في هذا البيت. كان إلياس يحضر الصغيرة معه أحيانًا عند زيارتنا. ثم وقعت الحرب فقرر الالتحاق بالجيش، ولا أعلم ما دفعه إلى ذلك. ربما كان يعد نفسه من الألمان، أو ربما أعجبته فكرة أن يخدم في جيشهم. حكى لي عن

اختطافه على يد عسكري من الشنغان إلى بلدة جبلية، وأن ألمانيًا من ملّاك الأراضي حرّره واشتمله برعايته. قال لي مرةً إن ما حدث له مع الشنغاني جعله يفكر بأن الانضمام إلى الشوتزتروبه هدف نبيل. فلما وقعت الحرب لم يستطع مقاومة النداء. لا ندري حتى الآن إن كان حيًّا. مرّت ثمانية أعوام منذ مغادرته ولم يصلنا منه شيئًا. وعدته بأن أرعاها. لا أدري ماذا تعرف عن حياتها».

«أخبرتني عن أقاربها في الريف».

قال خليفة: «كانوا يعاملونها كالجارية. أذكرتْ لك هذا؟ ذاك الرجل الذي كانت تعدّه عمها ضربها بالهراوة وكسر يدها. بعد هذه الفعلة أرسلت لي رسالة - نعم، هذا صحيح. علّمها إلياس القراءة والكتابة، وأوصيتها إن حدثت لها أي مشكلة أن تكتب رسالة موجهة لي وتعطيها صاحب البقالة في القرية. وهذا ما فعلته، الصغيرة الشجاعة. كتبت رسالة وسلّمها صاحب البقالة إلى سائق العربة فأحضرها هذا لي. سافرت إلى القرية وأحضرتها معي هنا وهي تعيش معنا منذ ثمانية أعوام. والآن حان الوقت لتعيش حياتها الخاصة. أتحدثت معها؟».

أجاب حمزة: «نعم».

ردّ خليفة: «هذا يسعدني. لا بد أن تخبرني عن أهلك وأصلك. ما اسم أمك واسم أبيك، وأسماء أجدادك؟ يمكنك أن تخبرني لاحقًا. رأيت منك ما يجعلني مطمئنًا، ولكني قطعت عهدًا لإلياس. أشعر بالمسؤولية. إلياس المسكين، كل ما رأى من حياته هي المشاق والألم، ومع هذا فقد عاش موهمًا نفسه أن لا أذى سيلحق به في هذه الدنيا. والواقع أنه لطالما كان على شفير الانزلاق. لن تجد من هو أكرم ولا أكثر توهمًا من إلياس».

بعد هذا أخذ حمزة ينظر إلى خليفة على أنه حامل أوجاعهم، الرجل الذي يتحمل مسؤولية متاعب الآخرين وأخطائهم: بي عائشة، وإلياس، وعافية، والآن حمزة. أشخاص يهتم بهم وهو يخفي هذا الاهتمام غير المتوقع بحدة الطباع وسلاطة اللسان ومرارة التهكّم.

***

انسلّت عافية إلى غرفة حمزة الجمعة التالية، لكنها أخبرت بي عائشة هذه المرة أنها ذاهبة لزيارة صديقتها جميلة التي انتقلت بعد زواجها إلى الطرف الآخر من البلدة، وهذا يعني أنهما سيقضيان كل ساعات العصر معًا.

قالت له: «أتعجّب من جرأتي. الكذب والتسلل إلى حجرة عشيقي في عصر رمضان، أن يكون لي عشيق أصلاً. لم أتصوّر قط أني قادرة على هذا، لكن لا أعرف كيف أمنع نفسي من المجيء وأنا أعرف أنك تستلقي هنا، على بعد أقدام مني».

مارسا الحب همسًا، ثم بقيا مضطجعين في ظلال العصر صامتين. قال بعد حين: «لا أصدق جمال هذه اللحظة».

مسّت يدها ببطء كل جزء منه كأنها تحفظه، على جبينه وشفتيه، فوق صدره وساقه. قالت: «أفلتت منك صرخة مكتومة قبل قليل. هل آلمتك ساقك؟».

أجاب مبتسمًا: «لا. بل هي النشوة».

صفعت فخذه بخفة ثم دلّكت الندبة كما فعلت من قبل. قالت: أخبرني.

شرع يخبرها عن الأعوام التي قضاها في الحرب. بدأ من مسيرة الصباح إلى

معسكر التدريب، ثم البوما وتدريبات ساحة العرض، والإنهاك والحماس، وقسوة تلك الحياة. حكى لها عن الضابط ودروس الألمانية. تسابقت الكلمات في البداية على لسانه لأنه أراد أن يخبرها بكل شيء. وكانت هي تنصت إليه دون مقاطعة ولا أسئلة، ما خلا شهقة تعجب خافتة من حين إلى آخر. حين أخذ يتحدث عن الضابط هزت رأسها قليلاً وطلبت منه أن يعيد ما قال، فعرف أنها لا تريده أن يتعجل بالحكاية. فأبطأ سيل الكلام وأضاف إليه بعض التفاصيل: عيناه، الحميمية المقلِقة، الألعاب اللغوية التي يحب أن يلعبها. وأخبرها عن الأونباشي والشاويش والفيلدفيبل.

قال حمزة: «الفيلدفيبل، هو من فعل هذا بي في نهاية الحرب، حين أنهكنا القتال وكدنا نفقد عقولنا من حمام الدم والفظائع التي شهدناها كل يوم، عامًا بعد عام. لكنه كان رجلاً قاسيًا، لطالما كان شديد القسوة. ضربني في سورة غضبه بسيفه، ولكن ربما كان يأمل دائمًا أن يؤذيني، لا أعلم ما السبب. أعتقد أن الضابط هو السبب».

سألت: «كيف يكون الضابط هو السبب؟».

تردّد قليلاً ثم قال: «كان الضابط حريصًا جدًا على حمايتي. وكان يريدني بالقرب منه دائمًا. لا أعلم لماذا... لم أفهم دافعه. قال: أنت تعجبني. أعتقد أن بعض الأشخاص... الفيلدفيبل وربما غيره من الضباط الألمان أيضًا... كانوا يرون أن هذا لا يصح، أنه أمر غير لائق... ودّ في غير محله».

سألت بهدوء: «هل لمسك يومًا؟». كانت تريده أن يحكي لها كافة التفاصيل، تريده أن يبوح بما يريد قوله.

«صفعني مرةً، وأحيانًا يلمس ذراعي عندما يخاطبني، لمسة خفيفة، وليس لمسًا كهذا. أعتقد أنهم كانوا يظنون أنه... كان يلمسني. كان الفيلدفيبل يقول

كلامًا من هذا القبيل، اتهامات بشعة ودنيئة. جعلني أشعر بالعار، بوحشيته وهوسه، كأنني اقترفت جرمًا أستحق عليه العقاب».

هزت رأسها في ظلام الحجرة. «لا تستحق ما عشته في هذه الدنيا يا حبي. لا تستأ، اكرهه، تمنَّ له الشر، ابصق عليه».

طال صمته وانتظرت. ثم قالت: «أكمل».

«بعد إصابتي أمر الضابط بنقلي إلى إرساليّة ألمانية، في مكان اسمه كيلمبا. كان المبشر فيها طبيبًا وقد عالجني. إنه مكان بالغ الروعة. قضيت فيه ما يزيد على سنتين، أساعد في أعمال مركز الإرسالية، وأستعيد صحتي، وأقرأ كتب السيدة زوجة المبشر. حتى جاءت الإدارة الطبية البريطانية واستحوذت على المكان، ولم يأتوا بعد انتهاء الحرب مباشرةً، فأخبروا المبشر أن تدريبه الطبي لا يرتقي إلى المتطلبات الرسمية. فهو ليس طبيبًا مؤهلاً. وكانوا يعتزمون تحويل عيادة مركز الإرسالية إلى عيادة ريفية، لكنهم لم يسمحوا للمبشر بإدارتها، فقرّر أن الوقت حان للعودة إلى ألمانيا. والوقت قد حان لمغادرتي أيضًا. كنت أقبل بأي عمل وأتنقل بين المناطق، عملت في مزارع وفي مقاهٍ ومطاعم، أكنس الشوارع، واشتغلت مرةً خادمًا في بيت أحدهم... أيًّا كان العمل الذي أجده أقبل به. كان الأمر شاقًّا أحيانًا بسبب ساقي، وربما كنت أحمّل نفسي فوق طاقتها، لكني عملت في تابورا وموانزا، وكامبالا، ونيروبي، وومومباسا. لم أضع في ذهني وجهة محددة، أو ربما لم أعلم حينئذ ما وجهتي».
ابتسم حمزة. «والآن أنا أعلم».

بعد صمت طويل أمضته عافية في استيعاب كلماته، نهضت وبدأت تلبس ثيابها.

قالت: «لقد تأخر الوقت. أريد أن أسمع كل شيء، أريد أن أعرف المزيد

عن المبشر الطيب وإرساليته وكيف داواك، لكن يجب أن أغادر الآن. سوف تغضب إن تأخرت لأنها أصبحت كثيرة الشك. قالت لي إن أحدهم تقدّم لي، لكن لم يعد الأمر ممكنًا الآن. أنا مرتبطة بك. عندما تأتي للإفطار مغرب اليوم ستكون رائحتك ما زالت متعلقة بي. سوف أشتاق إلى حبك حتى المرة القادمة. تذكرت إلياس وأنا أستمع إليك. إنه أكبر منك. هل أخبرتك أن صوته في الغناء عذب؟ أتخيل ما جرى له في الحرب وما إذا كان بخير في مكان ما، يتحدث مع أحد كما تتحدث معي».

«يمكننا أن نتحقق مما جرى له». ثم تدارك حمزة مسرعًا: «أن نحاول أن نتحقق. لا بد أن السجلات موجودة. والألمان معروفون بدقة سجلاتهم. عندها سوف نعرف ماذا جرى له».

قالت: «ما الذي سنعرفه؟ ربما يكون من الأفضل ألا أعرف على وجه التأكيد، وما حدث لا تبديل له. إن كان بخير في مكان ما فمعرفتي لا تهمه في شيء، إن كان بخير في مكان ما فهو ربما لا يريد أن نعثر عليه. يجب أن أذهب».

12

«حسن الحظ لا يدوم، إن جاء أصلاً». قالها خليفة في ثالث أيام العيد وهما يجلسان خارجًا في الشرفة. «ما هي إلا أشهر قليلة منذ عرفناك ولكن أشعر أنني أعرفك منذ زمن طويل. حتى إنني تعودت عليك. كنت أعلم أن مخلوقًا حيًّا يعيش داخل جسدك شبه الميت. عندما جئتنا أول مرة كدت تسقط ككومة عظام أمامي. والآن انظر إلى حالك. وجدت عملاً يلائمك، بل إنك جعلت بخيلنا المأفون مسرورًا بك، لكن يجب أن تطلب منه زيادة في الأجر وقد أثبتَّ الآن أنك نجار ذو كفاءة. أوه، لا طبعًا! ستكون الحليم الصبور الذي ينتظر الفتات منه!».

ثم أكمل: «لكن استمع لما أقول: حسن الحظ لا يدوم. لا تدري أبدًا كم ستطول اللحظات الجميلة أو إن كانت ستعود إلى حياتك مرة ثانية. الحياة مليئة بالحسرات، فيجب أن تعرف هذه اللحظات الجميلة وتحمد الله عليها وتتصرف بعزم. غامر وخاطر. أنا لست أعمى. كنت أراقب منذ مدة، ورأيت ما رأيت وفهمت، وما رأيته يثير قلقي. كنت أنوي الانتظار حتى تكون مستعدًا للحديث معي، فقد قررت ألا أستعجلك أو أحرجك، وكنت أظن أن لا شيء غير لائق سيحدث خلال هذا الوقت. والآن وقد خرج رمضان وانتهت قدسية الشهر، والآن وقد جاء العيد وبدأ العام الجديد، فالأجدر بك أن تبدي بعض العزم. فإن انتظرت أو سوّفت فقد تفوّت اللحظة أو تنجر في أمر مأسوف. وها أنا أستحثّك للفعل.

«ولا تنس أن لبي عائشة عينين ترى بهما، وعقلاً تفهم به ما يجري، ولسانًا

تتكلم به عما يحدث. وأنت أدرى بلسانها. لا أدري إن كانت تحدّثت مع عافية، ولكن لو أنها فعلت لعلمنا. إن لها أفكارًا تريد أن تنفذها وقد لا تعجبك هذه الأفكار. أنا أعرف أنك تكنّ لعافية مشاعرَ وقد أخبرتني أنت بنفسك عنها. لربما تكون هذه إحدى اللحظات المحورية التي تكلّمت عنها، وأنا حريص ألا تفوّتها. هل كلامي ألغاز أم أنك تفهم ما أقول؟ نعم، أنت تفهم. لا أقصد استعجالك، ولستُ مستعجلاً على ذهاب عافية. سألتك من قبل إن كنتَ فاتحتها بالأمر فقلت إنك فعلت. إن كنتما متفقين فأنا سعيد. وأنا موافق على الفكرة، ولكن يجب أن تخبرني عن أهلك لأتأكد أن الأمور كلها مواتية. لم لا تتكلم عن نفسك؟ إن صمتك يزيد الشك بك، كأنك اقترفت خطأً».

سأل حمزة: «ما يمنعني من الكذب عليك كما نصحتني أن أفعل من قبل؟ ما يمنعني من أن أختلق لك تاريخًا؟». كان يتعمّد استفزازه لأنه يعلم ما نهاية المطاف وواثقًا من النتيجة.

«نعم، أتذكر أنني قلت لك أن تكذب، لكن الأمر في هذه الحالة مختلف. هذا أمر لا يحتمل المزاح، ولا أسألك لتهدئة خاطر أحد أو مسايرة أحد. قد تظن لأني ولي أمر الفتاة أني أتدخل فيما تريد أن تفعله بحياتها. لست أباها ولا أخاها، لكنها تعيش معنا منذ أن كانت طفلة وأنا مسؤول عنها. يجب أن نعرف كل شيء عنك كي تطمئن قلوبنا. لا مكان آخر تعيش فيه، فالأرجح أنك سوف تستمر في السكن هنا معنا. وأنا أود ألا تسكن في مكان آخر، فهذا سبب ثانٍ كي نعرف عنك المزيد. لا ندري من أنت. لا أصدق طبعًا أنك ارتكبت شنيعة قبل أن تأتي إلينا، ولا أحد منا معصوم من الخطأ، لكن يجب أن أسمع منك الحقيقة. انظر إلى عيني وأخبرني. وإن كذبت علي فسأكشفك من نظرة عينيك».

قال حمزة: «ثقتك بقدراتك كبيرة».

ردّ خليفة بحماس متّقد أزال الابتسامة من وجه حمزة: «جرّبني. أخبرني الحقيقة وسأعرف أنها الحقيقة فورًا. سأبدأ. سوف أسألك بضعة أسئلة ولك أن تجيبني كيفما شئت. ذكرت أنك عشت هنا قبل سنوات حين كنت طفلاً. أخبرني كيف حصل هذا».

علّق حمزة ولما يشأ التوقف عن مضايقة خليفة بعد: «هذا ليس سؤالاً».

«لا تثر غضبي. أعلم أن هذا ليس سؤالاً. فليكن، كيف جئت لتعيش في هذه البلدة حين كنت طفلاً؟». من الواضح أن خليفة قد سئم من مراوغات حمزة.

أجاب حمزة: «أعطاني أبي إلى تاجر تسديدًا لديونه. لم أعلم أن هذا ما فعله إلا بعد أن أخذني التاجر معه، فلا أدري كم كان دين أبي، ولا أعرف السبب الذي اضطره إلى إعطائي له. ربما تراكمت الديون وتأخر أبي في دفعها فكان هذا عقاب التاجر له. كان التاجر يعيش في هذه البلدة، أحضرني إلى هنا للعمل في محلّه. لم يكن المحل إلا جزءًا صغيرًا من تجارته الأساسية وهي تجارة القوافل، فلم يكن يتابع شؤون المحل بنفسه. كان له في كل تجارة سهمًا، مثل عامر بياشارا تاجرك القرصان. اصطحبني معه ذات مرة في إحدى رحلاته إلى داخل البلاد، واستمرت الرحلة أشهرًا. كانت تجربة مذهلة. وصلنا حتى البحيرات، وتجاوزنا الجبال في الجانب الآخر».

سأله خليفة: «ما اسمه؟».

قال حمزة: «كنا نسمّيه العم هاشم، لكنه لم يكن عمي قرابةً».

فكّر خليفة برهة ثم أومأ برأسه وقال: «أعرف من تعني، هاشم أبو بكر. إذًا فقد عملت لديه. ماذا حدث لك بعد هذا؟».

«لم أكن أعمل لديه. كنت عبدًا من عبيده لأن أبي لم يسدّد ديونه. هذا ما

أظنه حدث. لم يوضّح لي التاجر أسباب أخذه لي، ولم يكن يدفع لي أجرًا. كان يعاملني كأنني ملك له».

عمّ الصمت وكلاهما غارق في بحر أفكاره، حتى أعاد خليفة السؤال: «وماذا جرى لك بعدها؟».

قال حمزة: «لم أطق تلك المعيشة أكثر من ذلك، ففررت إلى صفوف الجيش».

قال خليفة في ازدراء: «كما فعل إلياس».

«أجل. كما فعل إلياس. زرت بعد الحرب البلدة التي عشت فيها طفلاً مع والديّ، لكن لم أجدهما فيها، ولا يعلم أحد أين ذهبا. وقد أخبرني العم هاشم برحيلهما عن البلدة قبل سنوات من هروبي. لكني أردت التحقق. فقد قضيت أعوامًا أبغضهما، ولم أشأ العودة إليهما لأني كنت أظن أنهما تخلّصا مني ولم يريداني. ثم حاولت بعد الحرب أن أجدهما لكن لم أنجح. فليس لي يا خليفة أهل أحكي لك عنهم. فقدتهم منذ زمن. فقدتهم عندما كنت طفلاً وليس عندي ما أقوله عنهم بما يطمئن رجلاً بالغًا يشعر بالمسؤولية تجاه شخص آخر. تريدني أن أحكي لك حكايتي، ولكن حكايتي ليست كاملة. كل ما أعرفه أجزاء متفرقة، مختلسة، من فجوات ذكرياتي، أجزاء أود لو أسأل أحدًا عنها لو استطعت، مجرد لحظات عبرت بسرعة أو لم تكتمل».

قال خليفة: «قد قلت لي الكثير. لكن ما أعادك إلى هذه البلدة التي ذقت فيها العار؟».

«عار؟ أي عار؟».

«أن تكون عبدًا لإنسان آخر، أن يملك رجل جسدك وروحك. أثمة عار أفظع من هذا؟».

قال حمزة: «لم يملكني التاجر جسدًا وروحًا. لا أحد يستطيع أن يملك إنسانًا جسدًا وروحًا. وقد أيقنت هذا منذ زمن. كان يستخدمني حين لم أملك الحكمة ولا القدرة على الهرب، ولكني حين عزمت هربت من جهلي إلى نار الحرب. لو أني شعرت بالعار فهو من أبي وأمي، لكن لم أشعر بهذا إلا بعد أن كبرت وعرفت ماذا يعني العار. جئت إلى هذه البلدة لأني لا أعرف مكانًا غيرها. جلت البلاد كلها، واشتغلت بأعمال كانت تهلكني ببطء، وفي النهاية وجدت نفسي هنا.

«صادقت هنا شخصًا حين جئت صغيرًا. عندما أتذكر أعوام طفولتي لا أتذكر صديقًا غيره في حياتي، فكان شيء ما يشدني للعودة إلى هنا، المكان الذي كنت فيها تائهًا تعيسًا. كان الفتى عبدًا للتاجر مثلي، ولكني لما بحثت عرفت أن المحل أُقفل ولم أعثر على الفتى. لم أجرؤ على سؤال الناس عن العم هاشم خشية أن ينتقل دين أبي إلي لو عرف بوجودي».

قال خليفة: «خيرًا فعلت. أنا متأكد أنك تدري أن الحيطة واجبة». ثم ابتسم جذلاً كعادته لأنه المبشّر العليم ببواطن الأمور: «أستطيع أن أخبرك بما حدث لتاجرك هاشم أبو بكر. هرب الشاب الذي يدير محلّه بكل النقود التي كان التاجر يخبئها في البيت. وهربت معه زوجة التاجر الشابة، زوجته الثانية. اختفى الاثنان ولم نسمع عنهما خبرًا بعدها. حدث هذا قبيل وقوع الحرب، فمن يدري ما حلّ بهما؟ ضاع رجال كثيرون في الحرب. كانت فضيحة كبيرة في نظر التاجر فباع أملاكه ورحل. آخر ما سمعت عنه أنه استقر في مقديشو أو عدن أو جيبوتي أو مكان آخر في تلك المنطقة. كان آخر تجار القوافل فكانت الطرق مسدودة أمامه على أية حال، لأن الألمان كانوا يحاولون إيقاف تجارة القوافل وإحكام قبضتهم على كل شيء. ما اسم صاحبك الذي كان يعمل لدى هاشم أبو بكر؟».

أجاب حمزة: «اسمه فريدي».

صفع خليفة فخذه جذلاً وقد زادت قصته طبقات وقال: «هو الشاب بعينه! هذا الخبيث الفهيم! هرب بالمال والزوجة. لا بد أن مكره عظيم صاحبك هذا».

«كنت طفلاً حين جلبوني إلى هنا فرعاني كأنني أخوه. لم نعرف أحدًا في هذه البلدة، وكنا نشتغل ليلاً ونهارًا في المحل. كنا نخرج إلى طرقات المدينة أحيانًا لكننا نضل الطريق ولا نعرف مكاننا. فكنا نجول فيها. إن كان قد هرب بالنقود قبيل الحرب فهذا يعني أنه لم ينتظر بعد فراري طويلاً. وتلك الزوجة التي تقول إنها هربت معه هي أخته. وكانت في ملك العم هاشم مثلنا».

تنهد خليفة عندما سمع هذه التفاصيل الجديدة التي ستجعل قصته من دسامتها عصية على التصديق. قال: «إذًا فهذه قصتك. كنتُ هنا أعمل لدى تاجري القرصان، وأنت وصديقك في الطرف الآخر من البلدة تحيكان مؤامرة لقرصان آخر. لا أدري ما الذي يجعلني أبتهج عندما أتخيل صديقك فريدي يهرب، تاركًا التاجر تلوكه ألسنة الناس. كنا نحسب أن الزوجة الشابة هي المدبرة لكل ما جرى. وإلا فكيف عرف أين يخبئ التاجر نقوده؟ وجرأتهما في سرقة كل الأموال... أتدري؟ أتمنى ألا يعثر عليهما أحد لأن سرقة تلك الأموال جريمة شنيعة وإن كان فريدي هذا صديقك».

سأل حمزة: «ماذا جرى للمنزل؟ كان في نهاية طريق الساحل. وله حديقة بديعة. أهذا حقيقي أم أن ذاكرتي تخدعني؟».

«اشتراه رجل أعمال هندي وهدمه ليبني القصر الذي رأيته مكانه. لا يحب الجميع الحدائق. جاء رجل الأعمال مع الإنجليز. ولما أخذ الإنجليز

السلطة من الألمان جاءوا بحلفائهم معهم للتجارة. جلبوهم من الهند وكينيا، فغرز هؤلاء الهنود الجدد أنيابهم في لحمنا بسرعة وثقة، وما زالوا هنا كما ترى. سيطروا على التجارة كلها ويحاولون إقناع الحكومة أنهم مواطنون بريطانيون ويجب أن تكون لهم الحقوق نفسها المكفولة للزونقو [البيض]. فلا يمكن معاملتهم كمعاملة أهل البلد».

***

في اليوم الرابع والأخير من العيد، وأجواء الاحتفال ما زالت حية في الصباح، دفعت عافية باب حجرة حمزة لتقدّم له صينية الإفطار، ومعها رغيف وقدح شاي. ولأنهم ما زالوا يحتفون بالعيد فقد أحضرت له رغيفًا عيديًّا: خبز نقعته بالبيض المخفوق ثم قلته. أخذ الصينية منها ووضعها على الطاولة كي لا يقف بين عناقهما حائل. عندئذ سألها. قال لخليفة إنه سوف يسألها بنفسه، لأنه يود أن يسمع منها رغبتها في الأمر. ردّ خليفة بأن الأمور لا تتم على هذا النحو، فالعرف أن يكلّم حمزة خليفة، فيكلم خليفة بي عائشة، فتفاتح عافية بالموضوع. ثم تأتيه الإجابة بنفس المسار. هذه هي الأصول، وهكذا سوف يتم الأمر حتى لو كلّم حمزة عافية بنفسه، ولكن إن أراد أن يسألها فليفعل.

كان يحتضن عافية حين سألها: «هل تودين أن نتزوج؟».

انسحبت من بين ذراعيه لتنظر إلى وجهه، ربما كي تتأكد أنه لا يمزح. عندما رأت الجدية في عينيه ابتسمت وعانقته بحرارة وقالت: «عيدك مبارك. أود وبشدة».

قال: «لا أملك شيئًا».

قالت: «ولا أنا. لن نملك شيئًا معًا».

قال: «لن نجد مكانًا نسكن فيه، إلا هذه الحجرة التي ليس فيها ناموسية حتى. أرى أن ننتظر حتى أتمكن من استئجار مكان أفضل».

قالت: «لا أريد الانتظار. لم أتصور أنني سوف أحب أحدًا. كنت أظن أن رجلاً لا أعرفه سوف يتقدم لخطبتي وسأكون مضطرة إلى الموافقة. الآن وقد أتيت إليّ فلا أريد أن أنتظر».

قال: «لا مكان للاغتسال. ليس لدي إلا هذا البساط ننام عليه. سوف تعيشين كالخلد في جحره».

ضحكت عافية وقالت: «لا تبالغ. سوف نغتسل ونطبخ طعامنا داخل البيت، ونمارس الحب على الأرض متى شئنا. سوف تكون رحلة نمضي بها معًا، وسوف نجد طريقنا حتى لو تلبدت جلودنا بالعرق. إنها تنتظر اليوم الذي أتزوج فيه منذ سنوات. قالت مرة إن نظراته إلي لا تعجبها. منذ أن أصبحت امرأة. اتهمته أنه يريد أن يتزوجني... بابا خليفة. قالت إن الرجال كالحيوانات. لا يستطيعون كبح شهواتهم».

قال حمزة: «لم أعلم بذلك. قلتِ لي إنك تعيشين هنا في بيتك».

«قلب بي عائشة أسود. إنها تكره شبابي. كانت تريد أن تتخلص مني بتزويجي، ولكن في الوقت نفسه كانت تبغض نظرات أي شاب نحوي. أي نظرة من أحدهم في الشارع تكفي لإطلاق اتهاماتها. تقول إنها تشمئز من نظرات الرجال نحوي. تقول إنني أشجعهم على النظر وأنا لا أفعل هذا أبدًا. تريدني أن أغادر البيت، لكنها تريد أن يتزوجني رجل مسن، فأصبح زوجته الثانية. لا تريدني أن أشعر بأنني شابة وجميلة، بل أن يستحوذ علي رجل من أجل متعته، وأن يمتهنني بشهواته. هذا الغلّ في قلبها هو ما يجعلها

صعبة الطباع. لم تكن تعاملني هكذا حين كنت طفلة. كانت صارمة كما تراها الآن لكنها لم تكن حقودة ولئيمة. أضحت هذه طباعها حين بلغت وأصبحت شابة».

كرّر حمزة: «لم أعلم بهذا. هل خطبك أحد؟».

رفعت كتفها بلا اهتمام. قالت: «مرتان. لم أعرف أيًّا من الخاطبين. أحدهما مدير المقهى الذي في الشارع الرئيس. رآني مرة أمشي أمام المقهى. رآني أمرّ أمام المقهى لسنوات، منذ أن كنت في العاشرة. لكن هذه هي شيم الرجال من أمثاله، لديهم المال الذي يشترون به فتاة يلهون بها بضعة أشهر. يرون الفتاة تمشي في الشارع فيسألون عنها ثم يطلبون يدها، لأنهم قادرون. هذا ما قاله بابا خليفة».

«لكنكِ رفضت».

«أنا رفضت، وبابا خليفة رفض. قالت إنه رفض لأنه يريد أن يحتفظ بي لنفسه. عندها اعترفتْ بما يجول في خاطرها لأول مرة. ظلّت أيامًا تتهمه بهذا. وعندما أحضرك إلى البيت في ذلك اليوم، عندما أدخلك بيننا إلى البيت، أحسست أنه كان يريدني أن أراك. لا أدري إن كان يعي ما فعله أو يتعمّده، ربما ارتاح إليك فحسب. لكني رأيتك، وكلما أراك أشعر بالشوق إليك. لم أكن أعلم أن هذا سيكون حالي. لهذا لا أريد الانتظار. وهذه الحجرة ليست جحرًا نختبئ فيه».

«هل كلّمتك بشأننا؟ قال خليفة إنه لا يدري إن كانت قد أخبرتك أم لا».

«قالت قبل يومين: لا تجلبي العار إلى هذا البيت، لكن هذه ليست المرة الأولى التي تقول فيها كلمات من هذا القبيل». ابتسمت عافية له. «فات الأوان الآن».

أبلغ حمزة خليفة أنهما سوف يسكنان في حجرته الحالية، فرفض خليفة رفضًا قاطعًا. لم يجرؤ حمزة على ذكر ما تعانيه عافية أمام الرجل، ولكن بعد تلعثم وتردد يائس ذكر اسم بي عائشة. هز خليفة رأسه قاطعًا سبل الإقناع وقال: «سوف تعيش معها ومعنا داخل البيت. لن أقبل أن تعيشا هنا كالمتشردين. سوف ترتاح أكثر في الداخل. هذه الحجرة ملائمة لأعزب مثلك اعتاد الترحال والنوم حيثما وجد مكانًا، لكنها لا تليق بابنتنا».

قال حمزة: «سوف نستأجر مكانًا نعيش فيه. ربما يكون من المستحسن التريث حتى أجمع مالاً كافيًا لمكان أفضل».

سأله خليفة: «ولم الانتظار؟ تستطيع الانتقال إلى البيت بعد الزواج، ومتى ما أصبحت قادرًا على استئجار مكان آخر تستطيع الانتقال إليه».

قال حمزة: «سوف أفكر بالأمر». وما زال متهيّبًا السكن داخل هذا البيت، والتعرض باستمرار لنكد بي عائشة.

تزوج حمزة بعافية بعد أربعة عشر يومًا. كان زواجًا هادئًا، حتى إن التاجر ناصر بياشارا والعاملين في ورشة الأخشاب لم يعرفوا عنه إلا بعد حدوثه. دعا خليفة الإمام وأصحاب البرازا لوليمة العشاء، ودعت بي عائشة جاراتها. استأجروا طبّاخًا لإعداد البرياني، فأقام عدته في الفناء الخلفي. اجتمعت النسوة في حجرة نوم خليفة وبي عائشة، وقد قُلب السرير على جانبه ودفع ملاصقًا الحائط، أما الرجال فجلسوا في حجرة الضيوف. طلب الإمام من حمزة بوجود الحاضرين أن يخطب عافية. وكانت العادة في هذه الجلسة المعقودة بحضور الشهود أن يصرّح بالمهر الذي ينوي الخاطب تقديمه، وأن تبدي العروس أو وليها موافقتها عليه. وقد ناقش الطرفان هذه التفاصيل جميعها قبل عقد القران ولكن وجب توكيدها أمام الشهود. لم يملك حمزة شيئًا يدفعه مهرًا لعافية. وحين قال ذلك لخليفة أجاب أن لعافية

وحدها أن تقرر ما إذا كانت ستقبل الزواج دون مهر. ولأن عافية رفضت حتى مناقشة الأمر - «لن نملك شيئًا معًا» - فقد تجاهل الإمام هذه الجزئية من مراسم العقد. سأل حمزة ما إذا كانت عافية تقبل به زوجًا، ووافق خليفة بصفته وليها. استقبلت ضيفات عافية وبي عائشة في الحجرة الأخرى الخبر بالزغاريد. وقُدّم طعام الوليمة وانتهت مراسم الزفاف.

لم يقبل خليفة بأي خيار إلا أن يعيشا معهما داخل البيت. أصر على الأمر إصرارًا لا لين فيه، ولم تكترث عافية كثيرًا، قالت لحمزة: لم لا نجرب؟ وإن شقّ علينا الأمر سكنًا في الحجرة الأمامية. فنقل حمزة حاجياته القليلة إلى غرفة عافية: حقيبته الصغيرة التي يحفظ بها نسخته من تقويم ربّات الفصول لعام 1798م التي تركها له الأوبرلويتنانت، وكتاب آخر من تأليف هاينرش هاينه بعنوان «في تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا»، أعطته إياه السيدة زوجة المبشر هديةً قبل مغادرتها، وبساطه وملابسه.مكتبة سُر مَن قرأ

كانت حجرة عافية أكبر وأكثر راحةً من حجرته، إضافةً إلى قربها من الحمام. لها ستائر تغطي النافذة والباب، وغالبًا ما تتركها عافية مفتوحة حتى موعد النوم. كان رأس السرير ملاصقًا لأحد الجدران مع ترك مساحة صغيرة من الجانبين كي يصلا إليه، وفوقه إطار مستطيل خشبي معلّق من السقف ثبتت عليه الناموسية. في الجدار الآخر وقفت خزانة قديمة متداعية، ألواحها الخشبية رقيقة، فلما رآها حمزة أول مرة وعدها أن يصنع لهما خزانة جديدة في الورشة. هذا هو مهرها. وبداخل الخزانة علبة صغيرة مقفلة، مطلية بالأخضر والأحمر في خطوط متعاكسة. فتحت عافية العلبة وعرضت عليه كنوزها: الكراسات التي استعملها أخوها في تعليمها القراءة، السجل رخامي الغلاف الذي أعطاها بابا إياه، إسورة ذهبية اشتراها إلياس لها في عيد ذاك العام الوحيد الذي قضياه معًا، وقد أصبحت ضيقة الآن على

معصمها، بطاقة بريدية تحمل صورة الجبال المطلة على البلدة حيث عمل إلياس في مزرعة الألماني ودرس في المدرسة، وقصاصة قصيدة شيلر التي ترجمها حمزة لها.

ينفتح باب حجرة عافية على الفناء الخلفي، وفيه تطبخ النساء الطعام، وتأكل الأسرة وتغتسل، وتقضي النساء ساعات طويلة من اليوم فيه. كان مكانًا مخصصًا لأهل البيت وحدهم، ولا يدخله الرجال الأجانب. وإن كان حمزة لم يعد غريبًا الآن فإنه لا يشعر أنه أحد أفراد الأسرة. وقد زاد قلقه بعد أن عرف عن قسوة بي عائشة ومرارة طباعها، ولا يدري كيف ستقابل وجوده في الفناء. كان يسلّم عليها كلما صادفها فترد بإيماءة أو بصوت مكتوم دون أن تنظر إليه، ولم يخاطبا بعضهما قط. كان يشعر بامتعاضها لوجوده، فينكمش على ذاته متكدّرًا كارهًا نفسه. لم يرغب في العيش في هذا البيت. كان يدخل الحمام فور استيقاظه من النوم، ثم يشرب الشاي مع خليفة في الفناء، وكان خليفة هو من أصر على ذلك، ويغادران البيت معًا إلى العمل. وعندما يرجع في الظهر يكون الفناء خاليًا، فيتجه حمزة إلى حجرتهما فورًا حيث تنتظره عافية. وفي المساء تحضر بي عائشة وعافية العشاء في الفناء، وأحيانًا تستقبلان الزائرات فيه، فكان يحرص على الخروج من الحجرة كيلا يتحرجن من الحديث كيفما شئن. كان يرى أن حسن الأدب يتطلب فعل كل ما سبق. لكن بعد مرور أيام من الخروج والدخول بخلسة وتوتر قالت له عافية أن يكف عن إبعاد نفسه عنهم.

قالت: «أوسِجِتابيشي. لا تتعب نفسك. هو من طلب منك أن تعيش هنا، فتجاهلها وسوف تعتاد على وجودك».

قال: «إنها لا تريد أن أعيش هنا. بلاء، أتتذكرين؟ تظن إني سأجلب إلى البيت البلاء».

ردّت عافية: «هذا ما قالته بحدة لسانها، لكنها ليست قاسية إلى هذه الدرجة».

لم ينقص قلقه من بي عائشة متعته بالحميمية التي يجدها وعافية عندما يختليان ببعضهما. أنجاه حظه خلال أعوام الحرب وهداه إليها، والأرض ما زالت تدور، لا توقفها الفوضى ولا الضياع.

ومع هذا فإن سكنه في الفناء الخلفي كان أمرًا لا يخلو من الإحراج. فإن تكلّم كلامًا عابرًا مع بي عائشة يشعر أنها تعض على لسانها كيلا تفلت منها كلمة ترديه بها. وإن تكلمت بحدةٍ مع خليفة تجاهلها كأنها لم تقل شيئًا. حتى عندما تتكلم عن شؤون المنزل، مثل سعر السمك أو جودة السبانخ في السوق، يجد في صوتها مرارة وسخطًا. كان يشك في قدرته على احتمال هذه المنغصات مدة أطول.

قال له التاجر ناصر بياشارا: «لم أراك مكتئبًا؟ أبلغتني زوجتي أنك تزوجت قبل بضعة أيام، ولم تدع أيًا منا لحضور الزواج. ألا يجب أن تكون مفرط السعادة الآن؟ أم أنك لا تأخذ كفايتك من النوم؟ ها ها ها. أنا أعرف عافية، أو بالأحرى كنت أعرفها عندما كانت طفلة. تقول زوجتي إنها أصبحت الآن شابة طيبة ولطيفة. مبارك لك. أبواب الرزق تنفتح لك من كل مكان. تستحق كل خير. انظر إلى حالك الآن. وظيفة جيدة وزوجة طيبة تساعدك على مشاق الحياة، والفضل يعود لي. لا أريد امتنانك، فقد اجتهدت في العمل، لكن الخير في حياتك بدأ مني. أتذكر عندما رأيتك أول مرة، قلت في نفسي: لم لا أمنح هذا الشاب التعيس فرصة؟ يبدو من مظهره أنه سيخيب ظني ولكن ربما إن أعطيته فرصة سيفاجئني. أخبرتك أن لي فراسة لا تخطئ. لقد توسمت خيرًا رغم رثاثتك وتثاقلك. وانظر إلى حالك الآن. أما زلت تعيش في تلك الحجرة؟ آمل أنك انتقلت وعروسك إلى مكان

لائق... أتسكنان مع هذين الساخطين المتبرمين؟! هذه بداية سيئة لحياتك الزوجية. ماذا تقصد بقولك إنك لا تستطيع دفع أجرة بيت مستقل؟ ماذا تقصد؟ أتريد أن تستأجر قصرًا فيه حمام بخار وحديقة مسوّرة وشرفة عالية؟ تريد أن أزيد أجرك؟! أنا أدفع لك ما تستحقه. أنا لا أجد أموالي في الشارع. هل ستصبح طماعًا الآن وقد أصبحت لك زوجة؟ هل دفعك خليفة إلى أن تطلب هذا الطلب؟».

عندما عرف إمزاي سليماني بخبر زواج حمزة، قال له: «اطلب من البخيل زيادة أجرك. هذا أقل ما يكافئ به عملك الشاق هنا منذ رحيل مهدي السكران. الحمد لله، أدعوه أن يرزقك الذرية الصالحة. أتستطيع قول ذلك بالألمانية؟».

«Mögest du mit vielen Kindern gesegnet sein».

ضحك إمزاي سليماني كعادته كلما ترجم حمزة كلامه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أربعة

13

كانت تلك سنوات رخية من حياة حمزة مقارنةً بالأعوام التي انصرمت. وتخفّفت أيامه من قلاقل العيش مع بي عائشة وخليفة مع مرور الأسابيع والشهور، أو ربما ألفوا هذه الحياة، واستطاعوا تجنب الاصطدام ببعضهم دون أن تظهر طباعهم النقيضة، ودون أن يرى نظرات الاتهام في عيني بي عائشة أو يسمعه في نبرات صوتها. تعلّم حمزة أن يتجنبها بوسائل شتى حتى إنه لم يكن يراها إلا لمحة عندما يرجع من العمل ظهرًا، وإن لم يكن صوتها بعيدًا عنه أينما كان. كانت عافية أول من يستيقظ في البيت، يليها حمزة الذي لا يستطيع النوم بعمق بعد ظهور النور. فتعدّ الشاي بينما يغتسل، ثم يخرج من البيت قبل أن يخرج خليفة وبي عائشة من حجرتهما.

كان ناصر بياشارا دائمًا أول الواصلين إلى الباحة في الصباح. عندما يدخل حمزة يسلمان على بعضهما ويعطيه التاجر مفتاح الورشة دون أن يطلبه، وأحيانًا دون أن يرفع بصره عن سجلاته العزيزة. وبعد حضور إمزاي سليماني يجتمع الثلاثة لمناقشة جدول أعمال اليوم، وأحيانًا كان ناصر بياشارا ينضم إليهما في الورشة، فيضفي لمساته الأخيرة على الأوعية أو الخزائن أو يحكم على جودة تصميم جديد. كان يعتزم البدء في صنع أرائك محشّوة ويبحث عن منجدٍ خبير لإتمامها، لكنه حتى يجده أخذ يجرّب صنع الأرائك الخشبية. أضحى الطلب على الأثاث في زيادة مستمرة. وقد توسّع التاجر في أعمال النقل البحري كذلك مخالفًا توقعات خليفة، وقد كان الاستثمار في شراء مروحة دافعة خيارًا حصيفًا أثبت نجاحه وجلب زبائن كثر لا يمكن

تلبية طلباتهم بمركب واحد، فابتاع التاجر سفينة أكبر ذات محرك. كان ناصر بياشارا يسميها باخرته. ازدهرت تجارة التاجر حتى أنه صمّم لافتة نقش كلماتها ودهنها بيديه، وجعل سنغورا يعلّقها على باب الباحة: بياشارا للأثاث والتجارة العامة.

قال: «أعتقد أن علينا أن نوسّع الورشة ونشتري معدات جديدة». نظر إلى إمزاي سليماني أولاً فلم يبدِ هذا تغيرًا في تعابير وجهه، ثم إلى حمزة الذي أومأ رأسه مؤيّدًا. «هذه الباحة واسعة. نستطيع أن نبني ورشة جديدة في هذه الناحية، مجهزة بمعدات حديثة لنكسب العقود الحكومية، مثل صنع الطاولات المدرسية وأثاث المكاتب وغيرها. سوف نبقي الورشة القديمة لصنع أثاث المنازل وغرف النوم. ما رأيكما؟».

أخذ التاجر يستفيض في الحديث عن خططه للورشة الجديدة في الأسابيع التالية، وكلما تكلّم عنها كان حمزة هو المخاطب وحده، فاستنتج أنه يعدّه لإدارتها. أعلنت حكومة الانتداب البريطاني خطتها لبناء المدارس ومحو الأمية، فكان هذا دافع ناصر بياشارا للظفر بالعقود الحكومية. وعزمت الحكومة كذلك على التوسع في أنشطة الزراعة والأعمال الحضرية والرعاية الصحية. كأنهم يرمون في ذلك إلى أن يُرُوا الألمان كيف تدار شؤون المستعمرات. وكل هذه الإدارات والمشاريع في حاجة إلى مكاتب، والمكاتب تحتاج إلى طاولات وكراسي. كلما تكلّم ناصر بياشارا - الذي يفضل الآن أن يسمى رجل الأعمال وليس التاجر - عن المشروع الجديد يومئ حمزة رأسه بتأييد متحفظ. وهو يعلم أنه سيطلب عاجلاً أم آجلاً زيادة أجره، ولكنه قرر أن يصبر في الوقت الحالي.

اعتاد حمزة العودة متأخرًا إلى البيت ظهرًا ليدع خليفة وبي عائشة يتناولان الغداء أولاً. فيصل بعد فراغهما ودخولهما إلى حجرتهما لأخذ القيلولة الإجبارية. كان يفضل الغداء الخفيف، بعض الأرز والسبانخ وأي فاكهة

حان موسمها. أو فطيرة براثا مع قطعة صغيرة من السمك والزبادي، ثم يعود إلى العمل في الورشة. وفي العصر بعد أن يرجع يغتسل ويستلقي ليرتاح نحو ساعة، وإن كانت عافية في البيت تلحق به إلى حجرتها فيتحدثان ويحكيان ما جرى في يومهما. كانت عافية في الغالب خارج البيت عصرًا: إما في بيت صديقتها جميلة التي أصبحت أمًّا الآن، أو خالدة زوجة ناصر بياشارا، أو في زيارة من الزيارات الإجبارية التي تملأ يوم المرأة: بيوت العزاء، أو حفلات الخطوبة أو الزفاف، أو عيادة مريضة أو نفساء.

في المساء يجول حمزة في شوارع البلدة، ويقابل الأشخاص الذين تعرّف عليهم وصادقهم، وكان أحدهم عازفًا في الفرقة التي يحضر حفلاتها متى استطاع، اسمه آبو، وكان نجارًا مثل حمزة وأكبر منه ببضع سنوات. كانا يلتقيان بعد صلاة المغرب في مقهى مجاور لجسر الجدول، ويدردشان مع رواده الذين يفسحون لهما للجلوس. ولأن حمزة لا يتكلم كثيرًا، لا سيما في حضرة محبي الكلام، فقد كان حضوره مرحّبًا به دومًا. كانت أحاديثهم تتسم بالخفة والجرأة حد الخلاعة، وقد رآهم يتنافسون أيهم يتخطّى الحدود لجلب ضحكات المجتمعين. كان يضحك أحيانًا من فكاهتهم الدنيئة حتى يؤلمه جانباه، ولكنه يعلم عندما ينفض المجلس أن لا شيء ذا أهمية قيل فيه، وأنه أضاع وقته في الترهات المبهجة. وفي بعض الأمسيات كان آبو يدخل حمزة معه حجرة التدريبات ليجلس مع الموسيقيين ساعة وهم يعزفون.

بعدئذ يرجع إلى البيت - لم يستطع حتى الآن أن يسمي المكان بيته - ويجلس مع خليفة والمعلم عبدالله وتوباسي، وهم يتفكرون بأحوال الدنيا ويقلّبون أخبارها ويحلّلون آخر الشائعات والأقاويل. بدأت الحكومة في تلك السنوات بنشر مجلة شهرية سواحلية اسمها (Mambo Leo) لتثقيف الذين يستطيعون القراءة حول شؤون العالم والمنزل، والتوعية بالممارسات الزراعية السليمة، والنظافة الصحية، بل حتى أخبار الرياضة. كان خليفة

يشتري نسخة، ثم يعطيها حين يفرغ منها إلى حمزة وعافية. أما المعلم عبدالله فكان يحضر إلى البرازا ومعه نسخته، ويحدّث صاحبيه عن أي خبر استرعى انتباهه، ويتناوله بالتمحيص والتفسير لكشف الحقيقة فيه. وأحيانًا كان يأتي بنسخة قديمة من صحيفة (East African Standard) صحيفة المستوطنين الصادرة من نيروبي التي يستعيرها له استعارةً مطوّلةً صديقه الذي يعمل في مكتب ضابط المقاطعة. يجد الحكماء الثلاثة متعة فائقة في مناقشة بعض الأخبار الواردة في صحيفة نيروبي، وعلى رأسها المناظرات المحمومة بين المستوطنين الذين يرغبون في تهجير كل الأفارقة من كينيا وجعلها بلدًا للرجل الأبيض، وأولئك الذين يريدون تهجير كل الهنود واستيطان الأوروبيين فقط شريطة استبقاء الأفارقة للعمل والخدمة، مع تخصيص مستوطنة للرعاة والمزارعين لتوفير متعة المشاهدة. إن هذه الأفكار ومنافحيها لا يمكن من شدة غرابتها إلا أن تأتي من كوكب آخر.

أخذ حمزة صينية القهوة من عافية وقدّمها لهم، ثم ذهب إلى المسجد لصلاة العشاء. ودّعه خليفة كعادته: في أمان الله يا مولانا. عندما يرجع حمزة إلى البيت يتجه رأسًا إلى حجرته ثم تلحق به عافية، فيبدأ أجمل جزء من يومهما. يظلان يتحدثان ساعات طويلة ويقرآن الصحف القديمة ويتعرفان عن كثب على مجريات حياتهما، ويفكران معًا بالمستقبل ويمارسان الحب.

***

استيقظت عافية ذات ليلة فزعة. التفتت إلى حمزة النائم إلى جوارها وقبضت عضده وهمست تهدئ روعه: «حمزة... هشش، هششش ... استيقظ».

كان وجهه مبتلًا وجسده يسبح في عرقه. أفاق والنحيب ما زال يصدر من حنجرته. استلقيا في الظلام ساكتين وعافية ما زالت تقبض عضده.

قالت: «كنت تبكي. أرأيته مرة أخرى؟».

قال: «هو، نعم. أحيانًا هو وأحيانًا الضابط. أو المبشر. دائمًا هم. لكن المفزع ليس الشخص الذي يظهر، إنما الإحساس الذي يسببه ظهوره».

«صف الإحساس؟ أخبرني».

«إحساس بالخطر، بالرعب. كأن خطرًا عظيمًا سيطبق علي ولا مفر منه أبدًا. والصخب والصرخات والدماء».

عاد السكون يخيم عليهما في الظلام مدة أطول هذه المرة. بعدئذ سألته: «هل تحلم دائمًا بالحرب؟».

قال: «دائمًا. قبلها، في صغري، كانت الكوابيس تراودني كثيرًا. حيوانات تلتهمني وأنا جاثم على الأرض مشلول الحركة. لكني لم أكن أشعر بالخطر حينها، بل بالهزيمة، أو التعذيب. كوابيسي الآن ترعبني. كأن ما يلاحقني سوف يسحقني بألم عظيم أو يجعلني أعاني ثم أختنق بدمائي. أشعر بها تكتم حلقي. هذا هو الإحساس الذي أخشاه، وليس الأشخاص. ومع هذا فإني أراه أحيانًا، الفيلدفيبل. لا أفهم لماذا يرافق هذا الإحساس صورة المبشر. لا أفهم ما علاقته بالأمر. هو من عالجني. عشت في مركز إرساليته عامين».

قالت: «حدّثني عنه أكثر. حدّثني عن سقائف التبغ وأشجار الفاكهة والكتب التي أعارتك إياها السيدة زوجة المبشر لتقرأها».

شعرت بابتسامته في ظلام الحجرة. «إذًا فقد كنت تصغين بانتباه. ظننت أنك نمت وأنا احكي عن زوجة المبشر. كان المبشر رجلاً بالغ الحرص والتدقيق، وأعتقد أن سقائف التبغ كانت هواية يستمتع بها كثيرًا. فهو فيها المتحكم والآمر الناهي. كان يود أن يكون على صواب دائمًا، وهذه صفة عجز عن التخلص منها. كان من الواضح أنه يجبر نفسه على الاستماع إلى

الآخرين، ويذكّر نفسه بأن يعاملهم بلطف. حتى إنه يجعل المرء يتساءل لم اختار سلك التبشير. أعتقد أنها مَن علّمته الأناة والتسامح حين تظهر سليقته الصارمة المتشدّدة. كانت ذات قلب محب، كريمة ورحيمة. لن أنساها ما حييت. كانت تعيرني كتبًا، هذا صحيح. وأعطتني عنوانهم في ألمانيا. طلبت أن أرسل لهم أخباري من حين إلى آخر. كتبت العنوان في إحدى صفحات كتاب هاينه الذي أخبرتك عنه».

قالت: «ربما ستكتب لها رسالة يومًا. ربما ستنسى تلك الأعوام التعيسة يومًا حتى إن لم تنسَ السيدة. أتصوّر أحيانًا عندما أكون خارج المنزل أني سأرجع إليه فأكتشف أنك رحلت، أنك تركتني واختفيت دون أن تقول ولو كلمة. لا أعتقد أنني أفهم شخصيتك تمامًا حتى الآن، ولهذا تفزعني فكرة فقدانك يومًا. فقدت أبي وأمي قبل أن أعرفهما. ولا أعتقد أنني أتذكرهما. ثم فقدت أخي إلياس الذي عرفت السعادة معه في طفولتي. لن أحتمل فقدك أنت أيضًا».

قال حمزة: «لن أتركك أبدًا. فقدتُ والدي في طفولتي، مثلك. وخسرت معيشتي وكدت أفقد حياتي لأنني كنت منقادًا في رغبة عمياء إلى الهرب. لم أذق طعم الحياة حتى جئت إلى هنا وعرفتك. لن أتركك أبدًا».

قالت: «عدني»، ثم بدأت بملاطفته.

***

بعد خمسة أشهر من زفافهما أجهضت عافية حملها الأول. أخبرت حمزة عندما لم تحض للشهر الثاني على التوالي، لكنها أمرته ألا يخبر أحدًا بالأمر. سألها: مَن سأخبر؟ لكنهما لم يستطيعا منع نفسيهما من التبسم طوال الوقت والانجراف في خيالات حول «القادم»، وأخذا يتحدثان عن الحياة التي

تتكون في أحشائها، ويفكران بجنس الجنين ويضعان أسماء له. انتظرت مرور تسعة أيام من الشهر الثالث قبل أن تؤكّد الأمر لحمزة.

قالت: «إنه ولد».

وقال: «كلا، إنها بنت».

في عصر اليوم التالي، أي اليوم العاشر من الشهر الثالث منذ انقطاع حيضها، تكلّمت معها بي عائشة. في البداية نظرت متمعّنة إلى بطنها ثم حدقت في عينيها طويلاً.

سألتها: «أخبرٌ مقبل؟».

ردّت عافية: «أظن ذلك». تفاجأت أنها عرفت وهما حريصان على التكتّم على الحمل.

سألت بي عائشة: «في أي شهر؟».

«الثالث». حرصت عافية على إظهار التردد في إجابتها خشية أن يثير يقينها احتقار بي عائشة.

قالت وفي صوتها مسحة من فرح: «وأخيرًا حملتِ. لكن ... غالبًا ما تجهض النساء الحمل الأول».

بينما عافية تنشر الغسيل في الفناء في اليوم الذي يليه أحسّت برطوبة تنساب على فخذها. سارعت إلى حجرتها فرأت أن ملابسها الداخلية مبتلة بدمٍ قانٍ. كانت بي عائشة معها في الفناء حين حدث ذلك فلحقت بها إلى الحجرة وساعدتها على خلع ثيابها. جلبت ملاءات قديمة ففرشتها على الأرض وجعلت عافية تتمدد عليها.

قالت: «ربما لن تفقدي الجنين، فالملابس ليست مشبعة بالدم. ارتاحي ولننتظر ونرى».

استمر تدفق الدم بقية ساعات الصباح، ملطّخًا الملاءات التي استلقت عليها عافية. كانت تحرص على الاستلقاء بثبات تام، وإن كانت في داخلها قد أذعنت للخسارة. وعندما رجع حمزة للغداء ظهرًا حاولت بي عائشة أن تمنعه من دخول الحجرة. قالت إن هذه الأمور للنساء فقط، لكنه أزاح يدها التي سدّت بها الباب ودخل للجلوس مع زوجته.

قالت عافية وهي تنشج: «فرحنا قبل أن يتم الفرح. لا أدري كيف عرفتْ. قالت لي إني سأفقده. أصابتني بالنحس».

قال: «كلا، هذا نصيبنا. لا عليك منها».

توقف أسوأ النزيف مع شروق شمس الصباح التالي وإن لم ينقطع تمامًا. وبعد ثلاثة أيام لم يكن للدم أي أثر، لكن عافية فقدت نشاطها وصحتها، واغتمّت وإن كانت تقاوم حزنها. طلبت منها بي عائشة أن ترتاح، لكنها رفضت وقامت من الفراش وأدّت ما استطاعت تأديته من مهام المنزل. وبطريقة ما ذاع خبر إجهاضها كما تشيع هذه الأخبار دائمًا بين الناس، فجاءت صاحبتاها جميلة وسعدة لزيارتها، وبعثت إليها خالدة - التي لا تزورها أبدًا بسبب عداوة بي عائشة لزوجها - كلمات تواسيها مع إحدى النساء، وطلبت ألا تتردد في السؤال إن احتاجت إلى أي مساعدة. تولّت بي عائشة رعايتها بتسلّطٍ، فكانت تعدّ لها حساء الذرة المطبوخة بحريرها، وغيرها من أكلات تصر على أنها مفيدة لصحة عافية، مثل الكبدة المقلية والسمك المطهو بالبخار، مع الجيلاتين بالحليب والفاكهة المطبوخة. كأن بي عائشة التي عرفتها عافية في طفولتها عادت، صحيح أن صوتها ما زال قاسيًا لكن لمساتها حنونة.

استمر رضا بي عائشة مدة نقاهتها. بعد ثلاثة أسابيع توقفت الوجبات الخاصة ورجعت الحدة إلى صوتها. جعل الإجهاض عافية تشعر بأنها أقرب

إلى حمزة. فقد كان شديد الرقة معها طوال الأيام التي تلته، يحتضنها في كل حين حتى في نومهما، يده دائمًا على كتفها أو فخذها. كان لا يكلمها إلا بصوت خافت كأن النبرات العالية تؤذيها. لكن بعد أيامٍ من استمرار معاملتها على هذا النحو، وإحجامه عن مسّها طوال هذه المدة، دنت عافية منه وهمست في أذنه أن لا حاجة إلى الحرص البالغ في معاملتها بعد الآن. فقال إنه يخشى أنها ما زالت تتألم، لكن سرعان ما أثبتت له أنها بكامل عافيتها. ومن العجيب أن فقدان الحمل جعلها أكثر انطلاقًا من قيود المنزل، وأشعرها أنها امرأة بالغة، تكاد تكون أمًّا. أخذت تخرج إلى السوق كل صباح، وتقرر ما تود إعداده لغداء أهل البيت دون استشارة بي عائشة. فكانت تبتاع ما يبدو عليه النضج وتتضح فيه الجودة، وما تشتهيه نفسها دون الخروج عن المألوف، كالموز المخضرة قشرته، أو اليام أو الكسافا المنزوعة من التربة حديثًا، أو اليقطين الطازج اللامع بشمعه. وزاد عجبها حين لم تعارض بي عائشة، بل اكتفت بالتوبيخ والسخرية من حين إلى آخر إن رأت أنها دفعت أكثر مما يستحق الغرض أو إن أخفقت في طهو الطبق. من أين أحضرت هذه البامية؟ إنها متعفنة.. ونحو ذلك.

تقضي عافية العصر في زيارة جميلة وسعدة اللتين بدأتا تعملان في خياطة الفساتين من المنزل، فتجلس معهما وتكلفانها بمهام يسيرة لا تحتاج إلى مهارة: كخياطة الأزرار أو قياس قِطع الدانتيل والشرائط وقصّها، لأن النساء يهوين إضافة هذه الزينة إلى فساتينهن. وبمرور الوقت كلّفتاها بمهام أشد تعقيدًا، فتعلمت شيئًا فشيئًا كيف تقيس فستانًا تود صاحبته أن تستنسخه، وكيف تقص من القماش دون إفراط، وكيف تختار الدانتيل والشرائط والأزرار من محل الهندي بائع لوازم الخياطة الذي تأخذها صاحبتاها للتبضع منه. لا تطلب الأختان إلا أجرًا زهيدًا مقابل عملهما لأن جميع الزبونات إما من القريبات أو الجارات. لكن دافعهما هو شغل ساعات الفراغ بعد إتمام مهام

المنزل وليس كسب بعض المال فحسب، فرحتان بممارسة مهارة تشغلهما وتخفّف وطأة حياة الانغلاق المفروضة عليهما.

حملت عافية مرة أخرى بعد مرور بضعة أشهر، وقد أتمت أزيد من العام بقليل على زواجها. أخبرت حمزة بعد الشهر الثاني من انقطاع الحيض، وتريّثا بصبر تمام الشهر الثالث قبل أن ينطلقا في الحديث عن «القادم»، بينهما فقط دون أن يخبرا أحدًا.

وفي تلك الشهور نفسها بدأت آلام بي عائشة، وكل الناس يعانون من أوجاع وأمراض يشفون منها، ولكن آلامها هذه المرة كانت مختلفة. كانتا تطبخان الغداء، فنهضت بي عائشة من الكرسي لإحضار مروحة لأن الحر أزعجها، فأحست بطعنات ألم مبرح في أسفل ظهرها. بلغ من شدة الألم ومباغتته أن انهارت على الكرسي ثانية وأفلتت من فمها صرخة.

«بي مكوبوا!» هتفت عافية وهرعت إليها مادةً ذراعيها. تشبّثت بي عائشة بالذراعين الممدودتين وهي تئن بضعف لا يليق بها. ركعت عافية إلى جوارها، قابضة كفها المرتعشة وهي تهمس: بي مكوبوا، بي مكوبوا. بعد دقائق من اللهاث الصامت أطلقت بي عائشة تنهيدة من أعماق صدرها، ثم مدّت ظهرها لتجرّب إن كان الألم ما زال موجودًا. ساعدتها عافية على الوقوف ومشت بضع خطوات في الفناء دون أن ينتابها أي مكروه.

قالت بي عائشة: «رباه! كأن أحدًا قصم ظهري نصفين». دلّكت جانبيها فوق الحوض ثم أتبعت: «أحضري لي بساطًا. سوف أستلقي هنا على الأرض دقائق. لا بد أنه تشنج في عضلاتي».

وفي ذلك المساء سألت بي عائشة عافية أن تدلّك ظهرها كما كانت تفعل دائمًا منذ أن كانت طفلة. فتمددت على بساط في حجرتها وجلست عافية بجانبها على ركبتيها تدلكها من كتفيها حتى وركيها. صدرت من بي عائشة

أنّات رضا وقالت في النهاية إنها تشعر بتحسّن كبير. لكن الألم لم يختفِ. كانت تشتكي كل يوم من آلام في جانبي جسدها، وإن باغتتها دون توقع لا تستطع أن تكتم صرخة وجع. وتدهورت صحتها مع مرور الأيام. تبدأ أوجاعها بمجرد قيامها من السرير وتظل معها معظم اليوم، ثم ترجع إليها في ساعات الليل وهي تحاول أن تريح جسدها.

قال خليفة: «يجب أن تذهبي إلى المستشفى للفحص. لا يمكن أن تستمري في التوجّع والشكوى دون أن تفعلي شيئًا».

قالت: «لا.. أي مستشفى؟ إنهم لا يعالجون النساء هناك».

جاء رد خليفة وإن لم يكن يود تصديق مدى تألمها: «أي هراء هذا! أنا أقصد مستشفى الحكومة. إنهم يعالجون النساء هناك منذ أيام الألمان».

قالت: «الحوامل فقط».

«هذا ليس صحيحًا الآن، إن كان صحيحًا حتى في ذلك الوقت. الحكومة تريدنا بأفضل صحة لنكدح بالعمل. هذا ما هو مكتوب في (Mambo Leo)».

قالت: «كف عن تخريفك أيها المجنون. أتظن أنك مضحك؟ اتركني وشأني».

اقترح خليفة أمرًا آخر: «ما رأيك إذًا بالطبيب الهندي؟ نستطيع أن نحضره إلى هنا. إنه لا يمانع بالقيام بزيارات منزلية».

«إنه مضيعة للمال. سوف يأخذ مالي ويسقيني ماءً ملونًا ويقول لي هذا دواء».

ابتسم خليفة وقال يشاكسها: «لا، لا... أنت خائفة من الحقنة. تعرفين أنه يحقن كل مريض يراه مهما كانت حالته. بعض الناس أدمنوا الحقنة حتى

إنهم لا يعطونه مالاً إلا إذا وخزهم بالإبرة. سوف نحضره ليفحصك. حقنة واحدة منه وستكونين بخير».

كان من الواضح في تلك الأيام أن مصدر أوجاع بي عائشة ليس ظهرها، إنما شيء داخل جسمها، في منطقة ليست عظمية تقع فوق وركها. زاد اضطجاعها على البساط في الفناء الخلفي لساعات، تغمض عينيها وتتأوّه لاإراديًا من حين إلى حين. كانت تعابير وجهها كالحة واجمة، ومصدر تعاستها هي جسدها. حاولت عافية المبادرة بتولي المهام التي عادةً ما تتولاها بي عائشة قبل أن تنفذها. تقول لها: بي مكوبوا، دعيني أفعل هذا عنك، إن رأت بي عائشة تمسك بالمكنسة في الفناء أو تجمع الثياب والمفارش للغسيل، لكن كبرياءها يجعلها دائمًا تدفعها عنها وهي تقول: أنا لست عاجزة.

فقدت شهيتها وبدأ وزنها ينقص. لا تحتمل إلا ملعقة أو اثنتين من الأرز أو الكسافا، تصاب بعدها بالغثيان ولا تستطيع البلع. كانت عافية تحضر لها حساء العظام وتهرس بعض الفواكه بالزبادي، ثم تجلس معها وهي تأكل تحسبًا لحاجتها إلى أي مساعدة. وفي النهاية زال عن بي عائشة كبرياؤها وأجبرها الألم على التزام فراشها، يكاد الهذيان يذهب عقلها والأنين لا يفارق صوتها. توسّل إليها خليفة أن تذهب إلى المستشفى أو أن تقبل على الأقل إحضار الطبيب الهندي إلى البيت، لكن بي عائشة رفضت قائلة إنها ليست في حاجة إلى هذا الاهتمام. لا تريد رجالاً غرباء يلمسونها بتلك الأداة التي يضعونها حول أعناقهم، ثم يوجهونها إلى قلبك لامتصاص دمك. لكنها طلبت استشارة المعلم، الحكيم.

قال خليفة: «ما ظنك أنه فاعل بك؟ يدعو لك فتشفين؟ أنت امرأة جاهلة». ثم التفت إلى عافية راجيًا أن تعينه في إقناعها. «أنت لست مهمة كي يأتي الحكيم بنفسه إليك. إنه لا يزور إلا الأعيان وسكّان القصور. دعواته ليس رخيصة. أنت تشكين من علة في جسدك، فيجب أن تذهبي

إلى الطبيب».

اقترحت عافية: «لِمَ لا نطلب من الطبيب أن يأتي إلى هنا؟ إنه يزور المرضى في منازلهم أحيانًا. هذا ما سمعته». لم تقل أنها تعلم عن زيارات الطبيب من خالدة التي جاء إلى بيتهم حين أصيب ابنها باليرقان، خشية أن ذكر خالدة يجعل بي عائشة تتعنت أكثر وتتمسك بموقفها الرافض.

ابتسمت بي عائشة بتهكم: «كي يطلب منا أموالاً إضافية مقابل هرائه. اذهبي إلى بيت الحكيم واشرحي له أوجاعي. اطلبي منه النصيحة».

قصدت عافية بيت الحكيم كما أُمرت. كان يسكن بالقرب من مسجد ملاصق لمقبرة قديمة. حظر الألمان استعمال المقبرة قبل سنوات منعًا لتفشي التلوث والأمراض، ولم يمنعهم من تنفيذ تهديداتهم بنبش القبور إلا نشوب الحرب. لم تصدر السلطة البريطانية تهديدًا مماثلاً لكنها أمرت باستمرار حظر الدفن فيها، وأمرت كذلك باقتلاع الأشجار والنباتات من أرض المقبرة لمنع انتشار الملاريا.

أُدخلت عافية إلى حجرة في الطابق السفلي قريبة من الباب الأمامي. كانت في ذلك الوقت في شهرها السادس، فتقرفصت حتى استقرت في جلسة مريحة في انتظار حضور الحكيم. كانت الأرض مغطاة بحصائر ثخينة، وثمة مقرأ يستقر فوقه مصحف، وبجانبه مبخرة لا جمر فيها، ومع هذا تنبعث منها رائحة العود. كانت النافذة ذات القضبان مشرعة المصراعين، ينفذ نور خافت من بين أغصان شجرة النيم في الخارج، وهي الناجية الوحيدة من حملة تطهير المقبرة المجاورة.

كان الحكيم رجلاً مسنًّا متعبّدًا له حضور طاغٍ وتقدير. كان يلبس ثوبًا بنيًّا بلا كمين، وطاقية بيضاء مطبقة على رأسه. لم يسبق أن تكلّمت معه عافية قط، فكانت في رهبة من وقاره. لم يبتسم ولم يشر إليها بالكلام، بل اتجه في

صمت إلى مكانه أمام المقرأ وأنصت دون كلمة لعافية وهي تصف حالة بي عائشة. لما سكتت عافية سأل عن سن بي عائشة وصحتها العامة. كان صوته عميقًا ليّنًا كمن اعتاد على الخطبة أمام الجماعات. أخبرها بعدئذ أن ترجع عصرًا لتأخذ شيئًا سوف يحضّره ليخفف من علة المريضة.

عندما رجعت إلى بيته في العصر أعطاها طبقًا صغيرًا من خزف، ذهبي الحواف، كتبت عليه آيات من القرآن بحبر بني داكن. أوضح لها أن الحبر مستخلص من بذرة الجوز التي تحوي خواص دوائية. وأعطاها كذلك تميمة. أمرها أن تصب مقدار فنجان قهوة من الماء، بترويةٍ وحرص، على الطبق حتى تختلط به آيات الرحمن. نهاها عن تحريك الماء أو إضافة شيء إليه، وبعد أن تختفي الكتابة تقدّم الطبق إلى المريضة لتشربه. أما التميمة فتعلّقها في كاحلها الأيمن. وطلب من عافية إرجاع الطبق إليه صباحًا ليعدّ لها جرعة ثانية تأخذها في العصر. تسلّمت عافية الغرضين بيديها وسلّمته صرة صغيرة من نقود أعطاها إياها خليفة أجرًا للحكيم، فأخذها الشيخ دون عدّها. استمر هذا العلاج أسابيع دون أن يخفف من آلام بي عائشة.

ومع مرور الأيام، عرفت الجارات والقريبات عن مرض بي عائشة فأتين لعيادتها. كانت تستقبلهن في حجرة الضيوف لأنها لا تريد أن يحسبن مرضها شديدًا، لكن لم تستطع الاستمرار في هذا، وسمحت لهن أخيرًا بالدخول والجلوس قرب فراشها. وهنّ من أقنعنها أن تفحصها المغانغا التي تعيش بالجوار. ردّت بي عائشة: زرتها من قبل ولم تفدني بشيء. لكن زائراتها أصررن: لا، ليست هذه من نعنيها، فلانة هي من يثني الناس عليها. هي من تعرف الأدوية والعلاج.

حضرت المغانغا إلى البيت وأقفلت عليها وعلى بي عائشة باب الحجرة لحظات طويلة، تفحصها وتستفسر منها عن أمور شتى. طلبت بي عائشة أن تبقى عافية معهما. كانت المغانغا امرأة شديدة النحول، في منتصف العمر

دون تحديد، عيناها كحيلتان حادتا النظرة، في حركاتها دقة وسلطة. لم تكف عن الحديث وهي تفحص بي عائشة، بل إنها أحيانًا تجيب عن بعض الأسئلة التي تطرحها عليها. أعطت عافية بعد فحصها بعض الأعشاب، وأمرتها أن تنقعها في ماء دافئ وتسقيها بي عائشة قبل النوم. قالت المداوية إن المنقوع سوف يساعدها على النوم. كانت المغانغا تزورهم كل يوم بعد ذلك لدهن ما يؤلم المريضة بالمراهم والمروخ، فتتأوه بي عائشة برضا وتقول إن حالها أفضل. جعلت بي عائشة تستلقي على ظهرها فوق الأرض وغطّت كامل جسدها لدقائق بقماش أزرق من البفتة الثقيلة. ثم جعلتها تستلقي على جنبها الأيسر وأخذت تدلك جسدها من الرأس حتى أصابع القدمين. وأعادت الكرة في جانبها الأيمن، وكانت تقرأ عليها أدعية وتنشد كلمات لم تفهمها عافية. كررت المداوية هذه الطقوس أربعة أيام، ثم أوصت عافية بما يجب أن تتناوله بي عائشة، حتى لو لم تحتمل من الأكل إلا لقمة أو اثنتين كل يوم. ومع هذا لم يبارح الألم بي عائشة، فأسرّت المغانغا لعافية أن ربما تلبّسها أحد أهل الأرض، وأن علتها ليست في جسدها، فربما يكون شفاؤها على يد شيخ.

قالت المغانغا: «أخبرتها بنصيحتي. قلت لها إن الشيخ وحده سيعرف ما مراد الجني قبل أن يحررها منه. لكنها هزّت رأسها، كأنها أعلم بما يصلح لها. لكن بدون الشيخ كيف ستعرف ما يريده ما بداخلها؟ يجب أن تعلمي كيف تجعلينه ينطق».

لم تخبر عافية خليفة بأمر هذه النصيحة لأنها تعلم أنه سيسخر منها، لكنها أخبرت حمزة الذي اكتفى بالإنصات صامتًا. اشتد عجز بي عائشة في تلك الأيام حتى اضطرت إلى استعمال المبولة، وعندها لاحظت عافية الدم المختلط ببولها. ولأن في المبولة قطعًا صغيرة من براز فلم تعرف عافية في البداية من أين جاء هذا الدم، حتى رأت في مرة تالية المبولة وفيها بول فقط وكتل دموية متناهية الصغر.

قالت وهي تريها المبولة: «بي مكوبوا! هذا دم... دم داكن».

أشاحت بي عائشة وجهها نحو الحائط، وكان جليًا أن الأمر لم يفاجئها.

قالت عافية: «بي مكوبوا، يجب أن تذهبي إلى المستشفى».

هزّت بي عائشة رأسها وهي مشيحة وجهها، ثم أخذ جسدها يرتعد. أخبرت عافية خليفة فذهب فورًا ودون تردد لإحضار الطبيب الهندي، لكنه عرف أن الطبيب أُستدعي لفحص مريض آخر ولن يستطيع الحضور إليهم إلا في الصباح التالي. كان الطبيب خمسينيًّا قصيرًا مكتنزًا، أشيب الشعر لطيف الخصال، يرتدي قميصًا أبيض وبنطالاً خاكيًّا كموظفي الحكومة. طلب من خليفة أن يخرج من الحجرة ومن عافية أن تبقى. طرح في البداية أسئلةً فإن أجابته بي عائشة نظر إلى عافية لتأكيد كلامها. كانت بي عائشة قد سلّمت استسلامًا تامًا، تجيب عن أسئلته بصوت مكسور دون إحجام. متى لاحظت الدم في بولها أول مرة؟ ماذا أكلت في إفطارها وغدائها؟ أتستطيع إبقاء الطعام في جوفها دون أن تتقيأ؟ أي موضع من جسدها أشد إيلامًا؟ هل تعرف إن كان أحد أقاربها اشتكى من آلام مشابهة في الماضي، أمها أو أبوها؟ ثم فحص المواضع التي تؤلمها في جانبها. أبلغ بعد فراغه خليفة وعافية أنه كان يظن وجود الدم في البول مؤشرًا لوجود البلهارسيا في المثانة، لكن الأرجح بعد الفحص أنها مصابة بفشل كلوي. وقد يكون هذا الفشل الكلوي ناتج عن بلهارسيا لم تُعالج، فيجب أن تنقل إلى المستشفى لمعالجتها. ومن الممكن أن تكون الحالة أسوأ من هذا، فقد شعر بوجود كتلة في جانبها قد تشكّل خطرًا. ما كان يجدر بهم الانتظار حتى الآن لفحصها.

تبيّن من الأشعة السينية في المستشفى وجود ورم كبير في كلية بي عائشة اليسرى وآخر أصغر حجمًا في مثانتها. واكتشفوا بالفحص إصابتها بدودة البلهارسيا أيضًا، ولكن الطبيب واثق أن الأورام خبيثة وكبيرة. أخبرهم

الطبيب الهندي أن المستشفى طلب منها الرجوع لعمل صور أخرى بالأشعة السينية تحسبًا لوجود أورام أخرى، لكنه قال إن القرار بيدها. لا علاج متاح لهذه الأورام التي اكتشفوها لكنه وصف لها علاجًا للبلهارسيا. قال لخليفة إن أمامها بضعة أشهر لا أكثر، وإن كل ما بوسعه لمساعدتها هو إعطاؤها حقن مسكنة للآلام. رأى خليفة أن من حقها أن تعلم لتستعد. أخبرها أن الطبيب عرض حقنها بالمسكنات إن أرادت، ولم يستطع أن يكتم ابتسامة واهية وهو يقول هذا. الدكتور سندانو، هذا هو اسمه. تساءل خليفة - وإن لم يصرّح بالفكرة أمام بي عائشة واكتفى بمشاركتها مع عافية فقط - إن كان وقت الصلح بين زوجته وابن خالها ناصر بياشارا قد حان، وإن لم يكن الوغد يستحق ذلك. لا يصح أن يرحل المرء والشحناء في قلبه. لم يقل هذا لبي عائشة لأن الخبر الذي تلقته أعظم من أن تحتمله الآن. لم يظن قط أنها سترحل قبله، هي القوية دائمًا.

زارت عافية خالدة زوجة ناصر بياشارا لإبلاغها عن مرض بي عائشة. كانت في شهرها الأخير، ثقيلة الخطوات، والسلم في بيت بياشارا يرهقها. قالت لها عافية: «طلب مني بابا أن أخبرك بذلك»، تأكيدًا على أن المعلومة تحمل دعوة مبطنة من رب البيت لزيارة قريبتهم المحتضرة.

زارت خالدة بيتهم لأول مرة عصر اليوم نفسه. جلست على كرسي بجانب سرير بي عائشة وقبّلت يدها، وحادثتها بما يحادث الناس المرضى في هذه الظروف. كان صلحًا سلسًا لم تحوّله بي عائشة أو خالدة إلى لقاء درامي. بقيت خالدة ساعةً معها ثم تمنت لها الشفاء العاجل وغادرت. تنفست بي عائشة الصعداء بعد مغادرتها، كأن همًّا عظيمًا زاح عن عاتقها. لم يبق من عنفوانها السابق شيء وهي تحاول التشبث بأطراف الحياة بينهم في أواخر أيامها، ما بين الهذيان والصحو تغمغم بكلمات غير مفهومة، والدموع تنهمر من عينيها.

14

ولدت عافية طفلها في البيت، برعاية قابلة ولّدت عشرات الأطفال في البلدة. وقد فضّلت عافية أن تضع المولود بحضور نساء تعرفهن على أن تعاني وحدها مع غرباء لا تفهمهم، فقررت ألا تذهب إلى عيادة التوليد الجديدة رغم حملة السلطة للتوعية بالصحة أثناء الولادة. أرسلت في طلب القابلة فور سيلان ماء الجنين، وفي طلب جميلة التي وعدت أن تكون إلى جانبها مدة الولادة. بدأ مخاضها في آخر ساعات العصر، واستمر طوال الليل حتى قبيل الظهر من اليوم التالي. أُرسل حمزة للبقاء في الحجرة المخصصة لاستقبال الضيوف، وقد لجأ إليها خليفة أيضًا قبله. لم يغمض لأحد جفن في ذلك الوقت العصيب. تركوا الأبواب مفتوحة ليسمعوا بي عائشة إن نادتهم، وكان خليفة يلبي نداءها في كل حين ويخفف عنها كلما أنّت تعبًا. كان الباب المفضي إلى الفناء الخارجي مفتوحًا كذلك، فاختلط أنين المحتضرة بتأوّهات عافية المتقطعة. جلس حمزة قرب الفناء الخارجي مدةً، ليكون أقرب إلى مد يد العون إن احتجن إليه، ولأنه سئم إحساس العجز بالجلوس في الحجرة البعيدة. لكن لما خرجت القابلة ورأته هناك طردته. قالت إن الولادة ستستغرق الليل كله، ومن العيب أن ينتظر الزوج قرب الباب. لم يفهم أين العيب في ذلك، لكنه أطاعها وعاد إلى حجرة الضيوف.

جاءت جارة في الصباح لترعى بي عائشة أثناء خروج خليفة للعمل، وأقنعت النسوة حمزة بالخروج معه. لا فائدة من بقائه هنا وسوف يستدعينه إن استجد أي أمر. انصرف حمزة مترددًا بضغط من النساء، وكان في داخله

يود أن يكون قريبًا من عافية وهي في غمرة أوجاعها، وأن يكون موجودًا حين يصل «القادم». لم يستدعه أحد طوال الصباح ولم يستطع التركيز في أشغاله. ظهر خليفة على عتبة باب الورشة قبيل صلاة الظهر، يسرد أسباب رغبته في العودة إلى البيت، فقرر مرافقته. جارتهم التي جاءت لتعتني ببي عائشة هي التي أبلغتهما أن عافية أنجبت ولدًا. دخل حمزة الحجرة فوجدها على الفراش، مشاعر الإنهاك والانتصار على محياها، وجميلة واقفة تبتسم بجوارها بينما القابلة تنجز بصمت ما بقي من أشغالها.

قالت جميلة: «كنا ننهي التنظيف قبل أن نرسل في طلبك».

سمّيا الولد إلياس. وقد اختارا الاسم قبل وصوله؛ إلياس إن كان ولدًا ورقية إن كانت بنتًا.

بعد الولادة دخلت بي عائشة في حالة نعاس عميق، لا هي التي تنام مغمضة الجفنين ولا هي المستيقظة. لم تكن تتناول أي طعام، ولا تفيق حين يقلبها خليفة - أو الجارة إن كانت ترعاها - لتغيير المنشفة الملفوفة حول وسطها كالحفاظة. كان تنفسها عميقًا متقطّعًا، لكنها كفت عن الأنين المتعب الذي كان يصدر عنها في الأيام السابقة. في اليوم الثالث من الولادة أعدّت جميلة غداء أهل البيت ثم رجعت إلى أسرتها، وقالت إنها ستأتي صباح اليوم التالي. لكن عافية كانت قد تركت فراش النفاس ورجعت إلى أداء مهامها المنزلية أثناء نوم الرضيع. وفي سويعات العصر الأخيرة من ذلك اليوم، توفيت بي عائشة في صمت لم يعهد منها، ولم تكن قد أفاقت مرةً منذ وصول المولود.

انشغلوا في الأيام اللاحقة بالجنازة والعزاء، ولما انقضت هذه الواجبات رأى أهل البيت شكله الجديد بعد رحيل بي عائشة. كان خليفة يخرج إلى الناس متجهمًا كما يليق بأرمل فقد زوجته احترامًا لذكرى بي عائشة، حتى في

البيت تجده قليل الكلام، وإن كانوا يعلمون منذ أشهر أنها راحلة.

قال: «حتمية الرحيل، هذا ما فاجئني، ما لم أفهمه تمامًا هو أن هذا الشخص سيرحل بلا عودة». نظر إلى حمزة فلم يستطع منع نفسه من مشاكسته: «إلا إذا كنت تصدق الخرافة التي تقول إن الأموات سيرجعون يومًا إلى الحياة؟».

قالت عافية: «كفاك يا بابا. ليس الآن».

قال: «على أية حال، يجب أن نغير قليلاً من وضع البيت. لا يمكن أن تعيشا أنتما الاثنان مع الصغير في حجرة خلفية في الفناء وأنا أعيش كالملك داخل بيت خالٍ. فهذا ما أقترحه الآن: انتقلا إلى الداخل وخذا الحجرتين الملاصقتين، وسوف أنتقل إلى الفناء. أنتما في حاجة إلى المساحة الإضافية، وأنا لا أمانع في استنشاق الهواء العليل. ما رأيكما؟ سوف نشتري أثاثًا جديدًا للحجرة الأخرى لتكون مجلسكما ومكان استقبال ضيوفكما، ولكي يلعب الأمير الصغير فيها ويستقبل ضيوفه».

اقترحت عافية هدم الجدار الفاصل بين البيت والحجرة الأمامية، لتكون ضمن حجرات المنزل، ويستطيعون بذلك إبقاء حجرة الضيوف لاستقبال الزائرين أو إن بات عندهم أحد. ومن سيأتي للمبيت عندنا؟ لم ينطق أحد بالإجابة، لكنهما أدركا أنها تقصد عودة إلياس الكبير. ناقشا الخيارات المقترحة دقائق قبل أن يستقرا على أحدها، وكان حمزة يذكرهما أن البيت ليس بيتهم، وأن عليهم مناقشة الأمر مع ناصر بياشارا قبل هدم أي جدران. قال: البيت الآن ملك لناصر بياشارا بلا منازع، ولو أراد لأخرجنا منه. صرف خليفة الفكرة بتلويحة من يده، وقال: لن يجرؤ.

فقد خليفة شيئًا ما في نفسه، مع ما كان يبديه من روح عمليةٍ متعقّلة. كان يذهب إلى عمله في المستودع صباحًا ويشكو من ضياع وقته كل يوم. يجلس مع أصحابه في الشرفة كل مساء ويتكلم بغضب عن أحوال البلاد، وإن كان

غضبه أقل مما كان، بل إنه يزجر توباسي إن شطح خياله في نقل خبر أحد من الناس، وقد كان في السابق يزيد ويستزيد مبتهجًا. أفصح لعافية وحمزة عن رغبته في تغيير نمط حياته، أن يفعل ما يفيد لا أن يجلس على كرسي أمام باب المستودع بقية حياته. قال: الحكومة تفتتح كل حين مدارس جديدة، ربما أصير مدرسًا.

وناصر بياشارا كذلك كانت له خطط جديدة. كانت أعمال إنشاء الورشة الجديدة على قدم وساق، والآلات الجديدة في طريقها إليهم. قال لحمزة: «سوف يستغرق إعداد الورشة بضعة شهور، وعندما تكتمل أود أن تديرها. عندما تصل الآلات سوف أطلب من مختص من دار السلام أن يأتي ويدرّبك. أما إمزاي سليماني فسيبقى في الورشة الأخرى لصنع القطع المعتادة. لكننا في حاجة إلى نجار جديد يعمل معه على صنع الأرائك والكراس... ربما سيفو الصغير جاهز لذلك، ما رأيك؟ وما رأيك بصاحبك آبو؟ أليس نجارًا؟ أظنه يصنع قطعًا متفرقة للناس حسب الطلب حاليًا. اسأله إن كان يريد وظيفة ثابتة في ورشتنا. وسوف تحتاج أيضًا إلى مساعد يعينك، شخص حسن التدريب، أو أكثر من مساعد إن زادت الطلبات. ربما تكون هذه وظيفة أنسب لسيفو. إنه شاب وسوف يتعلم بسرعة».

قال حمزة: «سوف يعمل آبو معي، وسوف يتعلم بسرعة مثلي. أما سيفو فهو يعين الآن إمزاي سليماني في الورشة ويعرف ما المطلوب منه فيها».

قال ناصر بياشارا: «كما تشاء».

سأله حمزة: «وستزيد أجري؟».

«سوف أزيد أجرك. في الحقيقة سوف أضاعف أجرك الحالي فور بدء عملك في الورشة الجديدة. جد لنفسك مكانًا تستأجره وابتعد عن ذلك البيت التعيس».

«وماذا عن خليفة؟».

قال ناصر بياشارا: «فليبحث عن مكان يستأجره هو أيضًا».

«أتحاول إخراجه من المنزل؟».

قال: «أتمنى هذا. فالمبلغ الذي سأحصل عليه عند تأجيره ليس بخسًا».

أجاب حمزة: «أجّره لي إذًا».

ضحك ناصر بياشارا متفاجئًا. قال: «أنت مغفل عاطفي. ما شأنك بذاك المتذمر العجوز؟».

قال حمزة: «إنه والد عافية».

قال ناصر بياشارا: «سأفكر في الأمر. ما الذي يجعلك تظن أنك قادر على دفع أجرة البيت؟».

«أنت رجل أعمال ذكي. لا تريد طبعًا أن تجعل مدير ورشتك الجديدة تعيسًا وتحت وطأة أجرة تفوق قدرته».

قال ناصر بياشارا: «أها! أراك تعلّمت الخباثة والمكر. أولاً تتحايل على ذاك المتذمر العجوز حتى يسكنك بيته، ثم تغوي ابنته، وتخدع النجار المسن بترجماتك الألمانية، والآن تريد ابتزازي. قلت لك، سوف أفكر بالموضوع».

***

تمت أعمال بناء الورشة الجديدة بسرعة. وكان ناصر بياشارا سعيدًا بخططه الجديدة قدر سعادته بوصول المروحة الدافعة قبل بضع سنوات. قال: ستكون هذه الورشة فكرة أخرى ناجحة، ولم يسخر منه أحد حتى خليفة. تابع إمزاي سليماني العمل بلا اهتمام كبير، وصرف جهده إلى تدريب

التلميذ اليافع ليتولى مهام حمزة بعد أن ينتقل من ورشته. وصلت الآلات اللامعة وأُوصلت بالكهرباء، فحضر فنّي نجار من دار السلام ليدرّب حمزة وآبو. كان والده مستورد هذا النوع من الآلات وموزّعها، ويملك منشرة وشركة نقل. استعرض تفاصيل تشغيلها لحمزة وآبو على مدى ثلاثة أيام، وكان ناصر بياشارا يحوم حولهم. وبعد انقضاء الأيام الثلاثة وتشغيل الآلة مرات متكررة لتجربة المناشير والمبارد والحفافات، غادر الفني الهندي بوعد الحضور متى دعت الحاجة أو في نهاية العام لفحص الآلة، أيهما أولاً. أوصاهما بعدم التعجل في العمل بالآلة والمخاطرة بها. عزم ناصر بياشارا أن تكون هذه بداية شراكة جديدة، وأن تكون المنشرة مورد الأخشاب للورشة الجديدة، فأغرق الشاب بعبارات الشكر والثناء.

مرّت الأعوام رغدة في حياة عافية وحمزة. كان طفلهما سليم الجسد، وقد تعلّم المشي والكلام. أخذه حمزة حين كان رضيعًا إلى المستشفى لتلقي اللقاحات الموصى بها، وكان حريصًا على سلامته وصحته. كانت نسبة الوفيات بين المواليد عالية، وكثير من الأمراض التي تهلكهم يمكن علاجها، وهو خير من يعرف هذا وقد رأى الرعاية الصحية الممتازة التي توليها الشوتزتروبه لعساكرها. في العام الذي ولد فيه إلياس كان الانتداب العسكري البريطاني من عصبة الأمم لحكم شرق إفريقيا الألمانية البائدة وتمهيد الطريق للشعب لنيل الاستقلال في أولى مراحله. لم يدرك الجميع في ذلك الوقت أن اشتراط نيل الاستقلال في اتفاقيات الانتداب كان بداية النهاية للإمبراطوريات الأوروبية التي لم تحلم أي منها في ذلك الحين بتهيئة أحد للاستقلال. وقد أولت الحكومة الاستعمارية البريطانية مسؤولية الانتداب اهتمامًا بالغًا، ولم تكتفِ بتسيير أمور الدولة كما كانت، أو تنحدر بها إلى أحوال أسوأ. ربما يرجع السبب إلى تسلسل حكام يحترمون ما عُهد إليهم من مسؤولية، أو إلى خضوع الشعب المنهك بعد أعوام من حكم الألمان وحروبهم، ثم المجاعات

والأوبئة التي تلتها، فأضحوا الآن راغبين في الانقياد دون عصيان طالما أن السلام سائد بينهم. فلم يخش الحكام البريطانيون من حروب العصابات ولا الخارجين عن القانون في هذه المنطقة، وباشروا أعمال الحكم الاستعماري دون مقاومة من المستعمَر. وأصبح التعليم والصحة على رأس أولوياتهم، وحشدوا الجهود لتثقيف الناس حول الموضوعات الصحية، وتدريب مساعدي الأطباء، وافتتاح صيدليات في أقصى مناطق المستعمرة. كانت السلطة تنشر المعلومات والمنشورات، وتوجه الفرق الطبية بالتجوال بين المدن والقرى لتعليم الناس كيف يقون أنفسهم من الملاريا وكيف يعتنون بالأطفال. وقد أصغى حمزة وعافية إلى هذه المعلومات الجديدة وفعلوا ما بوسعهم لحماية نفسيهما وطفلهما.

وأدخلت الأسرة تعديلات جديدة على المنزل، بعد طلب الإذن من ناصر بياشارا. فجعلوا بابًا في جدار الحجرة الأمامية ووصلوها بحجرة نوم الزوجين، فصارت كبيرة ينعشها هواء النوافذ المطلّة على الشارع. ولما كبر إلياس وبدأ يمشي كان ملعبه الحجرتين والفناء، وحتى حجرة خليفة لم تكن بمنأى عنه. وكان خليفة يحب أن يدخل عليه بخطواته المترددة ثم يتسلق السرير ليجلس إلى جواره.

ومما كان يحزن حمزة وعافية عدم قدرتهما على إنجاب أخ أو أخت لإلياس. وقد حبلت عافية مرتين في السنوات الخمسة التالية، لكنها أجهضت في الشهر الثالث في كليهما. سلّما أمرهما وقررا الرضا بالقضاء، لا سيما أن حياتهما سعيدة لا ينقصها شيء، أو هذا ما كان حمزة يقوله لعافية كلما أصابها الهم من إجهاضها. أما الأمر الآخر الذي ينغص عيشهم فهو الجهل المستمر حول مصير إلياس الكبير. لم يعرفوا خبرًا عنه، ولم يصلهم خبر عنه. مرّت ستة أعوام منذ نهاية الحرب، وما زالت عافية تشعر بالتياع وكرب لأنها لم تستطع أن تقرر ما إذا كان من الواجب أن تفقد أمل عودته وتبكي عليه أم تعدّه

حيًّا وفي طريقه إلى موطنه. ألم تفقده عشرة أعوام قبل ذلك وظهر في حياتها كالمعجزة؟

ما زال حمزة مصرًّا: «كل ما في حياتنا خير». وقد أصابت الورشة الجديدة نجاحًا، ونالت الأسرة نصيبًا من كرم ناصر بياشارا بعد ازدهار تجارته. قال حمزة: «سوف أطلب من المعلم عبدالله أن يسأل عنه مرة أخرى».

أصبح المعلم عبدالله الآن مدير مدرسة كبيرة وله صلات وعلاقات جيدة مع مكتب الحكومة البريطانية من خلال صديقه الذي يعمل في مكتب ضابط المقاطعة. وقد عرض على خليفة وظيفة معلم لغة إنجليزية في مدرسة ابتدائية، لكنه ما زال مترددًا، غير واثق من رغبته في إزعاج نفسه بمخالطة حشود من الأطفال عديمي التربية. ولكن مع انشغاله دون إرهاق شديد في المستودع بعد ازدهار التجارة، وارتياحه العظيم في وضعه الجديد في البيت بوجود حجرته في الفناء، كان الرضا والاكتفاء جليين في وجهه. ولم يكن مستعدًا لبدء مهنة جديدة في سنه. إضافة إلى انشغاله بدور الجد. كان يحمل معه دائمًا شيئًا لإلياس: أحلى موزة في السوق، قطعة جوافة حمراء طرية، كعكة. يهتف فور دخوله إلى البيت: أين حفيدي؟ وينطلقان في لعبتهما المفضلة، يختبئ إلياس ويتظاهر خليفة بالبحث عنه، وإن كان يعرف مخابئه دائمًا.

كان إلياس طفلاً جميلاً نحيلاً، وقد لاحظ من حوله مع تقدم أعوامه أنه ينجذب إلى الصمت. ولم يبد أن سبب صمته انزعاج أو اضطراب، ومع هذا فإن عافية كانت تقلق من هذا الصمت، وتتساءل إن كان يحمل حزنًا لا يعرف كيف يعبّر عنه بعد. لكن حمزة مقتنع أن لا أحد قادر على الهرب من الحزن. وكان إلياس أحيانًا يجلس في الحجرة مع أبيه، حمزة مستلقيًا على البساط، ولا أحد منهما ينطق بكلمة لساعات. كان صمت ابنه برأيه ملاذًا يلجأ إليه.

حين كان في الخامسة تعرض اقتصاد العالم إلى كساد عظيم، وإن لم يعِ الطفل ما يجري حوله. نشأ إلياس في تلك الأعوام في شظف، بعد تدهور تجارة ناصر بياشارا مرة أخرى، وغلاء الاحتياجات اليومية وندرتها. أوقفت الحكومة إنشاءات المدارس والمستشفيات الجديدة، وسُرّح العمال والموظفون، وأصابت المجاعة البلدات والقرى. قُدّر لهم ألا تبرحهم السنوات العجاف طويلاً. لم يفصل ناصر بياشارا أحدًا من موظفيه لكنه خفض أجورهم، ثم لجأ إلى تجارة التهريب بتكتم شديد، كما فعل خلال أعوام الحرب، فكان يشتري المؤن من بيمبا ويدخلها إلى البلدة دون دفع الرسوم الجمركية، ثم يبيعها بأسعارٍ باهظة. وكل إنسان يسعى إلى ما يعيشه.

قرر خليفة بعد أن طالت أوقات فراغه أن يعلّم إلياس القراءة. قال له: ستلتحق بالمدرسة قريبًا، فما المانع إن بدأت القراءة الآن؟ كان إلياس يستمع إلى حكايات خليفة فاغرًا فاه، وقد مزج خليفة بين رواية القصص وتدريبات القراءة والكتابة كيلا يسأم الولد. ما إن يبدأ خليفة: كان يا ما كان، حتى تلتمع عينا إلياس وتنفرج شفتاه وهو ينساق وراء سحر الحكاية.

«عاش قرد على نخلة قرب البحر».

عرف إلياس هذه القصة ولكنه لم يبتسم أو يبدِ حماسًا لأنه يعرفها، بل برقت عيناه ترقبًا لأحداثها.

«سبح قرش بالقرب من الشجرة، وتعرّف القرد على القرش فصارا صديقين. كان القرش يحكي للقرد قصصًا عن العالم الذي يعيش فيه في مملكة القروش في أعماق البحر، عن طبيعتها البراقة وسكانها السعداء. حكى له عن أسرته وأصدقائه والأعياد التي يحتفلون بها كل عام. قال القرد إن العالم الذي يصفه مذهل، وإنه يتمنى أن يراه بعينيه، لكنه لا يستطيع السباحة، ولو حاول الذهاب إليه فسوف يغرق. أجاب القرش: لا عليك، يمكنك

الركوب على ظهري. تمسّك بزعنفتي وسوف تصل بأمان. فنزل القرد من أعلى النخلة وجلس على ظهر القرش. وبدآ رحلتهما عبر البحار إلى...».

صاح إلياس مكملاً: «مملكة القروش!».

«فرح القرد بالرحلة إلى مملكة القروش، فقال للقرش: أنت صديق عظيم لأنك فعلت هذا من أجلي. أحسّ القرش بالذنب وقال: أريد أن أعترف لك بالحقيقة. سوف آخذك إلى مملكة القروش لأن ملكنا مريض وقال الطبيب إنه لن يشفى إلا بقلب قرد. هذا هو سبب أخذك معي إلى هناك. ردّ القرد دون تردد: لماذا لم تخبرني؟».

قال إلياس بابتسامة عريضة مكملاً هذا الجزء: «أنا لم أحضر قلبي معي».

أكمل خليفة: «قال القرش: أوه، يا إلهي! ماذا سنفعل الآن؟ قال القرد: أعدني إلى النخلة لأحضر قلبي. فأعاد القرش القرد إلى النخلة، ولما وصلا تسلق القرد بسرعة النخلة ولم يره القرش بعدها أبدًا. أليس هذا القرد الصغير ذكيًا؟».

لا يتذكر إلياس الكثير عن أيامه الأولى في المدرسة، ولكن معلميه كانوا يمتدحون اتساق واجباته وحسن تهذيبه. كانوا أحيانًا يشيرون إليه أمام الآخرين ويقولون: انظروا إلى إلياس، لم لا تجلسون مثله بهدوء وتفكرون بأسئلة الجمع في صمت؟ ومع هذا فلم يضايقه الأطفال الآخرون أو حتى يلاحظوه كثيرًا. كان يقف جانبًا يراقبهم بينما هم يضجون باللعب، ويجرّونه أحيانًا وسطهم إن احتاجوا إلى لاعب إضافي لاستكمال الفريق.

وعانى إلياس ما يعانيه الجميع من إحراجات الطفولة. فمرة لم يدرك مدى احتياجه إلى التبول، وظنّ أن المسافة من الفصل إلى دورة المياه ليست طويلة. ومرةً عرف الجميع أنه أصيب بالقمل من ولد آخر في فصله حين اضطر إلى حلق كامل شعره. في أحد الأيام، في طريق عودته إلى البيت، اصطدم إصبع

قدمه بحجر بارز في الطريق، فوقع على الأرض وشقت قارورة مكسورة ربلة ساقه. وصل إلى البيت والدم يغطي قدمه فبكت عافية عندما رأت جرحه. ضمدت ربلته وأخذته إلى المستشفى حيث أخذت عيناه تجولان في ساحاته وهما ينتظران دورهما خارج العيادة، ثم تعودان مرة تلو الأخرى إلى فروع الكزوارينة التي تتمايل برشاقة مع النسيم.

ومرةً ضاع إلياس. اصطحبه أبوه إلى الرصيف البحري لمشاهدة سباق الزوارق. كادت الزوارق أن تبلغ خط النهاية فمدّ حمزة عنقه ليرى أيها المتقدّم، ثم استدار فلم يجد إلياس واقفًا بجانبه كما كان. هرع في كل ناحية يبحث عنه ولكنه لم يجده. وفي النهاية قرّر وهو مضطرب خوفًا من أنه أضاع ولدهما الغالي الصغير أن يذهب إلى البيت، أملاً أن أحدًا ما رأى الطفل يجول في الشوارع فعرفه وأعاده إلى بيتهم، لكنه لم يجده في البيت. فأسرع إلى المستشفى الحكومي، فربما أصيب ابنه ونقل إلى هناك، فوجده جالسًا في صمتٍ تحت أشجار الكزوارينة الوادعة، يراقبها وهي تتمايل برشاقة مع النسيم. جلس حمزة بجانبه، وتنفّس أنفاسًا عميقة ليسكن اهتياج قلبه.

سألت عافية حمزة: «أبه علة ما؟»، لكنه هز رأسه بقوة رافضًا.

قال: «كل ما في الأمر أنه ينسى نفسه أحيانًا. إنه حالم».

قالت عافية: «مثل أبيه».

«بل يبدو مثل أمه في نظري».

«أتظن أنه يشبه أخي إلياس؟».

هز رأسه. «لا أدري، فلم أر إلياس الكبير في حياتي».

قالت: «لا.. إلياسنا أجمل بكثير. سأسأل بابا».

ما كان أخوها المفقود بعيدًا قط عن أفكارها، وكان حمزة يتساءل أحيانًا

إن كانوا قد أخطأوا في تسمية الصغير على اسم أخيها، إن كان ذكر الغائب جعله حاضرًا في الذهن معيدًا في كل لحظة لوعة الشوق إليه. في كل مرة تذكره عافية تدخل في حالة حزن، وأحيانًا قليلة تتذكر الأوقات السعيدة التي قضتها معه. وكلما تحدثوا عنه يلفها صمت أصبح يعرف أنه المدخل إلى اكتئاب يستغرقها بعض الوقت كي تنتشل نفسها من ذكرياتها.

قالت: «أتمنى أن نعرف ماذا جرى له. أتمنى أن أجد وسيلة أعرف بها ما جرى له، لكن ليس بيدي حيلة. أنت الذي سافرت وتنقلت وعملت في كل مكان وحاربت في معارك كثيرة وفي بلاد بعيدة. أشعر أحيانًا عندما تتحدث عن الأماكن والناس الذي رأيتهم بمرارة الحياة التي قضيتها محتجزة هنا طوال عمري».

احتضنها وهي تذرف دموعًا صامتة في الظلام، وقال: «لا تبتئسي. الحياة خارج البلدة ليس كما تتخيلين».

سأل المعلم عبدالله مرة أخرى إن كان قد عرف شيئًا من أصدقائه في الحكومة البريطانية، فقال لا. لا أحد مهتم بعسكري مفقود من عساكر الألمان. كثيرون من المفقودين لقوا حتفهم، وضرب من المستحيل أن تجد معلومات عن فرد واحد منهم. حتى عددهم غير معلوم، قد يصل إلى مئات الآلاف، منهم حمالون من الطرفين، ومدنيون في الجنوب قضوا جوعًا أو أهلكهم وباء الإنفلونزا. ومن العساكر كثيرون ماتوا بسبب الأمراض. قال المعلم إن أعوامًا كثيرة قد مضت منذ رأته أخته آخر مرة، وهو يخشى أن هذا ليس له إلا معنى واحدًا.

سمعت عافية من خليفة عن حملة لتدريب الأمهات الشابات ليصبحن مساعدات للقابلات. فقد لاقت عيادة التوليد الجديدة نجاحًا كبيرًا، ولكن الحوامل لا يذهبن إليها إلا لفحوصات ما قبل الولادة، ومعظمهن يأبين

الوضع فيها. فقرر المسؤولون استقطاب المزيد من النساء ليساعدن القابلات في تقديم خدمات طبية متكاملة، منها زيارة الأمهات في منازلهن. وكانت المؤهلات المطلوبة للقبول في البرنامج أن تتقن المرأة القراء والكتابة بما يكفي لتدوين المعلومات الأساسية وقراءة الإرشادات البسيطة، وأن تتحدث السواحلية بطلاقة. أما اشتراطهم أن تكون أمًّا فيعزى إلى الاعتقاد بأن خوض تجربة الولادة سيفيد الحوامل الأخريات، وسوف يمكّن المتقدمات من إيصال المعلومات الدقيقة إليهن بدلاً من إصدار التعليمات والتحذيرات دون سابق دراية. عندما أطلعت عافية حمزة على الأمر كان حماسه شديدًا. قال: جميع الشروط تنطبق عليك، والحاجة ماسة وضرورية لهذه المهنة، وسوف تتعلمين مهارات جديدة.

***

بدأ الهمس عندما بلغ إلياس الحادية عشرة. كان معتادًا على اللعب وحيدًا كما يفعل كل طفل وحيد أبويه. ربما دفعته طبيعته إلى هذا الاتجاه، ذاك الصمت الساكن، كما ظن حمزة. كان يسبغ على كل غرض جامد حوله دورًا عظيمًا في حكاياته: علبة أعواد الثقاب تصبح منزلاً، والحجر الصغير يصبح السفينة الحربية البريطانية التي رآها في الميناء، والبَكرة الخالية من الخيط تصبح قطارًا يزمجر في قلب المدينة. يحرك هذه الأشياء وهو يروي قصصه بصوت خفيض لا يسمعه إلا هو وألعابه.

وفي أحد الأيام، مع دنو الشمس للغروب، رجع حمزة إلى البيت بعد جولته على الشاطئ. وكانت هذه عادته؛ يتجول قبيل المساء قرب البحر ثم يذهب مباشرةً إلى المسجد لصلاة المغرب. لكنه في هذا اليوم قد أنهى جولته مبكرًا فقرر الذهاب إلى البيت أولاً. كان متجهًا إلى الحمام في آخر الفناء

الخلفي ليتوضأ قبل الصلاة في المسجد، فإذا إلياس جالس على كرسي قرب الجدار الجانبي، ظهره نحو الباب. لم يلحظ وجود حمزة. كان يتكلم بصوت هامس غير مألوف، رافعًا رأسه إلى الأعلى، لا يروي حكاية أو يتظاهر بأنه أسد أو أرنب، بل كأنه يخاطب شخصًا أطول منه يقف أمامه. لا بد أن صوتًا صدر عن حمزة أو أن وجوده حرّك الهواء، لأن إلياس التفت بسرعه ناحيته وسكت فورًا عن الكلام.

فكّر حمزة لاحقًا أن الولد لا شك كان يحفظ قصيدة أو قطعة نثرية لدرس اللغة الإنجليزية. فقد كان معلمه يحب هذه الطريقة في التعلم، فيجعل التلاميذ ينسخون القصائد في كراساتهم، ويحفظونها عن ظهر قلب، ثم يسمّعونها أمامه وهو يصحح نطق الكلمات ويمنحهم درجات. وهي حقيقةً وسيلة مقتصدة وممتعة تحفظ وقت المعلم الذي كان يصر على أن يعد تلاميذه هذه القصائد كنوزًا تبقى في ذاكرتهم طوال حياتهم، أو بالأحرى هذا هو العذر الذي يلقمهم به كلما رأى أمارات التبرم. تفاجأ حمزة من اختيارات المعلم عندما قرأ القصائد. وهو وإن لم يكن يعرفها ولا يعرف الشعر الإنجليزي عامةً فإنه رأى أنها مادة صعبة تكاد تكون غير مفهومة لأطفال في سن ابنه. صحيح أن حمزة يفهم شيئًا بسيطًا من الإنجليزية لكنه يعرف من اللغة أكثر مما يعرفه إلياس. فلم يفهم ماذا سيفهم أطفال في الحادية عشرة من قصيدة «زبور الحياة» أو «الحاصدة الوحيدة». ولكن ألم ير المبشر أن شيلر وهاينه أفصح من أن يفهمهما حمزة، فوجد حمزة شيئًا فيهما يثريه على طريقته؟ وهكذا بعد أن رأى إلياس يهمس بتلك الطريقة أول مرة، وفكرّ بالمنظر مليًّا بعدها، قرر أن الفتى كان يتدرب على إلقاء القصيدة في الفصل.

عاد إلى البيت مرة أخرى وفي الوقت نفسه في المساء التالي، لكن إلياس كان خارج المنزل، لم يكن يجلس وحده في الفناء الخلفي يتكلّم بصوت غريب. استمرت مراقبة حمزة له بضعة أيام، ليطمئن قلبه لا غير. كان وعافية ينامان

في حجرتهما وهي الحجرة الأمامية سابقًا، وثمة باب يصل بينها والحجرة التي كان خليفة وبي عائشة ينامان فيها. أما إلياس فكان ينام في الحجرة الداخلية، وله فيها منضدة صنعها له أبوه ليتم فروضه المدرسية عليها. لا يُغلق الباب بين الحجرتين إلا نادرًا، وإن أراد الوالدان بعض الخصوصية فيسدلان الستارة المعلقة على الباب. ظل حمزة واقفًا عند الباب بضع ليالٍ، يصغي السمع لأي همسة تصدر عن إلياس، لكنه لم يسمع شيئًا. كرر هذا ليالي متتالية حتى تأكّد أن ما سمعه ذاك المساء عند الغروب كان صوت طفل يحاول حفظ قصيدة.

اقترب خليفة الآن من الستين، وكان يتكلم عن نفسه كأنه رجله تمس قبره. صحيح أنه يترنح قليلاً بعض الأحيان عندما يستدير بسرعة أو ينهض بعد قعود طويلة، لكن ما زال قوله هذا يثير غضب عافية في كل مرة. حذرته من أن ينحس نفسه وإلا فإن كلامه سيتحقق يومًا ما. وهذا القول عينه يغضب المعلم عبدالله كذلك، وقد أصبح الآن موظفًا ذا سلطة في إدارة التعليم ومفتشًا على المدارس، وقد ترك التدريس. كان يقول لخليفة إنه لن يقول إن رجله تمس القبر لو أنه يعمل في وظيفة محترمة، بدلاً من إخفاء البضائع المهرّبة في مستودع. ما زالوا يجتمعون معظم الأمسيات في الشرفة، خليفة والمعلم عبدالله وتوباسي، يقهقهون عند كل فضيحة وشائعة، ويتداولون أخبار العالم ويكشفون أستاره وحدوده. كان حمزة يجالسهم بعض الوقت، وأحيانًا يقدّم لهم صينية القهوة كما اعتاد من قبل، أصبح إلياس يشاطره واجب الضيافة، لكنه كان يحب أن يقضي بضع ساعات المساء داخل البيت، جالسًا في حجرة الضيوف يستمع إلى عافية وهي تحكي عن يومها في العيادة، ويتصفح الصحف القديمة التي يرسلها خليفة والمعلم عبدالله إليهما بعد قراءتها. ظهرت صحف جديدة في الأعوام الأخيرة: بالسواحلية والإنجليزية وحتى بالألمانية، للمستوطنين الذين اختاروا البقاء بعد الحرب.

كان إلياس يجلس معهما أحيانًا، إما مستمعًا أو قارئًا، لكنه عادةً أول من يخلد إلى فراشه.

قال حمزة وهو يقرأ الصحيفة الألمانية ذات ليلة: «مذكور هنا خبر عن معاشات الشوتزتروبه وأجورهم المتأخرة. تقول الصحيفة إن هناك حملة لإقناع الحكومة الألمانية بإعادة دفع المعاشات الآن وقد انتعش الاقتصاد بعد الكساد. أتذكرين؟ لقد أوقفوا دفعها منذ بضع سنوات».

قالت عافية: «لا. لا أتذكر.. هل تلقيت منهم مالاً قط؟».

أجاب حمزة: «يجب إبراز شهادة تسريح من الخدمة. وليس لدي هذه الشهادة. أنا هارب من الخدمة».

«أتظن أن أخي إلياس يتسلم معاشًا؟ ربما نعثر عليه بهذه الطريقة».

«إن كان حيًّا». ندم حمزة على كلماته فور خروجها من فمه. وضعت عافية يدها على فمها كأنها تمنع نفسها من الكلام، ورأى الدموع تترقرق في مقلتيها فجأة. قد ذكرتْ من قبل هذا الاحتمال وكان هو من يحثها على ألا تفقد الأمل. والآن هو من يتحدث بغتةً عن رحيله.

قالت بصوت مكسور: «أشعر بالحزن لأننا لا نعلم».

«أنا آسف...». لكنها أشارت بيدها أن يغير الموضوع وهي تنظر إلى إلياس الذي ما زال جالسًا معهما في الحجرة، وقد اتّسعت عيناه ألمًا دون أن يشيح نظره عن أمه.

قالت: «على أية حال، أنت لست هاربًا من الخدمة، بل كنت جريحًا، وعلى يد ضابط ألماني مخبول. ألا يذكر الخبر أي شيء عن معاشات المصابين؟».

فهم حمزة أنها تابعت الحديث لتشتيت ذهن إلياس، فلم يقل لها إن المبشر أخبره أن الجيش الإمبريالي الألماني كان سيسوقه إلى محاكمة عسكرية، ثم

يحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص لفراره ونبذه زي العسكرية. وهو لا يعلم إن كان حقًّا ما قال أم أن المبشر كما جرت عادته يذكّره بقلة حيلته. لم يكن في حالةٍ تسمح له بالفرار من كتيبته، ثم إن المبشر هو من أمر بإحراق زيه خشية أن يراه الإنجليز فيرسلونه وأسرته إلى المعتقل لمساعدتهم أحد عساكر الشوتزتروبه. ولا يريد حمزة معاشهم على كل حال. فقال: «مكتوب أن الجنرال ما زال يدافع عن حقوق الفصائل في برلين، فربما سوف يحصل الجميع على معاشاتهم. المستوطنون هنا يحبون الجنرال».

كان إلياس يرافق والده إلى ورشة الأخشاب في الإجازات المدرسية وفي الأيام التي تعمل فيها عافية في عيادة القابلات. أحيانًا يظل فيها طوال الصباح، وأحيانًا أخرى يتجول وحيدًا بضع ساعات ثم يرجع متى ما طابت له العودة إلى البيت. كان إمزاي سليماني يرحّب بالفتى بالابتسامات ويكلفه بأداء بعض المهام اليسيرة في الورشة. حتى إنه علّمه كيف يطرّز طاقيةً. ومتى ما أراد إدريس أن ينساق في كلامه القذر فقد وجد في إلياس منصتًا مشدوهًا كحال دوبو، فيبدو أحيانًا أنه يحاول جهده التوغل في الأوساخ إلى دركات أعمق من أجل تسلية الصبي. فيضطر ناصر بياشارا - الذي ما زال يعمل في مكتبه الصغير رغم نماء تجارته - إلى التدخل غالبًا وإسكات سائقه بذيء اللسان. أنت تسمّم عقل الولد بكلامك الفاحش. فتتسع ابتسامة إلياس أمام هذه الدراما وينتظر حدوث المزيد. وفي طريق عودة الأب وابنه إلى البيت لتناول الغداء يمران بالسوق لشراء الفاكهة والخضروات، وقد كان إلياس يرافق والده أحيانًا في جولاته بعد العمل بطول الشاطئ قبل الرجوع إلى البيت. لم يتحدثا كثيرًا، وتلك هي طباعهما، ولكن إلياس أحيانًا يمسك يد أبيه وهما يسيران.

اعتاد خليفة بعد انفضاض سامر البرازا أن يقفل الباب الأمامي ويتجه إلى حجرته في الفناء الخلفي. وكان عند مروره عليهم إن كانوا مستيقظين

يقف أحيانًا لتبادل الحديث واقفًا، ولكن غالبًا ما يكتفي بتلويحة سريعة. في مساء أحد الأيام نادى خليفة حمزة وهو يمر بحجرتهما دون أن يقف. تبادل حمزة وعافية نظرة تعجب من نبرة صوته الحازمة. همست: ماذا فعلت؟ رفع كتفه وابتسما. أشار بإبهامه ناحية الشرفة. ربما تشاجروا حول أمر ما. الأفضل أن ألحق به لأعرف ما جرى.

وجد حمزة خليفة جالسًا على سريره، فأخفض جسمه على السرير متروِّيًا كعادته منذ إصابة فخذه حتى أصبحا متقابلين.

قال خليفة: «أردت أن أكلمك وحدك بعد أن سمعتُ أمرًا من توباسي. الأمر ليس بالجلل ولكني أردت أن أعرف ما تعرفه أولاً. بشأن الفتى، إلياس الصغير. الناس يتحدثون عنه. يقولون إنه يسير مسافات طويلة في الريف وحيدًا. والناس تتعجب من فتى من أهل البلدة في الثانية عشرة يقطع أميالاً في طرقات الريف وحده».

«إنه يحب المشي». قالها حمزة مبتسمًا بعد صمت قصير، وقد أقلقه أن تتناول الألسنة أحوال الولد بهذه الطريقة. «إنه يرافقني أحيانًا في جولاتي، ولكنني أعرج فيبطئ الحركة لأجلي. ربما يحب أحيانًا أن يطلق ساقيه للريح كما يشاء».

هزّ خليفة رأسه. «إنه يكلّم نفسه وهو يمشي. يمشي في طرقات الريف الواسعة وهو يكلّم نفسه».

«ماذا؟! ماذا يقول؟».

هزّ خليفة رأسه ثانيةً. «لم يسمع أحد قط ما يقوله لأنه يسكت إن اقترب أحد منه. أنت تعلم أن هذا عند كثير من الناس علامة على... «ثم سكت غير قادر على نطق الكلمة، والاشمئزاز ظاهر على وجهه من شناعة التهمة.

«ربما كان يسمّع القصائد التي يعلّمها إياها المعلم في المدرسة. سمعته من

قبل يفعل هذا. أو ربما كان يؤلف قصة، وهو يحب التأليف. سأخبره أن يحذر مرة أخرى».

أومأ خليفة برأسه ثم هزّه استنكارًا، واتجهت عيناه إلى عافية التي وقفت عند مدخل الحجرة. أشار لها بالدخول وانتظر حتى أغلقت الباب. قال: «لم تخبريه؟»، فهزت رأسها نفيًا. قال خليفة لحمزة وهو يخفض صوته حتى كاد أن يهمس: «كنت قبل يومين مستلقيًا هنا عصرًا. وأنا عادة لا أكون في البيت في ذلك الوقت كما تعلم. كانت نافذة الحجرة المطلة على الفناء مفتوحة ولكن الباب مغلق. سمعت شخصًا يتكلم، قريبًا من الحجرة، صوت غريب، صوت امرأة. لم أستطع سماع الكلمات ولكن في نبرة صوتها أسى. ظننت لأول وهلة أنها عافية لكني عرفت فورًا أنها ليست هي. ليس صوتها. فظننت أنها ضيفة زارتها وهي تشكي لها همًّا، حتى تذكرت أنني سمعت عافية قبل قليل تنادي إلياس لتخبره أنها ستغادر البيت. تعجبت. في البيت امرأة لا أدري من هي. نهضت من السرير لأستطلع الأمر، ولكن لا بد أن صوت حركتي كان مسموعًا لأن الصوت سكت فجأة فورًا. كشفت الستارة فوجده هناك، إلياس، جالسًا على الكرسي جانب الجدار. كان مندهشًا، فلم يعرف أني كنت في الحجرة. سألته من كان يكلّمك؟ قال لا أحد. قلت سمعتُ صوت امرأة. بدت الحيرة عليه ورفع كتفه وأجاب لا أدري. لماذا تبتسم؟».

كان السؤال الأخير موجّهًا إلى حمزة الذي أجاب: «أستطيع أن أتصوّر الموقف. هذا هو ردّه المفضل على أي سؤال لا يريد الإجابة عنه. لا أدري... ماذا يقلقك إلى هذا الحد يا والدي؟ لا بد أنه كان يتظاهر بأنه امرأة حزينة في قصة يؤلفها».

هزّ خليفة رأسه بقوة وقد بدأ صبره ينفد. «لقد تكلمت مع عافية حول الأمر حين عادت. أخبرتها عن الصوت الغريب الذي سمعته. أنت لم تسمعه

يا حمزة. صوت امرأة عجوز، تشتكي وتنوح. ولما بدأت أصف لها ما سمعت أدركتُ فورًا أنها تعرف أمر هذا الصوت. أخبريه».

استدار حمزة ليقف مقابل عافية، مستندًا إلى عارضة السرير. دنت منهما وأخفضت صوتها: «قد سمعتُه من قبل. وقد اعتاد دائمًا تمثيل أدوار مختلفة في ألعابه وحكاياته. سمعته مرتين يتكلم كما وصف بابا، صوت امرأة مكلومة، هنا في الفناء الخلفي. لم يرني واقفة عند الباب، وقد انتظرت كيلا يجفل، فيخجل أو يستاء. حسبت أن الأمر مثل السير أثناء النوم، وأن من المستحسن تركه ليستيقظ متى أراد. في إحدى الليالي وقد كنتَ نائمًا، سمعت ضجة تصدر من حجرته، فلما دخلت وجدته يتقلب ويتوجع ويئنّ بذلك الصوت الغريب».

قال خليفة: «في الطفل علة ما».

استدار إليه حمزة والغضب يعلو قسمات وجهه، لكنه لم يتكلم. كان يعلم أنهما ينتظران رأيه. قال: «ربما رأى كابوسًا. ربما كانت له مخيلة خصبة. لماذا نتكلم عنه هكذا، كأنه... مريض؟».

رفع خليفة صوته في غيظ قائلاً: «إنه يسير في الطرقات الريفية يكلّم نفسه». حاولت عافية أن تسكته لكنه لم يفرغ بعد. «والناس يتحدثون عنه. هم من سيجعلونه مريضًا إن لم نعالجه. في الولد علة ما».

قال حمزة حاسمًا الأمر: «سوف أتكلم معه». نظر إلى عافية ثم اتجه إلى الباب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت عندما اختليا: لا تثر ذعره.

فقال: أنا أعرف كيف أكلّم ابني.

لكنه في الحقيقة لم يعرف كيف يكلّمه في هذا الأمر، ومرت أيام دون

أن يفعل، متصدّيًا لنظرات خليفة المتسائلة بجمود. لم يسمع أي منهم أي همسات غريبة من إلياس عدة أيام، واغترّ حمزة بأن الأمر انقضى ولا خوف منه. حتى كان يوم السبت، وكان حمزة متجهًا إلى نادي الموسيقى، فطلب منه إلياس أن يرافقه. أسّس هذا النادي العازفون الذين سمعهم حمزة قبل سنوات. وقد أصبحوا الآن أوركسترا تقدّم أداءً مجانيًّا لجمهور محدود أيام السبت. كانوا يعزفون ساعة فقط وينتهون عند الساعة الخامسة، ثم يكملون تدريباتهم خلف الأبواب المغلقة دون حضور. عادا سيرًا عبر طريق الشاطئ إلى البيت، ولأن حمزة كان منتشيًا بأنغام الموسيقى، مبتهجًا بصمت إلياس بجانبه، وقد رأى أن هذه علامة على انتشائه هو كذلك، فقرر أن يجلسا بعض الوقت على مقعد فارغ في الواجهة البحرية، ليتأملا البحر وغروب الشمس. فكّر حمزة بمدخل يوصله إلى موضوع الأصوات. جرّب عبارات كثيرة في رأسه ثم رفضها، حتى قال أخيرًا: «ألديك واجبات مدرسية عليك إتمامها في نهاية هذا الأسبوع؟».

«يجب أن أدرس لاختبار الجبر يوم الاثنين».

«الجبر؟ يبدو أمرًا معقدًا. أنا لم أدرس في المدرسة قط كما تعلم، فلم أتعلم الجبر».

قال إلياس: «أجل.. أعلم. المادة ليست صعبة جدًا، ونحن الآن ندرس المسائل البسيطة. أتوقع أن تزداد صعوبته فيما بعد».

«لا قصائد إذًا تحفظها؟ ألم يكلفك معلم الإنجليزية بحفظ أي قصائد هذا الأسبوع؟».

قال إلياس: «لا. ما زلنا نردد القصائد نفسها مرة تلو المرة».

«أهذا ما تقوله عندما تسير وقتًا طويلاً في الريف؟ تردد هذه القصائد؟». التفت إلياس لينظر إلى حمزة كأنه ينتظر من أبيه توضيحًا. ابتسم حمزة ليبين

لابنه أنه لا ينوي توبيخه. «سمعتُ عن نزهاتك الطويلة، وأنك تتكلم حين تسير. هل تردد هذه القصائد؟».

قال إلياس: «أحيانًا. أهذا خطأ؟».

«لا، لكن بعض الناس يرون أن تصرفك غريب. يقولون إنك تكلّم نفسك. فإذا أردت أن تسمّع قصائدك أو إن كنت تختلق حكاية لنفسك فمن الأفضل أن تفعل هذا في البيت أو في المدرسة. لا تريد أن يقول عنك الجهلاء إنك مجنون».

أومأ إلياس مستسلمًا. وفي تلك اللحظة انغمس قرص الشمس في البحر خلفهم، وأدار حمزة دفة الحديث إلى موضوع آخر. وبعد دقائق، لما ظهر الغسق، كانا في طريقهما إلى البيت.

احتلّ الإيطاليون الحبشة في أكتوبر عام 1935م، وتبع هذا شيوع أنباء عن نشوب حرب في المنطقة. سقطت أديس أبابا بأيديهم في مايو عام 1936م، ما حدا الإنجليز إلى التحوّط وبدء عمليات التجنيد خلال العامين التاليين في جيشهم الاستعماري، بنادق الملك الإفريقية، الذي تفرّق جنوده خلال سنوات الكساد الشاقة. فكان قلق السلطة البريطانية من جانبين؛ الأول تهديد الإيطاليين لمستعمراتهم، والثاني المستوطنون الألمان في محمية شرق إفريقيا الألمانية سابقًا، وهم لا ريب مناوئون لبريطانيا موالون لهتلر. وكذلك كانوا يخشون أن الاعتداء الإيطالي على المقاومة الحبشية، واستعمالهم أسلحة كيماوية ضد المدنيين، سوف يهيّج الصوماليين والأوروميين وشعب غالا الذين لم يخضعوا تمامًا للحكم البريطاني في الجبهة الشمالية. فامتلأت الصحف بأخبار الحروب وشائعاتها.

سكن عارض الهمس الذي انتاب إلياس وأقلق أمه وخليفة أشهرًا بعد حديث حمزة معه بجوار البحر. وهدأ روعهم واطمأنوا إلى أنه مجرد تصرف

طفولي عابر. لكن الحديث عن الحرب والتجنيد للجيش أعاد الهمس، وقد وجدت عافية ابنها ذات ليلة متكوّمًا على نفسه على الأرض، يصمّ أذنيه بيديه.

جلست بجواره وهي تسأله: «ما بالك؟ أيؤلمك رأسك؟». رأت الدموع تسيل على وجنتيه، وقد كان في الثالثة عشرة حينها، ومن الغريب رؤيته يبكي.

هز رأسه وقال: «إنه الصوت».

سألت عافية في ذعر: «أي صوت؟ أي صوت؟»، وهي تعلم أنها كانت تخدع نفسها حين ظنت أن هذه المشكلة انتهت.

«إنها المرأة. لا أستطيع إسكاتها».

سألت: «ماذا تقول؟»، لكن إلياس هز رأسه ولم ينطق. أخذ ينشج ببكاء مخنوق لا تبدو له نهاية، فأعانته عافية على الوقوف وجعلته يستلقي على سريره. سرعان ما استغرق في النوم، أو تظاهر بأنه نائم، فارتاحت عافية قليلاً. وعندما سألته في الصباح التالي إن كان بخير أجاب باقتضاب أنه بخير. سألته إن كانت المرأة ما زالت موجودة، فهز رأسه ثم هرع خارج البيت إلى المدرسة.

لكن راحتهم لم تدم. وقعت حادثة أخرى بعد أيام، حين أفاقوا في منتصف الليل على صرخاته. وكان ينادي اسمه: إلياس، إلياس، ولكن بصوت تلك المرأة. جلس حمزة إلى جواره على السرير واحتضنه بقوة وهو يتخبط ويتلوى. لم يهدأ إلا بعد وقت طويل، بدا لهم كأنه ساعات، فسأله حمزة: «ماذا تريد المرأة؟».

قال الولد: «أين إلياس؟ تقول أين إلياس؟ تظل تكرر هذا».

قال حمزة: «أنت إلياس».

قال: «لا».

قال خليفة لعافية: «إنه يسأل عن أخيك إلياس. كنت أعلم أن تسميته إلياس خطأ. هذا الحديث عن الحرب هو ما أثاره. ربما يلوم نفسه. أو يلومك. ربما هذا هو السبب الذي يجعله يتكلم بصوت امرأة. إنه يتحدث نيابة عنك. لا أحد هنا يمكنه مساعدته. ولو عرضناه على الطبيب فسوف يحتجزه في مستشفى مجانين في مكان بعيد ويكبلونه بالقيود. يجب أن نعتني به بأنفسنا».

بعدها كان الصوت يصدر كل ليلة من فم الفتى، سائلاً عن مكان إلياس. قالت عافية: «يجب أن نفعل شيئًا. تقول جميلة إن الحكيم قد يساعده».

قال خليفة ساخرًا مخاطبًا حمزة: «لقد نشأتْ في الريف. إنهم يؤمنون بالسحر والجن. أنت رجل متدين، أتريد أن تطلب من هذا الحكيم مسحوقًا يطرد العفريت؟».

قال حمزة: «لم لا؟»، وإن كان شخصيًّا لا يصدّق هذه الجانب من الدين. فزارت عافية مرة أخرى الحكيم كما فعلت في مرض بي عائشة، وعادت بطبق مذهّب كتبت عليه آيات من القرآن. سكبت بعض الماء على الطبق حتى ذابت الكلمات وجعلت إلياس يشربه. لم تنجلِ الأعراض عن الفتى حتى بعد تكرار محلول الآيات. أصبح إلياس قعيد البيت، خسر من وزنه الكثير، ينام ساعات طويلة من النهار لأن الليل متكدر بالأصوات. تعاظم الهم في فؤاد عافية وبلغ بها اليأس أقصاه. وفي ليلة كان إلياس يئن فيها مكررًا اسمه هتفت في ألم شديد: رباه! لا أحتمل هذا العذاب. حينها قررت أن تستدعي الشيخة التي أوصت بها المغانغا جارتهم التي رعت بي عائشة في أيامها الأخيرة.

سألها حمزة: «وماذا ستفعل؟».

«إن كان ملبوسًا فستخبرنا الشيخة».

قال خليفة: «ما الذي يتلبسه؟ أخبرتكَ أنها تربّت في الريف. سوف نسمح للسحرة بالدخول إلى بيتنا». ثم قام إلى حجرته في اشمئزاز.

دخلت الشيخة البيت فعبق المكان برائحة البخور. كانت امرأة نحيلة قصيرة، شاحبة البشرة، لها وجه حسن حاد القسمات. حيّت عافية ببشاشة وجرى على لسانها حديث أنيس وهي تخلع البيبوي الذي انبعثت منه سحابة من البخور والعطور، ثم جلست على البساط في حجرة الضيوف. «شمس اليوم حامية. توقفت للاستراحة تحت كل ظل وجدته ومع هذا انظري إلي، العرق يغمرني. أصبحنا نتمنى الكاسكازي ونسائمه العليلة. قولي لي يا ابنتي، هل أنت بخير؟ وهل أهلك بخير؟ الحمد لله. نعم، أعلم أن عزيزًا عليك يشكو من أمر وإلا ما طلبتِ حضوري. هيا، بسم الله. أخبريني ما شكواك؟».

أنصتت الشيخة إلى وصف عافية للنوبات والأصوات، عيناها مسبلتان وأصابعها تعبث بحبات المسبحة. كانت تضع شالاً أحمر من قماش خفيف وقميصًا أبيض فضفاضًا يخفي كل جسدها حتى لم يظهر منها سوى وجهها ويديها. لم تسل الشيخة أي سؤال بينما عافية تتحدث، لكنها كانت ترفع رأسها بين فينة وأخرى كأنها تعجبت مما سمعته. أعادت عافية رواية الأحداث مرة تلو الأخرى، غير واثقة من أنها صوّرت شدّة النوبات تصويرًا منصفًا، حتى شعرت أن حديثها صار مشتّتًا فسكتت.

«ينادي اسم إلياس، وهو اسمه واسم أخيك الذي لم يعد من الحرب الأخيرة. ولا تعلمين إن كان متوفى أم حيًّا مفقودًا في مكان ما. والده شارك في الحرب أيضًا لكنه عاد». صمتت الشيخة في انتظار تأكيد عافية على صواب

ما ذكرته، ثم قالت: «أود أن أرى الولد الآن».

نادت عافية إلياس فدخل متوترًا وقد بدا الهزال عليه. ابتسمت الشيخة له ابتسامة مشرقة وربتت على البساط مشيرة له بالجلوس إلى جوارها. أمعنت النظر إليه لحظات، وما زالت مبتسمة، لكن لم تسأله أية أسئلة. أغمضت عينيها لحظات، وقد أصبح محياها هادئًا رصينًا، لم تتحرك إلا مرة حين رفعت يديها كاشفة كفيها إلى السماء، لكنها لم تلمسه. ثم فتحت عينيها وابتسمت لإلياس، فارتعد. قالت: «هيا.. اذهب وارتح قليلاً. دعني أتكلم مع أمك وحدنا».

قالت الشيخة: «لا شك أن ابنك ممسوس. بداخله جن. أتفهمين ما أقصده؟ ما بداخله جنية وهذا يطمئنني قليلاً. فالجنيات يتكلمن، أما الجن فينتفضون ويتخبطون بغضب. وهي تتكلم معه، وهذا يطمئنني أيضًا. وعرفت مما أخبرتني أنها لم تؤذه، ومن إحساسي بالفتى هنا بجواري فلا أظن أنها تنوي أذاه، ولكن يجب أن نعرف ماذا تريد، ماذا يرضيها، ونلبي طلباتها إن استطعنا. إن أردتِ فسأحضر جماعتي ونطهّر الولد هنا في هذه الحجرة ونستمع إلى مطالب الجنية. لكن ثمن إخراجها ليس يسيرًا».

***

عرف بعض الناس عن الطقوس المنتظرة، ولكن لم يهزأ أحد منهم كما خشي حمزة إلا خليفة. سأل إمزاي سليماني عن إلياس لكن لم يذكر طقس طرد الجن، والغالب أن النجار العجوز لا يستحسن هذه الأمور. قال النجار: سأدعو له بالشفاء. أما ناصر بياشارا فقد عرف بتفاصيل ما وقع من زوجته مما أخبرتها به عافية. سأل هو أيضًا عن حال إلياس، وكان تعليقه أن لا ضير من تجربة كل حل. أدرك حمزة أن لا خيار أمامهم الآن إلا المضي

بهذه الطقوس حتى وإن خامرته شكوك عظيمة حول فائدتها. كان قد سمع بهذه الطقوس في أيامه في الشوتزتروبه، لأن العائلات النوبية القاطنة في قرية المعسكر تقيمها كل أسبوع. لكنه يعلم أيضًا أن عافية بلغت أقصى حدود الاضطراب والخوف مما سيجري، وأن القلق يكاد يدمّرها.

لم يجادلها حمزة في قرار الطقوس ولم يسخر كما فعل خليفة. والسبب هو شعوره بالذنب أن معاناته هي أصل معاناة ابنه، عاقبة فعل اقترفه في الحرب. لم يستطع أن يتذكر تصرفًا بالغ الفظاعة في ماضيه يفسر الأذى الذي وقع على ابنه الآن، ولهذا فإن تفكيره غير منطقي البتة. إذًا فقد يكون السبب فقدان إلياس. لقد سمّيا ابنهما على خاله ونشأ بين الاثنين دون علمهما رابط خفي جعل الولد ينوء بحمل عافية، حزنها وتبكيت ضميرها على قلة حيلتهم في معرفة مكان أخيها أو ما انتهى إليه.

كان عنوان السيدة زوجة المبشر مكتوبًا في إحدى صفحات كتاب هاينه «في تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا». عندما رأى المبشر الكتاب مع حمزة سأله: «ماذا تفعل بهذا الكتاب؟».

أجاب: «السيدة أعارته لي».

«أعارتك هاينه!». ما زالت ذكرى وجهه المصدوم المتعجب ترسم ابتسامة حبور على شفتي حمزة حتى بعد مرور هذه السنوات. سأل المبشر: «وما رأيك به حتى الآن؟».

قال حمزة بتواضع: «قراءتي بطيئة جدًا»، لأنه يعلم أن المبشر ينزعج كلما أثنت السيدة على إجادته للألمانية. «لكني اندهشت عندما قرأت أن الرجال في ألمانيا في زمن ماضٍ كانوا يرشمون الصليب استعاذةً من شرور العندليب كلما غرّد. كانوا يرون أنه مخلوق شيطاني، كما يقولون عن أي شيء أو مخلوق يجلب المتعة».

قال المبشر: «هذا ما يفهمه القارئ الجاهل. لا تفهم إلا السطح من فكر هاينه، أما العمق فلن تبلغه».

عندما قرّر المبشر الرجوع إلى ألمانيا وتأهب حمزة للرحيل، أعطت السيدة الكتاب لحمزة ودوّنت على صفحة العنوان اسمها وعنوان منزلهم في برلين. قالت له: ابعث لي رسالة عندما تتحسن أحوالك. فكّر حمزة من قبل أن يرسل لها رسالة يستفسر منها عن وسيلة لمعرفة ما حدث لإلياس بالبحث في السجلات في ألمانيا. لكن جراءة الطلب منعته. لماذا تشغل نفسها بالبحث؟ وما أدراها بسجلات عساكر الشوتزتروبه؟ ومن يهتم لما حدث لعسكري ضائع؟ ثم إنه لا يملك عنوانًا بريديًا كي يتلقى منها أي خطاب. لكن هذه المشكلة حُلّت مؤخرًا بعد أن أصبح لشركة بياشارا للأثاث والتجارة العامة صندوق بريدي. فكتب رسالة موجزة إلى السيدة، يذكّرها بنفسه ويُطلعها على رغبته في العثور على أخي زوجته، ويسألها إن كانت تعرف طريقة يعلمون بها عن حال المفقود. نسخ الرسالة على ورقة من أوراق الشركة الرسمية، ووضعها في مغلف بريدي وأودعها في مكتب البريد في اليوم نفسه. وكان هذا في نوفمبر 1938م.

***

في مساء اليوم المحدد، بعد صلاة العشاء، وبعد أن أرسل حمزة رسالته، وصلت الشيخة إلى البيت ومعها جماعتها. كانت ترتدي السواد من رأسها حتى قدميها، والكحل يلون جفنيها وشفتيها. أما المغنية والطباليَن اللذين جاءوا معها فكانوا في لباسهم العادي. أغلقت النافذة وأشعلت شمعتين معطّرتين. ثم رشّت بالحجرة ماء الورد وأوقدت مبخرتين، واحدة تحرق العود والأخرى اللبان. انتظرت حتى عبقت الحجرة بالأبخرة والروائح،

ثم استدعت إلياس وعافية وطلبت منهما الجلوس جانب الجدار. أمرت ألا يدخل أحد الحجرة ولكنها لم تغلق بابها. جلست مثنيةً ساقيها أسفلها أمام إلياس وعافية وأغمضت عينيها. بدأ حينها قرع الطبول، إيقاعات خافتة تصاحبها همهمات المغنية.

جلس حمزة وحيدًا في حجرة النوم، والباب مشرع تحسّبًا لاستدعائه. تذكّر أن هذه الطقوس تستمر ساعات، وقد يشتد فيها الصخب ويعم الاضطراب، وأن الناس قد يتأذون أثناءها. أما خليفة فجلس في الشرفة مع أصحابه متجاهلاً ضرب الطبول والأناشيد. وقد زاد في ذاك المساء عدد المشاة المارّين أمام البيت، والفضول يدفعهم لاختلاس نظرة مما يجري داخله، ولكن آمالهم خابت. فالباب والنافذة المطلة على الشارع موصدان، فلم يروا إلا ثلاثة مسنين جالسين في الشرفة يتظاهرون أن لا شيء يحدث في الداخل.

استمر القرع ساعة، ثم ساعتين، على وتيرة واحدة تزداد صخبًا. صدحت المغنية بكلمات ما زالت غير مفهومة، إن كانت كلمات من لغة معروفة. الشيخة تتلو أدعية لا يعرف كنهها في هرج الإيقاعات والترانيم. وتغذي المبخرة بالجمر من إناء وضعته جانبها. وفي الساعة الثانية نكست عافية رأسها وتبعها إلياس بعد دقائق. بدأت تدمدم، ثم أصبحت الدمدمات كلمة: يا الله... يا الله.. وفي الساعة الثالثة أخذ إلياس وعافية يتمايلان إلى الأمام والخلف، كأنهما مسحوران، والشيخة تفعل ما يفعلان. انكّب إلياس بغتة على جانبه فصرخت عافية. لم يتوقف الغناء والقرع، ولا الشيخة توقفت عن تلاوة أدعيتها.

مرت الساعات وقد أقفل خليفة باب البيت وجلس على السرير في حجرته، وحمزة معه، ينتظران انتهاء المسرحية. همدت الطبول قبيل منتصف الليل، فدنا الرجلان من الحجرة. رأيا إلياس مستلقيًا على جانبه على الأرض

وعافية تتكئ إلى الحائط، عيناها متسعتان في انتشاء روحي. ودون أن تلتفت الشيخة أشارت إليهما بدخول الحجرة، بينما نهض الطبالان والمغنية من أماكنهم في إنهاك، وخرجوا إلى الفناء لتناول الطعام الذي طلبوا إعداده لهم.

قالت الشيخة: «الجنية تعيش في هذا البيت. كانت تسكنه من قبل ولادة الفتى. شخص ما مات بعد ولادته بفترة قصيرة، فهجرت الجنية جسد ذلك الشخص وتلبّست الفتى. إنها تنتظر إلياس، ولأن حسرتها عظيمة فلن تكف عن الفتى. لا شفاء حتى تجدونه أو تعرفون ما حلّ به، عندها فقط سوف تقبل الجنية بالخروج وتتعايش مع لوعة فراقه وتكف عن تعذيب الفتى. وحتى تجدون الإجابة عليكم استدعائي كلما عانى الفتى من نوبة أخرى، وسوف نجري طقوسًا لإرضائها. إنها لا تضمر شرًا للفتى. فهي في كرب وألم. تريد أن ترى إلياس».

تركت الشيخة وأتباعها البيت في تلك الساعة المتأخرة، بعد أن تسلّمت أجرها والهدايا التي طلبتها، تاركةً صمتًا معطرًا خلفها.

ساعد حمزة إلياس المنهار على الوقوف، وقاده إلى سرير الزوجين تحسبًا لحاجته إلى الرعاية في الليل. قال إنه سينام في سرير الفتى. خرج كي يتأكد أن كل شيء على ما يرام فرأى خليفة واقفًا عند باب حجرة الضيوف.

قال: «أي هراء هذا! البخور والتطبيل والنواح والعويل! هذه المرأة الخبيثة رأت مكسبًا فانقضّت تجنيه. أدركتْ أن هذا ما تريد عافية أن تسمعه: اعثري على أخيك. هذه الخزعبلات عن الجنية العاشقة لن يصدقها عقل أحد، ولا حتى توباسي. ولكن ربما سيهدأ الصبي الآن وتتوقف كوابيسه أو نوباته، أيًّا كان ما نسميها. لا أصدق من كلامها إلا ما افترضته أن الجنية كانت تتلبس عائشة. هذا ما أصدقه دون تعجب ولا استنكار».

***

بعد طقوس الشيخة ببضعة أسابيع حلّ موسم كاسكازي برياحه الجافة القوية، وكان هذا قبيل بدء العام الدراسي الجديد. لم يعانِ إلياس من أي نوبات خلال تلك الأسابيع، وقد زالت من عينيه نظرة الترقب والقلق التي لم تكد تبارحه في تلك الأزمة. كان بعد الطقس ساهمًا منطويًا في البداية، ثم أصبح حاضر الذهن ودودًا. يبدو أن العلاج خلّصه من الأصوات والخوف الذي غشاه بسببها، ولو مؤقتًا. قال خليفة إن السبب هو الساحرة العجوز التي ألقت الرعب في قلب الفتى حتى كفّ عن هراء الهمس الذي انشغل به. ظلّت عافية تراقب ابنها في قلق، وهي تخفي خوفها أن العلاج لم يتبعه شفاء تام.

عُيّن مدير جديد في مدرسته في بداية العام، وكان المدير كذلك يدرّس فصل إلياس اللغة الإنجليزية. لكنه لم يكلّف التلاميذ بحفظ القصائد، بل كان شغوفًا بالخط والكتابة. فكان يعطيهم تمرين كتابة في كل درس، وينسخون بحرص وبأجمل الخطوط القطع القصيرة التي يكتبها المعلم على السبورة. لم يكن معلمًا متقاعسًا يفرض على التلاميذ في كل درس الوقوف، واحدًا تلو الآخر، لتسميع القصيدة نفسها، وهو جالس إلى مكتبه لا يكلف نفسه سوى الإنصات. كان يطلب منهم تأليف قصة مستوحاة من عنوان مختلق في كل أسبوع، ويجمعها عريف الفصل صباح كل اثنين. انكبّ إلياس على هذه المهمة في نشاط وحماس. وبتشجيع من المعلم طالت قصصه مع كل محاولة، وكانت مكتوبة بخط بالغ الاتساق انهال مديح المعلم عليه. تعددت قصصه خلال شهور تلك السنة، عن قرود وقطط برية، عن لقاءات مع الغرباء في طريق الريف، عن ضابط ألماني متوحش فقد صوابه والسيف في يده، وقصة عن جنية عمرها ألف وخمسمائة عام تعيش في الحي وتتلبس ولدًا في الرابعة عشرة. كان يؤلف قصصه بتفانٍ ومتعة فائقة، وهو جالس إلى المكتب الذي نقله حمزة إلى حجرة الضيوف كي يعمل ابنه دون إزعاج. كان

إلياس يقضي ساعات في التأليف، يكتب أولاً في المسودة ثم ينسخ النسخة النهائية في كراسة الواجب ليلة الأحد. كلهم كانوا يقرأون قصصه؛ عافية وحمزة وخليفة. وإن بلغ به الرضا عن إحداها حد الفخر كان أحيانًا يطلب منهم أن يتلوها عليهم.

قال خليفة بنبرة إعجاب: «لهذا الفتى مخيلة مذهلة. الحمد لله أنه استعاض بالكتابة عن الهمس».

قال حمزة بتفاخر: «كما أخبرتكم، هذا ما كان يفعله في ذلك الوقت. يختلق القصص».

نظرت عافية إليهما في شك. أحقًا نسيا ذاك الصوت المروع، والدموع والصراخ المؤلم في منتصف الليل؟ أكانت تلك قصص يريد أن يعبّر عنها؟ كان عذابًا ما عاشوه. ولا تظن أنها تحتمل ثانيةً ضرب الطبول ورائحة البخور من الشيخة وجماعتها. صحيح أن الفتى الآن سعيد بنجاحه واثق من نفسه، لكنها ما زالت تخاف عودة الصوت المرعب مرة أخرى.

15

في ضحى يوم من أيام مارس في العام التالي، قاد شرطي دراجته متجهًا إلى ورشة أخشاب شركة بياشارا للأثاث والتجارة العامة. كانت السماء تمطر رذاذًا لا يكاد يبلل زيه الخاكي، وهذه آخر أمطار ڤولي، موسم الأمطار القصيرة. كان معتدل الطول، وجهه نحيل لطيف، عينه اليسرى تختلج بعصبية. أمال دراجته تحت الظل ودخل مكتب ناصر بياشارا.

قال بأدبٍ: «السلام عليكم».

أجاب ناصر بياشارا: «وعليكم السلام». وأراح ظهره إلى الكرسي، نظارته فوق رأسه مرتابًا. أي خير يأتي من زيارة شرطي؟

سأل الشرطي بصوت ودود: «هل حمزة عسكري موجود؟».

قال ناصر بياشارا: «عندنا رجل اسمه حمزة ولكن اسم عائلته ليس عسكري. كان عسكريًّا منذ أعوام. لماذا تسأل عنه؟».

«لا بد أنه من أقصده. أين هو؟».

سأل ناصر بياشارا ثانيةً: «لماذا تسأل عنه؟».

قال الشرطي بتهذيب مبتسمًا: «بوانا كوبوا، لدي عمل أقوم به ولديك أنت عملك. لا أريد إضاعة وقتك. إنه مطلوب في المركز الرئيس وأنا مأمور باصطحابه إلى هناك. كوا حساني ياكو. من فضلك، استدعه هنا».

نهض ناصر بياشارا وقاده إلى الورشة، فأمر الشرطي حمزة أن يتبعه إلى

مركز الشرطة فورًا. سأل ناصر بياشارا: ماذا فعل؟ لكن الشرطي لم يعره اهتمامًا، ووقف أمام حمزة مادًّا ذراعه اليسرى مشيرًا إلى الباب للخروج.

سأل حمزة: «ما سبب الاستدعاء؟».

أجاب الشرطي: «لا أعلم. لنذهب. أنا متأكد أنك ستعرف الأمر عندما نصل إلى المركز».

اعترض ناصر بياشارا قائلاً: «لا يمكنك أن تأتي إلى هنا لتعتقل رجلاً دون أن تخبره عن السبب».

قال الشرطي: «بوانا، أنا مأمور بإحضاره. لم آتِ لاعتقاله، ولكن سوف أعتقله إن لم يأت معي بمحض إرادته». ومدّ يده اليمنى إلى القيد المتدلي من حزامه.

رفع حمزة يديه مستسلمًا. سارا في الشوارع معًا، حمزة في المقدمة والشرطي يجر دراجته خلفه. نظر بعض الأشخاص إليهما ولكن لم يكلمها أحد. في مركز الشرطة دوّن شرطي آخر اسم حمزة في سجل وأشار إليه بالانتظار على مقعد قريب. حاول أن يفكر بأسباب هذا الاستدعاء. سأل الشرطي إن كان هو حمزة عسكري، فلا ريب أن للأمر علاقة بخدمته في شوتزتروبه. لم يسمِّ نفسه بلقب عسكري قط. هل سيعتقلونه لهذا السبب بعد مرور سنوات؟ ثمة شائعات عن تأهب بعض المستوطنين الألمان للرحيل. فالحديث المنتشر عن الحرب بين بريطانيا وألمانيا أثار الخوف في أنفسهم من اعتقال المواطنين الألمان في الأراضي البريطانية.

بعد مرور ما يقارب الساعة، وإن كانت على الأرجح أقل من ذلك، استدعاه أحدهم إلى مكتب في نهاية رواق قصير. وجد فيه شرطيًّا أوروبيًّا شبه أصلع كثّ الشارب، له عينان لامعتان يجلس خلف مكتب. لم يكن يلبس زي الشرطة. كان يرتدي قميصًا أبيض قصير الكمين، وبنطالاً

قصيرًا خاكيًّا، وجوربين أبيضين وحذاءً بنيًّا لامعًا. زي المسؤول البريطاني الاستعماري. وإلى مكتب صغير مجاور يجلس شرطي آخر بالزي الخاكي دون قبعة، مستعدًا لتدوين المحضر. أشار الضابط البريطاني إلى كرسي دون أن يتكلم. انتظر حتى استقر حمزة جالسًا، ثم انتظر لحظات أخرى.

سأل بالسواحلية: «هل اسمك حمزة؟». كان صوته أجشَّ مهدّدًا، كأنه يصدر من طرف فمه. رأى حمزة في عينيه بريقًا خاطفًا غير متوقع. كرر الضابط السؤال بصوت ألطف: «حمزة؟».

سمع في نبرة الضابط بطشًا مكبوتًا يعرفه جيدًا من معاشرة الضباط الألمان. لم يتعامل حمزة من قبل مع الضباط الإنجليز، وهذا أول ضابط شرطة يلتقيه في البلدة. قال: «نعم، أنا حمزة».

سأل الضابط البريطاني بالصوت الأجش: «أتستطيع القراءة يا حمزة؟».

أجاب في دهشة: «نعم».

سأل الضابط البريطاني: «بالألمانية؟».

أومأ حمزة.

سأل الضابط: «مَن تعرف في ألمانيا؟».

«لا أعرف أحدًا». قالها حمزة وهو يتذكر السيدة زوجة المبشر رغم إنكاره.

رفع ضابط الشرطة بيده ظرفًا مفتوحًا. «هذه الرسالة موجهة إلى حمزة عسكري، ومرسلة إلى صندوق بريد شركة بياشارا للأثاث والتجارة العامة. أهي لك؟».

بعثتْ إليه ردًّا! وقف حمزة ومدّ يده ليأخذ الرسالة. هبّ الشرطي الآخر واقفًا.

قال الضابط البريطاني بصرامة، ناقلاً بصره بين الرجلين: «جلوس!».

قال حمزة وما زال واقفًا: «هذه رسالتي».

كرّر الضابط بنبرة أهدأ: «اجلس». وانتظر حتى عاد حمزة إلى كرسيه. قال: «ما علاقتك بهذه المرأة؟». وذكر اسمها.

نعم! لقد ردّت! أجاب: «كنت أعمل لديها قبل عدة سنوات». أومأ الضابط برأسه. لا غرابة في عمل مواطن إفريقي لدى أوروبي. أخرج الضابط الرسالة وجالت عيناه في كلماتها يقرؤها صامتًا.

اعترض حمزة: «إنها رسالتي. لماذا تحتجزها لديك؟».

أجاب الضابط بألمانية سليمة: «لأسباب أمنية. لا ترفع صوتك وإلا لن ترى هذه الرسالة أبدًا. لماذا ترسل امرأة ألمانية محترمة رسالة لك؟ وكيف يستطيع شخص مثلك قراءة رسالة مكتوبة بهذه اللغة المتقدمة؟ ما الرسائل الأخرى التي أرسلتها إليها؟».

أجاب حمزة بالسواحلية بعد أن فهم سبب اهتمام ضابط الشرطة برسالته: «لم أتلقَّ رسالة من أحد في حياتي من قبل. كنا ننتظر أخبارًا عن مصير أخي منذ سنوات. كان من عساكر شوتزتروبه. ولأنني أجيد القليل من الألمانية فقد كتبت خطابًا إلى السيدة أطلب منها المساعدة. أتذكر الرسالة اسمه؟».

مدّ الضابط الرسالة ووقف حمزة لأخذها. قال الضابط: «أخبرني ما المكتوب فيها».

قرأ حمزة الرسالة بصمت، ثم قرأها مرة أخرى. كانت رسالة طويلة في صفحتين، وقد تعمّد التمهل في قراءتها متظاهرًا بصعوبة فهم كل ما ورد فيها. قال: «تقول إنه حي ويعيش في ألمانيا. الحمد لله! لقد وجدَتْه. شخصٌ تعرفه السيدة وجد اسمه مذكورًا مرتين في المكتب المكلف بحفظ سجلات

العساكر؛ في عام 1929م حين تقدّم بطلب الحصول على معاش، وفي عام 1934م حين تقدّم بطلب الحصول على وسام. إذًا فهو حي الحمد لله، لكنها لا تعرف أكثر من هذا. تقول إنها سوف تستمر في البحث. لا أصدق. تقول إن رسالتي تأخرت في الوصول إليها لأنهم انتقلوا من منزلهم، ولكن عندما بلغتها تواصلت مع...».

قاطع الضابط البريطاني ثرثرته: «هذا يكفي. لقد قرأتُ الرسالة. ماذا تقصد بحديثها عن كتاب هاينه؟ أقرأت هذا الكتاب؟».

قال حمزة: «كلا بالطبع. أعطتني إياه السيدة. إنها مزحة، هذا ما أظنه. كانت تعلم أنني لن أفهم منه شيئًا. وقد ضاع الكتاب منذ سنوات».

فكر الضابط البريطاني لحظات بما قال ثم قرّر ألا يخوض بالأمر. «إن العلاقات مع ألمانيا متوترة للغاية حاليًّا. وإن لاحظنا أي خطابات أخرى مع أي شخص يعيش هناك فسوف نحقق بالأمر وقد نحتجز جميع المراسلات. وقد تكون عواقبها وخيمة عليك. واعلم أننا سوف نراقبك ونراقب هذا العنوان من الآن. يمكنك الانصراف».

دسّ حمزة الخطاب في جيبه وغادر ماشيًا تجاه ورشة الأخشاب، مستمتعًا بترقب لحظة وصوله إلى البيت وإخبار عافية. تجمّعوا حوله عندما عاد إلى الورشة وطمأنهم جميعًا قائلاً إن الضابط الإنجليزي استجوبه حول الوقت الذي قضاه في شوتزتروبه. أراد إخبار عافية أولاً ببشرى الرسالة. قال: «أعتقد أنهم يستدعون كل من كان من العساكر لأنهم يجنّدون لكتائب بنادق الملك الإفريقية. أخبرتهم أنني مصاب وانتهى الأمر».

انتظر لحين اجتماعهم على وجبة الغداء. بعد استقالة خليفة من وظيفته في المستودع أصبح يقضي ساعات الصباح في البيت أو يجلس في هذا المقهى أو

ذاك لمعرفة أخبار اليوم، بعدها يذهب إلى السوق لشراء الفاكهة والخضروات التي تطلبها عافية المشغولة بعملها صباحًا في عيادة التوليد. يرجع إلياس من المدرسة بعد عودة أمه، فتكون منشغلة بتحضير الطعام حينها، ويأكلون عند الساعة الثانية تقريبًا. انتظر حمزة إلى أن فرغوا من الطعام، وقد أكل وجبته من الماتوكي والسمك في ترقب صامت مستلذ، ثم غسل يديه ودعاهم.

قالت عافية مبتسمة: «ماذا تخفي؟ لقد أحسست أنك اليوم تتصرف على غير عادتك».

أخرج حمزة الظرف من جيب قميصه فعلموا فورًا ما هو. فلم يتلقَ أحد منهم خطابًا. شرع حمزة في قراءة الرسالة وترجمتها في وقت واحد.

«العزيز حمزة، تلقيت رسالتك بسرور واندهاش. لقد مرت أعوام كثيرة، لكننا ما زلنا نتذكر حياتنا في شرق إفريقيا الألمانية وفي الإرسالية. يسعدني أنك بأفضل حال، وأنك قد تزوجت وأصبحت تعمل في النجارة.

لم تصلنا رسالتك مباشرةً لأننا لا نعيش في برلين الآن، بل في فورتسبورغ. فاستغرق تسلّم خطاباتنا الواردة إلى ذلك العنوان بعض الوقت. يؤسفنا ما حدث لأخي زوجتك، ولهذا فقد بدأنا نستفسر عن مصيره فورًا. ومن حسن الطالع أن أحد أصدقائنا يعمل في مكتب الخارجية في برلين، وقد وجد إشارتين إلى إلياس حسن في سجلات الشوتزتروبه المحفوظة في ذلك المكتب، وقد علمنا أن قريبك يعيش هنا في ألمانيا. ونظرًا لغرابة اسمه فلا أظن أن في الشوتزتروبه إلياس حسن آخر. كانت أول إشارة إلى اسمه في عام 1929م في طلب مقدّم للحصول على معاش، والثانية في عام 1934م في طلب لتلقي وسام الجندية عن المشاركة في حملة شرق إفريقيا الألمانية. وقد تقدّم بكلا الطلبين في مدينة هامبورغ، فهو على الأرجح يسكن فيها. وكثير من الأجانب يعيشون في هامبورغ لأنهم يعملون على متن السفن، فربما هذا

هو عمله. لم يُقبل طلب المعاش الذي تقدّم به لأنه لا يملك أوراق تسريحه من الجيش. وكذلك رُفض طلب الوسام، لأن الوسام يُقدّم للألمان فقط دون العساكر.

مرت ألمانيا بأعوام مريرة مؤخرًا، ولا أظن حياة أي أجنبي هنا سهلة أو رغدة، ولكنك الآن تعلم أن قريبك ما زال حيًّا. لم يستطع صديقنا أن يعرف متى جاء إلى هنا أو أين كان قبل ذلك. لا بد أن ثمة معلومات أكثر في مكان ما، ولهذا فسوف نستفسر أكثر عن الأمر. سوف نخبرك إن عرفنا المزيد، وسوف نعطيه عنوانك إن عثرنا عليه. سوف يسرنا كثيرًا الاستمرار في التواصل معك.

وبالمناسبة، وصلتنا بعض الخطابات من عنواننا في مقر الإرسالية فوجدنا بينها رسالة من الأوبرلويتنانت، الضابط الذي أحضرك إلينا. كتب لنا خطابًا بعد عودته إلى ألمانيا في عام 1920م، وقد كنا أيضًا حينها في ألمانيا. يبدو أنه أُحتجز أولاً في دار السلام وبعدها في الإسكندرية. وقد استفسر في الرسالة عن أحوالك، فأبلغته أنك شفيت من إصابتك وأن لغتك الألمانية تحسنت كثيرًا، وأنك أصبحت من قراء شيلر المتفانين. إن المبشر يبعث إليك بتحياته ويود أن يعرف رأيك في هاينه. هذا ما يذكره عنك، لا يتذكر رجلاً عالج ساقه، وأنقذ حياته على الأرجح، بل عسكريًّا يظن أنه يفهم هاينه، المفكر الأثير إلى قلبه. وقد كان الكتاب الذي أعطيتُه إياك نسخة المبشر في الأصل. تقبل أطيب الأمنيات لك ولأسرتك».

***

لم تصلهم رسالة بعدها قط. بعث حمزة خطابًا يشكر فيه السيدة، ولكن ربما لم يغادر الخطاب حدود هذه الدولة. وإن غادرها وقد أجابت برسالة

تحمل أنباءً أخرى فربما لم تنفذ من رقابة ضابط الشرطة. أعلنت المملكة المتحدة وألمانيا الحرب بينهما في سبتمبر من ذلك العام، فكانت تلك نهاية الخدمات البريدية بين الدولتين. وقد كانوا في البلدة بعيدين كل البعد عن تلك الحرب، ولم يعرفوا عنها إلا ما سمعوه من الأخبار، رغم انتشار جنود بنادق الملك الإفريقية في أرجاء تنغا، وفي ناحية الحملة العسكرية ضد الإيطاليين في الحبشة. لم يشهد خليفة نهاية هذه الحرب. توفي بهدوء في إحدى ليالي عام 1942م، وكان يبلغ الثامنة والستين. دخل المسجد لأول مرة منذ عقود عندما حُمل جسده على النعش لصلاة الجنازة. ولم يورث أحدًا شيئًا، إلا بعض الأسمال وكومة صحف قديمة.

أنهى إلياس دراسة الصف الثامن عام 1940م، ولم يكن في البلدة تعليمًا أعلى من هذا. والتخرج بهذه الشهادة يعد إنجازًا في نظر الكثيرين، يؤهل للعمل موظفًا في إحدى الجهات الحكومية، مثل الصحة أو الزراعة أو الجمارك. التحق إلياس ببنادق الملك الإفريقية في ديسمبر عام 1942م، بعد وفاة خليفة وبعد أشهر من هزيمة الإيطاليين في الحبشة. كان في التاسعة عشرة، وقد أبدى رغبته في التجنيد لأكثر من سنة، ولكن رفض خليفة القاطع وغضبه العارم لهذا الاختيار جعلاه لا يجرؤ على عصيانه. قال لإلياس: هذه الحرب ليست حربك. ألا يكفي أن حماقة أبيك وخالك جعلتهما يخاطران بحياتهما لأجل دعاة الحرب المتصلّفين؟

أنهك إلياس والديه بمناشداته واستعطافه بعد وفاة خليفة. فالسلطة البريطانية قدّمت وعودًا بإرسال العساكر المؤهلين من بنادق الملك لإكمال دراستهم في الخارج بعد نهاية الحرب، ولم يستطع إلياس تفويت هذه الفرصة. بُعث للتدريب إلى بلدة غلغل في مرتفعات مستعمرة كينيا، ثم كُلّف بالعمل في حامية في دار السلام ضمن كتيبة الساحل حتى نهاية الحرب. لم يشارك

في أي قتال لكنه تعلّم الكثير عن الإنجليز وثقافتهم. كما تعلّم ركوب الدراجة النارية وقيادة سيارة الجيب، وتمكن حتى من أن يتعلم كيفية إصلاح محركها. مارس رياضة كرة القدم والتنس، واصطاد باستعمال بندقية الرمح، وكان يدخن الغليون مدةً من الزمن.

بعد نهاية الحرب تحقق الوعد بالدراسات العليا بتدريبه ليكون مدرسًا في دار السلام، وقد حصل إلياس بعد ذلك على وظيفة في مدرسة بالمدينة واستأجر حجرة في شارع كارياكو. تعالت في تلك السنوات بعض الأصوات المناهضة للاستعمار، تؤجّجها الحملة الناجحة في الهند، وانتصار نكروما في ساحل الذهب، وهزيمة الهولنديين في إندونيسيا. وانضم إلى هذه الحركة طلاب سيّستهم تجاربهم الجامعية في الرابطة الإفريقية في كلية ماكيريري الجامعية، ومشاركاتهم في اتحادات الطلبة في إنجلترا وإسكتلندا. وقد ساد التوجس في أنفسهم وفي كل من كان مطّلعًا على الأحداث من ميول المستوطنين إلى ترسيخ حكم استعماري جديد. لم تجذب هذه الحركات إلياس في ذلك الحين، لكنه انضم إليها لاحقًا. فقد كان في تلك السنوات في أواخر عشرينياته، يمارس الرياضة ويدّرس في المدرسة، ومع مرور الوقت أضحى اسمه معروفًا بالقصص التي يؤلفها بالسواحلية وتنشر في الصحف. وفي الخمسينيات دشّنت السلطة الاستعمارية الإذاعة، لبَثّ الأخبار والموسيقى والبرامج التي تتناول التحسينات في الخدمات الصحية والزراعية والتعليمية. عجّت الأخبار حينها بسرد الفظائع والمجازر التي وقعت في تمّرد ماو ماو في كينيا، حتى إن الأمهات يهدّدن المشاغبين من أطفالهن بظهور الثوار من شدة الأهوال المذاعة.

كان إلياس يسافر في كل عطلة لزيارة حمزة وعافية بضعة أيام. أُدخلت الكهرباء في أجزاء من البلدة ومنها منزلهم القديم. كان يتجول في الطرقات

مستمتعًا بالتغيير، ولكن سرعان ما يصيبه الضجر ويتوق إلى العودة للمدينة. أحبّ والداه الإصغاء إلى حكاياته عن المدينة، مستفسرَين عن تفاصيل إنجازاته الوظيفية ونجاح قصصه المنشورة. وكانت عافية تبدي الإعجاب الشديد بمهاراته الرياضية وتبالغ في ذلك، ما يملأ إلياس بالفخر أن تغلّب على ذاك الخجل الذي اتسم به صبيًّا. سأل عن خاله إلياس، هل بلغتهم أخبار عنه، وكان يسأل دائمًا وهو يعلم أن الإجابة لا. أخبره والده أنه كتب خطابًا آخر للسيدة زوجة المبشر لكنه لم يتلقَّ ردًا. كانت أنباء الدمار الذي حلّ بألمانيا تبلغهم، وإن كانت متأخرة، وخشي حمزة أن النجاة لم تُكتب للمبشر وزوجته. بلغ حمزة الخمسين، ثقلت حركته ولكنه ما زال بكامل صحته، يدير ورشة أخشاب بياشارا نيابةً عن ناصر الذي لم يعد رجل أعمال، بل أحد أقطاب التجارة في المنطقة يملك أنشطة تجارية شتى؛ شركات تصنيع أدوية، ومتاجر أثاث، وقد افتتح مؤخرًا متاجر لبيع الأجهزة الكهربائية كأجهزة المذياع. لدى حمزة وعافية مذياع منها.

من البرامج الإذاعية الشائعة في ذلك الوقت برنامج سردي يدعو المستمعين إلى إرسال إبداعاتهم للبث. في أحد الأيام عرض مساعد المنتج على رئيسه قصة من تأليف إلياس، فطلب المنتج مقابلته. كان رجلاً إنجليزيًّا دمث الأخلاق، واسع المنكبين، له وجه عريض وشارب بلون النحاس. يرتدي الزي الاستعماري؛ القميص الأبيض والبنطال الخاكي القصير والجوربين الطويلين الأبيضين، وأخيرًا الحذاء البني. ومن الأجزاء الظاهرة من ذراعيه وساقيه برزت شعيرات نحاسية كالتي تعلو وجهه.

قال في لقائه مع إلياس: «اسمي باتروورث، وأنا منتدب من وزارة الزراعة. أعترف أنني لست خبيرًا بأعمال الإذاعة ولا بتأليف القصص. معرفتي بها كمعرفتي بأعمال المرافئ والأنفاق... صفر. ولكن على المرء بذل

جهده على كل حال. أرى أن القصص التي تشمل في محتواها عناصر توجيهية ذات عبرة تفي بأغراضنا. وقد أعجبتني هذه القصة التي تروي تجارب معلم المدرسة. أيمكنك تأليف قصة أخرى تدور حول الزراعة؟».

كان السيد باتروورث من ضباط الاحتياط في بنادق الملك الإفريقية، فلما علم أن إلياس عسكري سابق شمله برعايته واهتمامه بطرق شتى، منها أنه أتاح له قراءة قصصه عبر الأثير، فتحقق لإلياس نصيب من الشهرة في المدينة. أُعفي السيد باتروورث من الانتداب في منتصف الخمسينيات ونقل إلى جزر الهند الغربية، ولكن لم يتأثر حال إلياس في الإذاعة التي أصبحت مهنته الجديدة وقد كرّس لها معظم وقته، حتى صار متفرغًا للعمل في فريق الإنتاج في الخدمات الإذاعية، مضطلعًا بمهام تحرير الأخبار، إلى جانب تأليف القصص في وقت فراغه. شهدت أعوام منتصف الخمسينيات نشاط حزب الاتحاد الوطني الإفريقي لتنجانيقا (تانو) ودعواته إلى الاستقلال، بقيادة المعلم جوليوس نيريري، الذي كاد أن يختار يومًا الرسامة الكهنوتية، لكنه اتجه عوضًا عن ذلك إلى النشاط الثوري والدعوة إلى الاستقلال. كان من الجلي بعد انتخابات عام 1958م أن الاضطراب شاع بين صفوف السلطة الاستعمارية البريطانية وأنها بدأت تتهيأ للانسحاب. فاز حزب التانو ونيريري في انتخابات عام 1960م التي أقيمت تحت إشراف السلطة الاستعمارية بنسبة 98 بالمئة من مقاعد البرلمان. ولم تكن هذه نتائج اعتباطية نشأت عن لجنة انتخابية فاسدة، بل أصوات حقيقية على مرأى من المسؤولين الاستعماريين المكرهين. ولا سبيل إلى تفنيد الحقائق، فلم تمض سنة إلا وقد رحل الإنجليز.

في عام 1963م، أي بعد عامين من الاستقلال الذي شهده والداه، مُنح إلياس بعثة من جمهورية ألمانيا الاتحادية لقضاء عام في مدينة بون لدراسة

تقنيات البث الإذاعي المتقدمة. كان في الثامنة والثلاثين حينئذ. وجمهورية ألمانيا الاتحادية المعروفة بألمانيا الغربية هي اتحاد للمناطق التي احتلتها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا بعد الحرب. أما المناطق الألمانية التي احتلها الاتحاد السوفيتي فقد أصبحت الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وكانت ذات نشاط ملحوظ في المشهد السياسي الاستعماري، وتقدّم مع حلفائها السوفيتيين في شرق أوروبا فرص اللجوء والتدريب والتسليح إلى حركات التحرير الثورية في أجزاء كثيرة من إفريقيا، ناصبةً نفسها الدولة المعينة على التحرر من الاستعمار. ولهذا فقد شرعت جمهورية ألمانيا الاتحادية بتقديم البعثات الدراسية منحًا تضاهي إعانات الجمهورية الألمانية الديمقراطية، للظفر بمساندة الدول الفقيرة في المحافل الدولية كمنظمة الأمم المتحدة. نجح إلياس في المقابلة واختبار التقييم وسرّ كثيرًا بقبوله في هذه البعثة. لم يسافر قط في حياته إلا إلى غلغل التي قضى فيها أشهر التدريب العسكري. والآن أُتيحت له فرصة السفر وهو رجل ناضج، توّاق إلى المعرفة، متطلع إلى توسيع آفاقه.

أمضى الأشهر الستة الأولى من إقامته في بون يتعلم اللغة الألمانية في دورة مكثفة. وقد استمتع كثيرًا بوقته هناك، فكان يحضر جميع الدروس ويتدرب لساعات، ويتجول في الشوارع كل يوم يتفرج على كل ما فيها، ويدخل المتاجر والمعارض، ويرسل بطاقات بريدية إلى والديه وزملاء العمل. كان يسكن في مبنى من ثلاثة طوابق مخصص لسكن الطلاب الكبار، وفي كل طابق ست حجرات واسعة وحمام مشترك. لم تكن كافتيريا الجامعة بعيدة عن مسكنه، فكانت إقامة مريحة تلبي احتياجاته. لا بد أنه ورث عن أبيه مهارة اكتساب اللغة، فقد قطع أشواطًا في تعلم الألمانية ونال ثناء معلميه.

وبنهاية الأشهر الستة بدأت دراسة فنون البث الإذاعي في هذا البرنامج.

وكان من متطلبات الدورة إتمام مشروع صحافي يتضمن إجراء البحوث وتسجيل المقابلات. وقد خُصصت للمشروع ميزانية وست ساعات من الاستشارة مع مشرف، ليتلقى منه التوجيه. كان إلياس يعلم بأمر هذا المتطلب قبل مجيئه إلى ألمانيا، وقد اختار الموضوع الذي يود الكتابة عنه. اختار أن يتقصى أثر خاله إلياس. كان قد نسخ عنوان السيدة زوجة المبشر من كتاب هاينه، وأخذ يقرأ عن مدينة فورتسبورغ منذ الأشهر الأولى، بينما هو يدرس اللغة. عرف أن ما يقارب التسعين بالمئة من المدينة دُمّر في غارة جوية في 16 مارس 1945م، بعد أن ألقت المئات من مقاتلات لانكاستر البريطانية قنابل محرقة. لم يكن الدافع وراء هذه الهجمة عسكريًّا، دُمرت المدينة لأجل تثبيط روح الشعب الألماني لا غير. وجد في مكتبة الجامعة خريطة حديثة للمدينة بعد إعادة إعمارها، فبحث عن اسم الشارع المذكور في عنوان السيدة. لم يظن قط أن الشارع سيبقى كما هو بعد ذاك الدمار الشامل، لكنه عثر عليه فعلاً. بعد تحسّن ألمانيته إلى حد ما بعد الدروس، كتب رسالة قصيرة يوضّح فيها أنه ابن حمزة العسكري، وأنه يود إيصال تحيات والده إلى السيد المبشر وزوجته. وكتب في الركن الأيسر من الظرف عنوانه. عادت إليه رسالته غير مفتوحة بعد عشرة أيام، وقد كُتب في أسفل الظرف (Nicht bekannt unter dieser Adresse). غير معروف في هذا العنوان.

قطّب المشرف على مشروعه، الدكتور كولر، جبينه وهو ينصت إلى إلياس يصف مشروعه. علّق: «حربٌ في إفريقيا قبل خمسين عامًا. لا مفر لألمانيا من حروبها».

كان الدكتور كولر في مطلع الأربعين، طويلاً أشقر، بادي البشاشة له حضور طاغٍ في القسم، وقد تضايق إلياس من قلة حماسه للفكرة. انتظر لحظة ثم تابع التوضيح، فقال إن عسكري الشوتزتروبه الذي يود البحث عنه هو

في الواقع خاله الذي جاء إلى ألمانيا بعد انتهاء الحرب في شرق إفريقيا الألمانية. فرفع د. كولر ذقنه وأومأ أن أكمل. تكلّم إلياس عن المبشر الذي عالج ساق أبيه وأنقذ حياته، وعن الإرسالية في كيلمبا، وخطاب السيدة زوجة المبشر تبشرهم بنجاة الخال. أخبره كذلك عن الخطاب الذي بعثه إلى العنوان في فورتسبورغ وعودته إليه. فرفع المشرف كتفيه، وظن إلياس أنه فهم الإشارة.

قال د. كولر: «إن كان مبشرًا فهو لوثري، ولن يصعب العثور على قس لوثري في فورتسبورغ الكاثوليكية. ما خطواتك القادمة؟».

«أعتزم السفر إلى هناك للاطلاع على أي سجلات عن سكان الشارع، أو أي معلومات عن المبشر أو السيدة زوجته».

التمعت عينا د. كولر حماسًا وقال: «إذًا فعجّل. أين ستبحث عن هذه السجلات؟».

أجاب إلياس: «لا أعلم. سوف أسأل عندما أصل إلى هناك».

ابتسم د. كولر. «لو كنت مكانك لبدأت الاستعلام في مبنى البلدية. تستطيع كما تعلم أن تقدّم طلب التعويض عن نفقات التنقل والمعيشة للرحلات المرتبطة بمشروعك، ولكن بعد أن تسافر. إن بيروقراطيتنا بالغة التدقيق في الشؤون المالية... بل في كل شأن. البيروقراطية الألمانية محط حسد العالم. فلذلك أرجو أنك تملك من المال ما يكفي للإنفاق على الرحلة ثم المطالبة بالمبلغ بعد عودتك. هذا مشروعك ولك أن تمضي فيه كيفما شئت، ولكن أود أن نلتقي مرةً في الأسبوع للاطلاع على ما قمت به. نعم، استعلم أولاً لدى بلدية فورتسبورغ. كانت بلدة جميلة حسبما أتذكر، ولكني لم أزرها منذ قيام الحرب».

ركب إلياس في القطار المتجه من بون إلى فرانكفورت، ثم غادر في آخر إلى

فورتسبورغ. توجه إلى مكتب السجلات المدنية في البلدية، فعرف أن الشارع الذي كان المبشر وأسرته يسكنونه قد دُمّر تمامًا، وأن المبشر وزوجته وابنتهما في عداد الموتى إثر الحرائق التي نشبت من الغارة. تذكّر أن للمبشر ابنتين، ولكن يبدو أن الابنة الثانية لم تكن تعيش في منزل والديها في ذلك الوقت. هذه فقط هي المعلومات المدونة في سجلات المكتب: أسماؤهم واسم الشارع الذي يعيشون فيه، وإثبات تدميره. نصحته الموظفة أن يتحقق كذلك من الأرشيف اللوثري البافاري في نورنبرغ.مكتبة سُر مَن قرأ

أبلغ د. كولر بنتائج بحثه، فنصحه بالاستعلام من الأرشيف هاتفيًّا قبل السفر. ثم عرض عليه مسجّلاً متنقلاً من أحدث ما أنتجته شركة فيليبس قبل بضعة أشهر. قال إن القسم اشترى مسجلين، فلماذا لا يأخذ إلياس أحدهما معه في رحلته لتسجيل حواره مع موظفي الأرشيف؟ استعلم إلياس عبر الهاتف ثم سافر إلى بافاريا، مارًّا بفرانكفورت وفورتسبورغ مرةً أخرى. لم يعلم أنه كان أقرب إلى نورنبرغ في رحلته الأولى. كان أمين الأرشيف مسنًّا يرتدي بذلة سوداء واسعة عليه. اصطحب إلياس إلى غرفة فيها طاولة طويلة وعليها كومة صغيرة من الأوراق. جلس الموظف في أحد طرفي الطاولة منكبًّا على بعض الأوراق مع مراقبته إلياس. قال له لا تتردد في طلب أي مساعدة إن احتجت.

قرأ إلياس في الوثائق أن المبشر التحق بعد عودته من منطقة شرق إفريقيا الألمانية بكنيسة القديس ستيفان الإنجيلية اللوثرية في فورتسبورغ. تدمّرت الكنيسة بأكملها في مارس عام 1945م، وأعيد بناؤها في الخمسينيات. كما تولى المبشر تدريس مادة اللاهوتية البروتستانتية بدوام جزئي في جامعة يوليوس-ماكسيمليانس-فورتسبورغ. لم تُسجل مهنة الزوجة. وقد توفي كلاهما مع ابنتهما الصغرى في الغارة. سأل إلياس أمين الأرشيف إن كان

يعرف ما حدث للابنة الأخرى، فاكتفى هذا بهز رأسه دون إجابة. ومن الأوراق قصاصة من صحيفة أو مجلة تحكي عن الإرسالية المبعوثة إلى كيلمبا، مجرد فقرتين تذكران إنشاء عيادة ومدرسة مرفقة باسم المبشر. لا تتضمن القصاصة صورة، ولا اسم الصحيفة أو تاريخها. سأل إلياس الموظف إن كان يعرف مصدر القصاصة.

نهض أمين الأرشيف واقترب من مكان إلياس، تمعّن بالقصاصة برهة ثم قال: «على الأرجح أنها من (Kolonie und Heimat) المستعمرة والوطن، النسخة القديمة قبل أن تسيطر عليها رابطة مستعمرات الرايخ».

سأل إلياس: «ما هذه الرابطة؟».

بدت الصرامة على وجه الموظف، والاحتقار بادٍ على وجهه أمام جهل إلياس. «إنها الرابطة.. جلايش شالتونج من أجل إعادة الاستعمار. كانت حملة لاستعادة المستعمرات التي خسرتها ألمانيا بسبب معاهدة فرساي».

سأل إلياس: «ما هذه الكلمة؟ جلايش شالتونج؟ أرجوك، أنا ممتن لمساعدتك».

أومأ أمين الأرشيف، وقد لان جانبه بأدب الطلب. «تشير الكلمة إلى جهود الحكومة النازية في توحيد المنظمات تحت حكم واحد. إنها تعني... التنسيق أو السيطرة. شملت رابطة مستعمرات الرايخ تحت رايتها جميع الهيئات الساعية إلى إعادة الاستعمار ووضعتها تحت سيطرة الحزب».

قال إلياس: «لم أعرف بوجود حركات تدعو إلى استعادة المستعمرات».

رفع أمين الأرشيف كتفه. هذا الأحمق. قال: «أحيت الرابطة مجلة (Kolonie und Heimat) التي كانت تُنشر في الحقبة الإمبريالية. أعتقد أن هذه القصاصة من أحد أعداد النسخة القديمة منها». ثم عاد إلى مكانه بينما

إلياس يدوّن هذه المعلومات. أدرك في تلك اللحظة أنه نسي تشغيل مسجل فيليبس. ولا يظن أن هذا الرجل الصارم سوف يقبل إعادة ما قاله عن رابطة مستعمرات الرايخ. خطر لإلياس سؤالٌ وهو يتأهب للانصراف، فالتفت إلى أمين الأرشيف وقال: أكنت في شرق إفريقيا الألمانية؟ كانا يقفان عند الباب الخارجي حين طرح السؤال، فأومأ الرجل ثم استدار داخلاً المبنى قبل أن يسأل إلياس أي أسئلة أخرى.

تعجّب د. كولر أيضًا عندما سمع من إلياس أنه لم يعلم عن حركة استعادة المستعمرات. «كانت حركة واسعة الانتشار، إحدى القضايا التي شغلت الحزب القومي الاشتراكي. أتذكر مسيراتهم. هل استعملت المسجل المتنقل؟ أوه... يا للأسف. أنت تعدّ برنامجًا إذاعيًّا، فمن المستحسن تسجيل بعض المحادثات مع الأشخاص الذين تلتقيهم، أمين الأرشيف مثلاً. لا تنس في بحثك التالي».

عرف إلياس أن أرشيف رابطة مستعمرات الرايخ يقع في كوبلنتس القريبة من بون، وهي من أقدم مدن ألمانيا وأجملها، تقع في ملتقى نهري الراين وموزل. اتصل بمكتب الأرشيف قبل سفره لإخطارهم بطلبه الاطلاع على أرشيف مجلة (Kolonie und Heimat)، فالتقت به أمينة الأرشيف وقادته إلى قاعة واسعة تصطف على جدرانها الأرفف. قالت إن مكتبها بجوار القاعة إن احتاج إلى أي مساعدة. عرف من الوثائق أن رابطة مستعمرات الرايخ تأسست عام 1933م، وأنها انضمت إلى الحزب القومي الاشتراكي في عام 1936م. أحيت الرابطة مجلة (Kolonie und Heimat) عام 1937م، وكانت أقرب إلى الصحافة المصورة لكثرة الصور الوثائقية التي تضمّنتها عن المساكن والاحتفالات الاستعمارية الملتقطة قبل خسارة المستعمرات. كانت المجلة تنشر كذلك صورًا عن الأنشطة التي تنظمها الرابطة لحشد الدعم وتهييج الرأي العام بهدف عودة المستعمرات. كان أعضاء الرابطة يرتدون

زي الشوتزتروبه في التجمّعات والمحافل ويحملون علم الرابطة. رأى في عدد نوفمبر عام 1938م صورة رديئة لأشخاص يقفون على منصة، فيها ألمانيان بالغان بالزي العسكري، ومراهق ألماني بقميص أبيض وبنطال قصير أسود، يقفون أمام الميكرفون، وخلفهم على يسار الصورة رجل إفريقي بزي الشوتزتروبه. كان علم رابطة مستعمرات الرايخ معلّقًا وراءهم، وقد ظهر الصليب المعقوف في إحدى زواياه. مكتوب تحت الصورة أنها التقطت في حفل عشاء أقامته الرابطة في هامبورغ لكن لم تذكر أسماء الأربعة. سأل أمينة الأرشيف إن كان من الممكن العثور على الصورة الأصلية أو أي تفاصيل عن مصدرها أو مناسبتها. وتذكر هذه المرة تشغيل المسجل.

قالت معتذرةً: «لدينا النسخ الأصلية لكثير من الصور، ولكن لا أعلم مكانها على وجه الدقة أو ما إذا كانت مصنّفة تصنيفًا صحيحًا. لدي بعض المهام العاجلة التي يجب إنجازها، ولكن امنحني بضعة أيام وسوف أوافيك بالإجابة. لدي رقم هاتف قسمك في الجامعة».

عاد بعد بضعة أيام إلى كوبلنتس. شغّل المسجل ليوثّق بحثه مع أمينة الأرشيف في صناديق الصور المصنّفة حسب الأعوام. لم يجدا صعوبة في العثور على الصورة الأصلية. كُتب خلفها اسم المصوّر وأسماء الأشخاص الظاهرين فيها، وقد اختار محرر المجلة ألا يذكر أسماءهم في العدد المنشور. تبيّن أنها صورة لاحتشاد جماهيري بعد عرض فيلم عن مجتمع شرق إفريقيا الألمانية، وقد عُرض في هامبورغ. اسم الإفريقي الذي يرتدي زي شوتزتروبه إلياس إسن. تلك العينان، هذان الحاجبان.

طلب من الموظفة نسخة من الصورة الأصلية وأرسلها إلى والدته. بلغه الرد منها بعد بضعة أيام بالتأكيد على أن الرجل الذي في الصورة هو خاله إلياس.

كان إلياس يسكن في بون قريبًا من المكاتب الحكومية، ومنها مكتب الخارجية، وقد تمكّن من مقابلة الكثير من المسؤولين بصفته صحفيًّا وطالبًا في برنامج البث الإذاعي الممول ببعثات الحكومة الاتحادية. حتى عندما لم يستطيعوا تزويده بالمعلومات التي يحتاج إليها فإنهم كانوا يوجّهونه إلى الجهات التي قد يجد فيها ضالته. كان يكتب رسائل منتظمة إلى والديه لإخطارهما بنتائج بحثه، ولكن بعض هذه النتائج غير مؤكدة، فلم يستحسن ذكرها في رسالة.

زار إلياس معهد التاريخ الحربي في فرايبورغ، وأرشيف الرابطة الاستعمارية في برلين، ومعهد اللغات الشرقية في برلين للقاء بعض اللغويين والتنقيب في أرشيفهم عن الدورات التدريبية اللغوية التي كانت ممنوحة لرجال الشرطة والمسؤولين الذين كانوا يستعدون لحكم المستعمرات بعد استرجاعها. كان يهدف من بعض جهوده البحثية إلى التحقق من معلومات حصل عليها، وأحيانًا الحصول على سياق أوضح وتاريخٍ يكمل الأجزاء الناقصة. التقى بالخبراء والهواة من المؤرخين والشغوفين بالسير الحربية، ومسجل فيليبس يعمل متى ما أذن له الشخص بالتسجيل، فجمع شيئًا فشيئًا صورة متكاملة، قصة، وإن كانت لا تزال ناقصة التفاصيل، تتطلب بحثًا أطول وأكثر دقةً، ولكنها تفي بالغرض من مشروعه الإذاعي. كان د. كولر مسرورًا بنتائج بحثه، وقد علّق أن رداءة التسجيل تضفي على القصة شحنة عاطفية.

انتظر لحين عودته إلى الوطن كي يخبر والديه بنفسه القصة الكاملة لما جرى لخاله إلياس. هذا ما أخبرهم به. أصيب الخال إلياس في معركة ماهيوا في أكتوبر عام 1917م. (قال حمزة: قاتلتُ في تلك المعركة. كانت من فظائع الحرب). اُعتقل في سجن في ليندي، ثم نقل إلى معتقل آخر في مومباسا. (قالت عافية: إذًا كان على بعد مسيرة يوم من هنا). أجلت

السلطات البريطانية الضباط الألمان بعد الحرب إلى ألمانيا، ولكنها أطلقت سراح عساكر الشوتزتروبه كيفما كانوا، أخرجتهم من المعتقلات وتركتهم وشأنهم. لم يعرف إلياس من أين أطلق سراح الخال إلياس أو متى. لم يجد أي معلومات عن تسريحه. قد يكون في أي منطقة في الساحل أو حتى ما وراء البحار. ولم يعرف أيضًا بماذا اشتغل بعد تسريحه. يبدو أنه عمل نادلاً أو خادمًا على متن السفن. ما يعرفه على وجه التأكيد أنه عمل على متن سفينة ألمانية، وكان في ألمانيا عام 1929م، كما يعرفون من رسالة السيدة ومما وجده إلياس في وثائق مكتب الخارجية. في ذلك الوقت غيّر اسمه إلى إلياس إسن وكان يعمل مغنيًا في هامبورغ. يتذكر الناس في تلك الحقبة أنه إلياس إسن، المغني في ملاهي هامبورغ الوضيعة، الذي كان يقدّم وصلات غنائية بالزي العسكري، لابسًا الطربوش الذي يحمل شعار النسر الإمبريالي. تزوّج امرأة ألمانية عام 1933م وأنجب منها ثلاثة أبناء. عرف إلياس هذا من طلب استئناف موثق في أحد السجلات قدّمته زوجته ضد دعوى بإخلاء شقتهم المستأجرة، وقد ضمّنت في الطلب تفاصيل زواجها وولادة أبنائها وسجل زوجها العسكري في شوتزتروبه. وجد أيضًا في السجلات طلبه بالحصول على وسام الحملة في عام 1934م، وهذا أيضًا مما كانوا يعرفونه من خطاب السيدة زوجة المبشر. ما لم يعرفوه، لأن السيدة لم تعرفه كذلك، أن الخال إلياس كان يشارك في مسيرات رابطة مستعمرات الرايخ، إحدى منظمات الحزب النازي. كان النازيون يريدون استعادة المستعمرات، وكان الخال إلياس يريد عودة الألمان، فسار معهم في مسيراتهم حاملاً علم شوتزتروبه، واعتلى منصاتهم مغنيًا الأغاني النازية. قال إلياس لأمه: كنتِ هنا تبكين فراقه والخال إلياس يرقص ويغني في المدن الألمانية، ويلوح بعلم الشوتزتروبه في مسيرات تطالب باسترجاع المستعمرات. لم تقتصر سياسة ليبنسراوم على أوكرانيا وبولندا في نظرهم. الحلم النازي يمتد إلى التلال والأودية والسهول

المحيطة بذلك الجبل المغطى بالثلوج في إفريقيا.

كان الخال إلياس يعيش في برلين عام 1938م، وفي الوقت التي كانت السيدة زوجة المبشر تتحرى فيه عن مكانه لأجلهم أُعتقل بتهمة انتهاك قوانين العرق النازية وتدنيس امرأة آرية. لم يعتقل لزواجه بزوجته الألمانية! فذاك الزواج تم في عام 1933م، أي قبل سن قوانين العرق في عام 1935م، فلم تنطبق عليهما. بل اعتقل لإقامته علاقة غير شرعية مع ألمانية أخرى عام 1938م. وهذا ما تعنيه سيادة القانون. خرق القانون خرقًا لا جدال فيه عام 1938م، لكنه لم يخالفه عام 1933م لأن قوانين الفصل العرقي لم تكن مطبّقة في ذلك الحين. أُرسل الخال إلياس إلى معتقل زاكسنهاوزن النازي خارج برلين، وتطوّع ابنه الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة للّحاق به هناك. كان اسم الابن بول، تيمنًا بالجنرال قائد حرب شرق إفريقيا. لا توجد سجلات تُنبئ بما جرى لزوجته. توفي الخال إلياس وابنه بول في زاكسنهاوزن عام 1942م. لم يُسجل سبب وفاة الخال إلياس، ولكن كتب أحد المعتقلين الذين نجوا في مذكراته أن ابن المغني الأسود الذي دخل المعتقل طوعًا ليكون مع أبيه أُعدم بالرصاص لمحاولته الهرب.

قال إلياس لوالديه: ما نعرفه يقينًا هو أن إنسانًا أحبّ الخال إلياس حبًّا عظيمًا جعله يتبعه إلى موت محتوم في معتقل نازي، كي يكون معه في كل لحظة.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

ما بعد الموت

تعتبر هذه الرواية إضافةً إلى أرشيف الأدب الإفريقي العظيم، فإلى جانب الموضوعاتِ التي تسود أعمال عبد الرزاق قرنح مِن هجرة ونزوح وعنصرية ومرحلة ما بعد الاستعمار؛ يُصوّرُ هذا الكتاب موضوعًا هامًّا ولكن نادرًا ما يُسلَّط الضوء عليه، ألا وهو حيوات ومصائر الجنود الذين يُقاتلونَ إلى صفّ المستعمر. إنهُ انعكاسٌ حيّ لِكفاح وحياة المواطنين الأفارقة الذين اختُطِفوا أو بِيعوا من أجل القتال لصالح أوروبا.

"رواية توثّق ما كسب الإنسان وما فقده، في سبيل النجاة".

(Time)

"بلغة سلسة وحكاية منسابة يسلّط قرنح ضوءًا ساطعًا صادقًا على ماضي إفريقيا الاستعماري الدامي ... ومن خلال حياة شخصياته المعقّدة يكشف آثار الاستعمار والسلطة، ويقدّم دليلاً إلى عالم مفقود كيلا ينسى".

(Publishers Weekly)

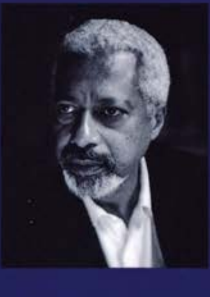

credit Mark Pringle

عبد الرزاق قرنح، من مواليد زنجبار (1948). روائي وأكاديميّ تنزانيّ من أصول يمنيّة، يُقيم في المملكة المتحدة ويحمل الجنسية البريطانية. يعملُ قرنح أستاذًا ومديرًا للدراسات العليا في جامعة كِنت في قسم اللغة الإنكليزية. في رصيده عشر روايات والعديد من القصص القصيرة والمقالات. ترشحت أعماله لعدة جوائز مثل، البوكر، الكومنولث للكتّاب. وفي أكتوبر 2021 حازَ قرنح على جائزة نوبل في الأدب.

ISBN 978-603-91836-7-9

لوحة الغلاف للفنان: رائد فوزان

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

أثر